بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأنعام

(كاملة)

فوائد – منوعات – فضائل – أقوال

جمع وإعداد

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع على الانترنت – مجلة رياض المتقين

www.almotaqeen.net

البريد الإلكتروني

sa.ma22@hotmail.com

كانت البداية بفضل الله : الثلاثاء / ٤ / ١١ / ١٤٣٤هـ

مقدمة

- سورة الأنعام سورة مكية . (والمكي ما نزل قبل الهجرة) .

وهي أول سورة مكية في ترتيب المصحف ، فسورة البقرة ، وآل عمران والنساء ، والمائدة كلها مدنية .

- وأهم مواضيع هذه السورة :

التوحيد ، وإثبات أصول الاعتقاد ، عن طريق الإقناع والتأثير والمناظرة والجدل .

وإثبات الوحي والرسالة والرد على شبهات المشركين بالأدلة العقلية والحسية .

وإثبات البعث والحساب والجزاء يوم القيامة .

- واسمها الأنعام ، وليس لها إلا هذا الاسم كما جاء في بعض الأحاديث والآثار .
- وسميت بذلك لأنها السورة التي عرضت لذكر الأنعام على تفصيل لم يرد في غيرها من السور .
- نزلت هذه السورة جملة واحدة .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)) .

[الأنعام ١ – ٢] .

(**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) ثناء من الله على نفسه سبحانه وتعالى ، وأمر بذلك عباده فقال تعالى مخاطباً لنبيه خطاباً يدخل فيه جميع أمته (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى) .

- الحمد وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم .
- **الحمد لله** : الألف واللام للاستغراق فجميع المحامد كلها لله ، ومن أسمائه الحميد ، **قال ابن القيم** :

وهو الحميدُ فكل حمدٍ واقع　　　أو كان مفروضاً مدى الأزمان

ملأ الوجودَ جميعَه ونظيرَه　　　من غير ما عدٍّ ولا حُسْبَـــان

هو أهله سبحانَه وبحمده　　　كل المحامد وصف ذي الإحسان

- والله عز وجل يحمد على كمال صفاته ، وعلى كمال إنعامه :

الحمد على كمال صفاته ، كقوله تعالى (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) وقال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) .

الحمد على إنعامه، كقوله ﷺ (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشربَ الشربة فيحمده عليها). رواه مسلم

- قال بعض العلماء : إن الحمد هو الثناء على الله ، **وهذا قول ضعيف** لأن الرسول ﷺ قال (قال تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، فإذا قال الحمد لله ، قال : حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم : قال : أثنى علي عبدي ...) رواه مسلم ، ففرق بين الحمد والثناء ، فالصحيح أن الثناء هو تكرار الحمد .

(**الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**) أي : الذي أوجدها على تقدير محكم ، لأن الأصل أن الخلق لغة هو التقدير .

◆ **قال الشوكاني** : ثم وصف نفسه بأنه الذي خلق السموات والأرض إخباراً عن قدرته الكاملة ، الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك وأوجده، هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد، والخلق يكون بمعنى الاختراع، وبمعنى التقدير .

◆ إنما ذكر السموات والأرض ، لأنهما من أعظم المخلوقات .

◆ وفي تقديم السموات على الأرض وجهان :

أحدهما : لتقدم خلقها على الأرض.

والثاني : لشرفها ، فقدمها على ذكر الأرض وإن كانت مخلوقة بعد الأرض.

◆ فالله عز وجل يحمد على خلقه السماوت والأرض ، كما في هذه الآية (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ...) .

وعلى دخول الجنة، قال تعالى (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)، (وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) .

وعلى صفات الكمال كالوحدانية وغيرها ، قال تعالى (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً) .

إنزال الكتاب ، قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا) .

◆ قوله تعالى (السماوات) فيه دليل على أن السموات سبع ، وهذا منصوص عليه في القرآن في آيات كثيرة كقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً) وقال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) .

وأما الأرض فهي سبع أيضاً لظاهر القرآن وصريح السنة ، قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) وأما السنة فقوله ﷺ (من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أراضين) متفق عليه .

◆ وقد اختلف العلماء في بداية الخلق ، فذهب الأكثر أن بداية خلق المخلوقات يوم الأحد .

وهذا قول عبد الله بن سلام ، وابن عباس ، وكعب ، ومجاهد ، وعكرمة .

وقال به الطبري ، والسمرقندي ، وابن عطية ، والرازي ، والبيضاوي ، وابن تيمية ، وأبو حيان ، وابن كثير ، والسعدي وغيرهم .

لأن الله أخبر بالقرآن أن خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام كما قال تعالى (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام) وثبت في الحديث الصحيح أن آخر المخلوقات كان آدم خلق يوم الجمعة، فدل على أن أوله يوم الأحد لأنها ستة .

وهذا قول أكثر المفسرين .

وذهب بعض العلماء إلى أن ابتداء الخلق كان يوم السبت ، لحديث أبي هريرة – في صحيح مسلم – قال : قال ﷺ (خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ وَفِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ) .

وهذا الحديث مما انتقد على مسلم .

قال ابن تيمية : وَمِثْلُهُ حَدِيثُ مُسْلِمٍ (إنَّ اللَّهَ خَلَقَ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ) فَإِنَّ هَذَا طَعَنَ فِيهِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْ مُسْلِمٍ مِثْلَ يَحْيَى بْنِ مَعِينٍ وَمِثْلَ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِمَا وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ أَنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَطَائِفَةٌ اعْتَبَرَتْ صِحَّتَهُ مِثْلَ أَبِي

بَكْرٍ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ وَأَبِي الْفَرَجِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ وَغَيْرِهِمَا وَالْبَيْهَقِي وَغَيْرُهُ وَافَقُوا الَّذِينَ ضَعَّفُوهُ وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَثَبَتَ أَنَّ آخِرَ الْخَلْقِ كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَوَّلُ الْخَلْقِ يَوْمَ الْأَحَدِ وَهَكَذَا هُوَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَعَلَى ذَلِكَ تَدُلُّ أَسْمَاءُ الْأَيَّامِ وَهَذَا هُوَ الْمَنْقُولُ الثَّابِتُ فِي أَحَادِيثَ وَآثَارٍ أُخَرَ .

وقال : ولو كان أول الخلق السبت وآخره يوم الجمعة لكان قد خلق في الأيام السبعة ، وهو خلاف ما أخبر به القرآن .

(**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**) جعل هنا بمعنى خلق ، أي : وخلق الظلمات والنور .

- والمراد بالظلمات : سواد الليل ، وبالنور : ضياء النهار ، وهذا قول جمهور المفسرين .

وبه قال الطبري ، والواحدي ، والبغوي ، وابن عطية ، والرازي ، وابن جزي الكلبي ، وابن كثير ، والقاسمي .

قالوا: لأن الأصل حمل اللفظ على حقيقته، لأن الظلمات والنور إذا كان ذكرهما مقرونين بالسماوات والأرض لم يفهم منه إلا ما ذكرنا .

- **قال الشوكاني** : واختلف أهل العلم في المعنى المراد بالظلمات والنور؛ فقال جمهور المفسرين : المراد بالظلمات سواد الليل ، وبالنور ضياء النهار .

وقال الحسن : الكفر والإيمان .

وقد رجح القرطبي أن الظلمات تعم سواد الليل والكفر ، والنور يعم الإيمان وضياء النهار .

وقد وافق القرطبي في ذلك السمعاني ، والسيوطي ، والشوكاني ، والآلوسي ، والسعدي .

قال الشوكاني : والأولى أن يقال : إن الظلمات تشمل كل ما يطلق عليه اسم الظلمة ، والنور يشمل كل ما يطلق عليه اسم النور ، فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر ونور الإيمان (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات) .

فاستدلوا بالآية .

وعموم اللفظ لكلا النوعين .

قال السعدي : ... وذلك شامل للحسي من ذلك، كالليل والنهار، والشمس والقمر. والمعنوي، كظلمات الجهل، والشك، والشرك، والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان، واليقين، والطاعة .

والأول **أرجح** .

- جمع الظلمات لكثرة أسبابها وتعدد أنواعها .

- **قال الرازي** : لقائل أن يقول : لم ذكر الظلمات بصيغة الجمع ، والنور بصيغة الواحد ؟

فنقول : أما من حمل الظلمات على الكفر والنور على الإيمان ، فكلامه ههنا ظاهر ، لأن الحق واحد والباطل كثير ، وأما من حملها على الكيفية المحسوسة ، فالجواب : أن النور عبارة عن تلك الكيفية الكاملة القوية ، ثم إنها تقبل التناقص قليلاً قليلاً ، وتلك المراتب كثيرة ، فلهذا السبب عبّر عن الظلمات بصيغة الجمع.

- **وقال ابن عاشور** : وإنّما جُمع (الظلمات) وأفرد (النور) اتّباعاً للاستعمال ، لأنّ لفظ (الظلمات) بالجمع أخفّ ، ولفظ (النور) بالإفراد أخفّ ، ولذلك لم يرد لفظ (الظلمات) في القرآن إلاّ جمعاً ولم يرد لفظ (النور) إلاّ مفرداً.

- **قال ابن عاشور** : وخَصّ بالذكر من الجواهر والأعراض عرضين عظيمين ، وهما : الظلمات والنور فقال (وجعل الظلمات والنور) لاستواء جميع الناس في إدراكهما والشعور بهما.

- وقال ابن عاشور :وقدّم ذكر الظلمات مراعاة للترتّب في الوجود لأنّ الظلمة سابقة النور ، فإنّ النور حصل بعد خلق الذوات المضيئة ، وكانت الظلمة عامّة.

(**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**) أي : ومع هذا كله كفر به بعض عباده ، وجعلوا له شريكاً وعدلاً .

- وقد اختلف العلماء في معنى قوله تعالى (بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) ؟

فقيل : أنه من العدل عن الشيء ، بمعنى الانحراف والميل عنه ، والمعنى : إن الذين كفروا بربهم يميلون وينحرفون عن طريق الحق إلى الكفر والضلال .

وقيل : معنى (يعدلون) يجعلون له نظيراً في العبادة ، وهذا القول هو الصحيح ، ومنه قول العرب : عدلت فلاناً بفلان إذا جعلته له نظيراً وعديلاً ، ويدل لهذا القول قوله تعالى (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وقوله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) .

- **قال ابن القيم** : (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم.

- وفي هذه الآية تحريم الشرك في المحبة وأن يُجعل مع الله ند يحب كما يحب الله، قال ابن القيم في قوله تعال (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية ، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم.

- **قال ابن القيم** : وههنا أربع أنواع من الحب ، يجب التفريق بينها :

أحدها: محبة الله، وهذه وحدها لا تكفي في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، فإن المشركين وعباد الصليب واليهود يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحبه الله: وهي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر ، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

والثالث : الحب لله وفيه ، وهي من لوازم محبة ما يحبه الله ، ولا تستقيم محبة ما يحبه الله إلا بالحب فيه وله .

الرابع : المحبة مع الله ، وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئاً مع الله ، لا لله، ولا من أجله ولا فيه ، فقد اتخذه نداً من دون الله، وهذه محبة المشركين .

(**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ**) يعني أباهم آدم، الذي هو أصلهم، ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ) وقال تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

وقال تعالى (والله خلقكم من تراب) أي : ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب .

وقال تعالى (وبدأ خلق الإنسان من طين) يعني خلق أبا البشر آدم من طين .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) .

وجاء في السنة ما يؤيد هذا : قال ﷺ (الناس بنو آدم ، وآدم من تراب) .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ) في معناه قولان :

أحدهما ، وهو الأشهر ، وبه قال الجمهور : أن المراد آدم عليه السلام ، وأخرج مخرج الخطاب للجميع ، لأنهم ولده ونسله .

الثاني : أن يكون المراد جميع البشر باعتبار أن النطفة التي خلقوا منها مخلوقة من الطين .

(ثم **قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ**) قيل (ثُمَّ قَضَى أَجَلاً) يعني الموت (وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ) يعني الآخرة .

وهذا رجحه الطبري ، والسمرقندي ، وابن الجوزي ، وابن تيمية .

وقيل : الأجل العام هو أجل الدنيا ونهايتها ، ثم أجل مسمى عنده وهو البعث .

وهذا مروي عن ابن عباس ، ومجاهد ، واختاره البيضاوي ، وابن جزي ، وابن كثير ، والآلوسي .

وقيل : الأول مدة الدنيا والثاني : عمر الإنسان إلى حين موته ، وقيل غير ذلك ، والصحيح الأول .

♦ **قال ابن عاشور** : فالمراد بالأجل الأول عمر كلّ إنسان ، فإنّه يعلمه الناس عند موت صاحبه ، فيقولون : عاش كذا وكذا سنة ، وهو وإن كان علمه لا يتحقّق إلاّ عند انتهائه فما هو إلاّ علم حاصل لكثير من النّاس بالمقايسة ، والأجل المعلوم وإن كان قد انتهى فإنّه في الأصل أجل ممتدّ.

والمراد بالأجل الثاني ما بين موت كلّ أحد وبين يوم البعث الذي يبعث فيه جميع الناس ، فإنَّه لا يعلمه في الدنيا أحد ولا يعلمونه يوم القيامة ، قال تعالى (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلاّ ساعة من النهار يتعارفون بينهم) ، وقال (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) .

هناك قول ثالث : أن (قضى أجلاً) هو النوم تقبض الأرواح ثم ترجع إلى صاحبها حين اليقظة ، (وأجلٌ مسمى عنده) هو أجل موت الإنسان .

ويعترض على هذا القول : أن السياق يأباه ، فالنظم جاء ليبين قدرة الله في الإحياء والخلق والإماتة .

♦ قوله تعالى (عِنْدَهُ) أي : لا يعلمه إلا هو .

(**ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ**) أي : تشكون في البعث .

♦ **قال ابن عاشور** : والامتراء : الشكّ والتردّد في الأمر ، وهو بوزن الافتعال ، مشتقّ من المرية بكسر الميم اسم للشكّ ، ولم يرد فعله إلاّ بزيادة التاء ، ولم يسمع له فعل مجرّد.

وحذف متعلّق (تمترون) لظهوره من المقام ، أي تمترون في إمكان البعث وإعادة الخلق .

الفوائد :

١- وجوب حمد الله على نعمه وعلى كمال صفاته وقد قال تعالى (قل الحمد لله) .

٢- أن الله سبحانه وتعالى له أن يتمدح بنفسه ، ويدعو الناس إلى ذلك ، لأنه سبحانه أهل لذلك .

٣- ثبوت الحمد الكامل لله .

٤- أن هذا الحمد الذي ثبت له هو أهل له .

٥- أن الخالق هو الله سبحانه .

٦- أن الخالق هو المستحق للعبادة .

٧- أن السموات والأرض من أعظم المخلوقات .

٨- تحريم اتخاذ الند مع الله .

٩ سفه من يتخذ مع الله نداً وهو لا يستطيع أن يخلق بل هو مخلوق .

١٠- أن أصل ابن آدم من تراب وهو أبونا آدم .

١١- أن آجال الموت والقيامة بيد الله تعالى .

(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) .

[الأنعام : ٣] .

(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) اختلف العلماء في معنى الآية على أقوال **أصحها** : أي هو الإله المعبود في السماوات والأرض ، لأنه جلا وعلا هو المعبود بحق في الأرض والسماء ، ويشهد لهذا القول قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) أي : وهو المعبود في السماء والأرض بحق .

واختاره ابن كثير ، حيث قال : فأصح الأقوال أنه المدعو في السموات وفي الأرض ، أي : يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رَغَبًا ورَهَبًا ، إلا من كفر من الجن والإنس ، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأرْضِ إِلَهٌ) ، أي : هو إله مَنْ في السماء وإله مَنْ في الأرض ، وعلى هذا فيكون قوله (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) خبرًا أو حالاً .

- **ورجحه الشنقيطي** وقال: فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ لِلْعُلَمَاءِ مِنَ التَّفْسِيرِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَهُ مِصْدَاقٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: الْأَوَّلُ : أَنَّ الْمَعْنَى وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ، أَيْ : وَهُوَ الْإِلَهُ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ بِحَقٍّ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَعَلَى هَذَا فَجُمْلَةُ يَعْلَمُ حَالٌ ، أَوْ خَبَرٌ ، وَهَذَا الْمَعْنَى يُبَيِّنُهُ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) ، أَيْ : وَهُوَ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِحَقٍّ ، وَهَذَا الْقَوْلُ فِي الْآيَةِ أَظْهَرُ الْأَقْوَالِ ، وَاخْتَارَهُ الْقُرْطُبِيُّ . (أضواء البيان) .

- **ورجحه الشوكاني** فقال : والأوّل أولى ، ويكون (يعلم سركم وجهركم) جملة مقرّرة لمعنى الجملة الأولى ، لأن كونه سبحانه في السماء والأرض ، يستلزم علمه بأسرار عباده وجهرهم ، وعلمه بما يكسبونه من الخير والشرّ ، وجلب النفع ودفع الضرر.

واختار هذا القول : القرطبي، والبغوي، وابن عطية ، والرازي، وابن تيمية، وابن جزي الكلبي ، وأبو حيان، وابن كثير، والشوكاني، والشنقيطي .

والقول الثاني : أن قوله (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ) وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال (وَفِي الأرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) وهذا اختيار ابن جرير.

وعلى هذا القول : أن الوقف تام على قوله في (**السَّمَاوَاتِ**) وقوله (وفي الأرض) يتعلق بما بعده ، أي : يعلم سركم وجهركم في الأرض ، ومعنى هذا القول : أن الله مستو على عرشه فوق جميع خلقه ، مع أنه يعلم سر أهل الأرض ، وجهركم لا يخفى عليه شيء من ذلك .

(يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) أي : يعلم سركم وعلنكم .

- **قال القاسمي** : أي : من الأقوال أو الدواعي والصوارف القلبية وأعمال الجوارح .

كما قال تعالى (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) .

وقال تعالى (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) .

- **قال ابن عاشور** : وذكر السرّ لأنّ علم السرّ دليل عموم العلم ، وذكر الجهر لاستيعاب نوعي الأقوال .

(**وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ**) أي : ويعلم جميع أعمالكم خيرها وشرها وسيجازيكم عليها .

♦ **قال ابن عاشور** : والمراد بـ (تكسبون) جميع الاعتقادات والأعمال من خير وشر فهو تعريض بالوعد والوعيد ، والخطاب لجميع السامعين ؛ فدخل فيه الكافِرون ، وهم المقصود الأول من هذا الخطاب ، لأنّه تعليم وإيقاظ بالنسبة إليهم وتذكير بالنسبة إلى المؤمنين.

الفوائد :

١- أن ألوهية الله ثابتة في السماء والأرض .

٢- أن الله يعلم السر والجهر ، فيجب مراقبة الله عز وجل .

٣- على المسلم أن ينوي بقلبه النية الصافية ، فإن الله يعلم ما تضمره القلوب .

٤- عموم علم الله تعالى . (الثلاثاء : ٤/١١/١٤٣٤هـ)

(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (٥)) .

[الأنعام : ٤ — ٥] .

(**وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ**) يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين إنهما مهما أتتهم (مِنْ آيَةٍ) أي : دلالة ومعجزة وحجة ، من الدلالات على وحدانية الرب تعالى عز وجل ، وصدق رسله الكرام ، فإنهم يعرضون عنها فلا ينـظرون فيها ولا يبالون بها . (والإعراض : ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله) .

♦ **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ) أي علامة كانشقاق القمر ونحوها ، و"مِنْ" لاستغراق الجنس ؛ تقول : ما في الدار من أحد ، (مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ) "مِنْ" الثانية للتبعيض .

والإعراض ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله جل وعز من خلق السموات والأرض وما بينهما .

♦ **قال ابن عاشور** : والمراد بقوله (من آية) كلّ دلالة تدلّ على انفراد الله تعالى بالإلهية.

من ذلك آيات القرآن التي لإعجازها لم كانت دلائل على صدق الرسول ﷺ فيما أخبر به من الوحدانية.

وكذلك معجزات الرسول ﷺ مثل انشقاق القمر.

♦ قوله تعالى (مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ) آيات الله تنقسم إلى قسمين :

آيات شرعية : كالوحي المنزل .

آيات كونية : كالسماء والأرض والشمس والقمر وغيرها .

فهؤلاء إذا جاءتهم الآيات الشرعية كذبوها وكذبوا خبرها، وقالوا عنها سحر، وقالوا أساطير الأولين، والاستكبار عن أحكامها .

وإذا جاءتهم الآيات الكونية لا يهتمون بها ولا تحرك لهم ساكناً ، وعدم المبالاة ، فلا يبالون إذا سمعوا بالزلازل ، أو بانتشار الأوبئة القاتلة ، ويقولون هذا أمر طبيعي .

♦ قوله تعالى (مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ) المراد بالربوبية هنا الربوبية العامة، خالقهم ومالكهم ومدبرهم، لأن الربوبية تنقسم إلى قسمين:

ربوبية عامة : وهي للمؤمن والكافر كقوله في هذه الآية (مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ) .

ربوبية خاصة : وهي للمؤمنين وتقتضي الحفظ والعناية والتربية كقوله تعالى (رب موسى وهارون) .

وقد اجتمع النوعان في قول سحرة فرعون (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) فالأولى عامة والثانية خاصة .

(**فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ**) أي : كذبوا بالقرآن حين جاءهم من عند الله .

◆ **قال أبو حيان** :قوله تعالى (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) (الحق) القرآن أو الإسلام أو محمد ﷺ أو انشقاق القمر أو الوعد أو الوعيد ، أقوال والذي يظهر أنه الآية التي تأتيهم وكأنه قيل (فقد كذبوا) بالآية التي تأتيهم وهي (الحق) فأقام الظاهر مقام المضمر ، لما في ذلك من وصفه بالحق وحقيقته كونه من آيات الله تعالى ، وظاهر قوله (فقد كذبوا) أن الفاء للتعقيب وأن إعراضهم عن الآية أعقبة التكذيب.

(**فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**) أي: سوف يأتيهم عاقبة استهزائهم، أي: عقوبة وعذاب سخريتهم، وهذا تهديد ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدن غبه، وليذوقن وباله .

◆ قوله تعالى (فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ ...) الأنباء جمع النبأ وهو الخبر، والنبأ أخص من الخبر، فكل نبأ خبر وليس كل خبر نبأ، لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر الخاص، وهو الخبر الذي له خطب وشأن، وهلاكهم وتهديد ووعيدهم نبأ عظيم له شأن وخطب جسيم .

الفوائد :

١- شدة عتو وعناد هؤلاء الكفار حيث لم يؤمنوا بالآيات الواضحة البينة .

٢- ذم الإعراض وخطره ، وأن الإنسان إذا أعرض فإنه الله يعاقبه ويزيده طغيانه استدراجاً وشدة لعقوبته كما قال تعالى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) وقال تعالى (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ) .

٣- تهديد المكذبين بالحق ، وأنه سوف يأتيهم عاقبة سخريتهم .

(**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦)**) .

[الأنعام : ٦] .

(**أَلَمْ يَرَوْا**) بأعينهم وبقلوبهم .

بأعينهم ، كقوله تعالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) .

وإن لم يروا بأبصارهم ولكنهم سمعوا به فتكون رؤية علمية .

(**كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ**) أي : كثيراً من القرون والأمم دمرناها وأهلكناها وأتلفناها .

◆ القرن : هم أهل الزمان الواحد المتعاصرين، سموا بذلك لاقتران بعضهم ببعض، والعصر مائة سنة على أحد الأقوال، وقيل: ثمانين، وقيل غير ذلك .

ورجح القرطبي أن المراد (بالقرن) هم الأمة من الناس ، مقترنين في زمن واحد .

واختار هذا القول : الطبري ، والزجاج ، والبغوي ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، وابن كثير ، والسيوطي .

فإن هذه الكلمة يدل اشتقاقها من الاقتران ، أي هم القوم الذين كانوا مقترنين في ذلك الوقت .

ولقوله ﷺ (خير الناس قرني ...) .

وكثرة استعمال القرآن لهذا المعنى ، ففي سورة الفرقان بعد أن ذكر الله قوم نوح وفرعون وعاداً وثمود قال (وقروناً بين ذلك كثيراً) أي : أمماً وأقواماً وأجيالاً .

وقيل : المراد بالقرن المدة من الزمن ، واختلفوا في تحديدها على أقوال :

قال ابن جزي : والقرن : مائة سنة ، وقيل : سبعون ، وقيل : أربعون .

والأول عليه الأكثر :

لقوله ﷺ لعبد الله بن بسر (عش قرناً) فعاش مائة سنة .

ولقوله ﷺ (أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإنه على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض أحد) .

ولقوله ﷺ (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس مائة سنة من يجدد لها أمر دينها) .

- وما ذكره الله تعالى هنا من أنه أهلك كثيراً من القرى أخبر به في آيات كثيرة :

قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ...) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ) .

وقال تعالى (وكم من قرية أهلكناها ...) .

وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً) .

وهذه القرون التي أهلكها قبلهم :

(**مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ**) يعني أعطيناهم ما لم نعطكم .

قال ابن عباس : أمهلناهم في العمر والأجسام والأولاد مثل قوم نوح وعاد وثمود .

كانوا أشد منهم قوة ، وأكثر جمعاً ، وأكثر أموالاً وأولاداً واستغلالاً للأرض وعمارة لها .

كما قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ) .

وقال تعالى (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا) .

(**وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً**) أي : وأنزلنا عليهم المطر غزيراً متتابعاً يدر عليهم دراً ، وعبر عنه بالسماء لأنه ينزل من السماء .

- **قال القرطبي** (وَأَرْسَلْنَا السمآء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً) يريد المطر الكثير ؛ عبر عنه بالسماء لأنه من السماء ينزِل .

- المراد بالسماء هنا العلو ، [وذلك أن السماء يُطلق على معنيين : المعنى الأول : العلو، كقوله تعالى (أنزل من السماء ماء) المراد بالسماء هنا العلو ، لأن المطر ليس ينزل من السماء السقف ، بل ينزل من العلو ، المعنى الثاني : المراد بالسماء السقف كما في قوله تعالى (والسَّمَاءَ بِنَاءً)] .

- والمراد بالمدرار: المبالغة في اتصال المطر ودوامه، يعني أنها تدرّ وقت الحاجة إليها، لا أنها تدوم ليلاً ونهاراً فتفسد، ذكره ابن الأنباري.

(**وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ**) أي : من تحت أشجارهم ومنازلهم حتى عاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ) أي :من تحت أشجارهم ومنازلهم ؛ ومنه قول فرعون (وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتي) والمعنى : وسعنا عليهم النعم فكفروها.

- **قال الرازي** : واعلم أن الله تعالى وصف القرون الماضية بثلاثة أنواع من الصفات :

الصفة الأولى : قوله (مكناهم فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكّن لَّكُمْ) والمعنى لم نعط أهل مكة مثل ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم من البسطة في الأجسام والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا .

والصفة الثانية : قوله (وَأَرْسَلْنَا السماء عَلَيْهِم مِدْرَاراً) يريد الغيث والمطر ، فالسماء معناه المطر ههنا ، والمدرار الكثير الدر وأصله من قولهم در اللبن إذا أقبل على الحالب منه شيء كثير فالمدرار يصلح أن يكون من نعت السحاب ، ويجوز أن يكون من نعت المطر يقال سحاب مدرار إذا تتابع أمطاره.

ومفعال يجيء في نعت يراد المبالغة فيه.

قال مقاتل (مِدْرَاراً) متتابعاً مرة بعد أخرى ويستوي في المدرار المذكر والمؤنث.

والصفة الثالثة : قوله (وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ) والمراد منه كثرة البساتين.

واعلم أن المقصود من هذه الأوصاف أنهم وجدوا من منافع الدنيا أكثر مما وجده أهل مكة ، ثم بيّن تعالى أنهم مع مزيد العز في الدنيا بهذه الوجوه ومع كثرة العدد والبسطة في المال والجسم جرى عليهم عند الكفر ما سمعتم وهذا المعنى يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة.

(**فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ**) أي : فأتلفناهم ودمرناهم بسبب ذنوبهم .

- **قال ابن عاشور** : والإهلاك : الإفناء ، وهو عقاب للأمّة دالّ على غضب الله عليها ، لأنّ فناء الأمم لا يكون إلاّ بما تجرّه إلى نفسها من سوء فعلها ، بخلاف فناء الأفراد فإنّه نهاية محتّمة ولو استقام المرء طول حياته ، لأنّ تركيب الحيوان مقتض للانتهاء بالفناء عند عجز الأعضاء الرئيسية عن إمداد البدن بمواد الحياة فلا يكون عقاباً إلاّ فيما يحفّ به من أحوال الخزي للهالك .

- وما ذكره الله تعالى هنا من أنه أهلك كثيراً من القرى أخبر به في آيات كثيرة .

قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ...) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً) .

قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ) .

قال تعالى (وكم من قرية أهلكناها ...) .

وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً) .

وأخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم .

كما قال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

وقال تعالى (فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً) .

وقال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ

أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

وقال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) .

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) .

ثالثاً : أن الله لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل .

قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) .

وقال تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) .

وقال تعالى (وما ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً) .

رابعاً : أن الله يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاتعاظ .

قال تعالى (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) .

وقال تعالى (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا) .

خامساً : أخبر تعالى أن أهل الترف والغنى هم من يكذب بالرسول من القرى .

قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مقتدون) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) .

سادساً : أخبر تعالى لو أن أهل القرى آمنوا لكان خيراً لهم .

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) .

(**وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ**) أي : ذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث ، وخلقنا من بعدهم جيلاً آخر ، لنختبرهم ، فمن أطاع مكناه ووفقناه ، ومن عصى عذبناه ، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم ، لولا لطفه وإحسانه .

- وفي هذا بيان لكمال قدرته سبحانه وقوة سلطانه وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء .
- فالله تعالى يقص خبر الأمم السابقة وهلاكهم للعبرة والاتعاظ .

قال تعالى (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا) .

الفوائد :

١- وجوب الاعتبار والاتعاظ بما جرى بالأمم السابقة من الهلاك لما كذبوا ، كما قال تعالى (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) وقال تعالى (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) .

٢- تقرير المكذبين بما يقرون به أنه أهلك من سبقهم .

٣- تهديد المكذبين لرسول ﷺ أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة .

٤- الاستدلال بالأعلى على الأدنى ، فإن الله أهلك من هم أقوى وأشد من هؤلاء .

٥- بيان عظمة الله حيث أهلك المكذبين .

٦- إثبات الأسباب .

٧- أن الذنوب من أسباب الهلاك ، وهذا يشمل الهلاك الحسي والمعنوي .

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)) .

[الأنعام : ٧] .

(**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ**) يقول تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ) والخطاب للنبي ﷺ .

(**كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ**) أي : كتاباً مكتوباً على ورق كما اقترحوا .

(**فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ**) أي : عاينوه ورأوا نزوله ، وباشروا ذلك .

♦ **قال ابن الجوزي** : فأما قوله تعالى (فلمسوه بأيديهم) فهو توكيد لنزوله ، وقيل : إنما علّقه باللمس باليد إبعاداً له عن السحر ، لأن السحر يُتَخَيَّلُ في المرئيات ، دون الملموسات ، ومعنى الآية : إنهم يدفعون الصحيح.

♦ **قال القرطبي** (فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ) أي : فعاينوا ذلك ومسُّوه باليد كما اقترحوا وبالغوا في مَيْزه وتقليبه جسّاً بأيديهم ، ليرتفع كل ارتياب ويزول عنهم كل إشكال ، لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم .

♦ قال بعض العلماء : قوله تعالى (فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ) حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين : حاسة البصر ، وحاسة اللمس .

♦ **قال ابن عاشور** : واللمس وضع اليد على الشيء لمعرفة وجوده ، أو لمعرفة وصف ظاهره من لين أو خشونة ، ومن برودة أو حرارة ، أو نحو ذلك.

(**لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**) أي: لقال الكافرون عند رؤية تلك الآية الباهرة تعنتاً وعناداً، ما هذا إلا سحر واضح،

كما أخبر الله عنهم في قوله (وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ) .

قال الشنقيطي : ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْكُفَّارَ لَوْ نَزَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مَكْتُوبًا فِي قِرْطَاسٍ، أَيْ صَحِيفَةٍ ، إِجَابَةً لِمَا اقْتَرَحُوهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ : وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ) ، فَعَايَنُوا ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، لَعَانَدُوا ، وَادَّعَوْا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سَحَرَهُمْ ، وَهَذَا الْعِنَادُ وَاللَّجَاجُ الْعَظِيمُ وَالْمُكَابَرَةُ الَّذِي هُوَ شَأْنُ الْكُفَّارِ بَيَّنَهُ تَعَالَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) .

وَقَوْلِهِ (وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ) .

وَقَوْلِهِ (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) .

وَقَوْلِهِ (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ) .

وَقَوْلِهِ (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) .

وَقَوْلِهِ (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَذَكَرَ تَعَالَى نَحْوَ هَذَا الْعِنَادِ وَاللَّجَاجِ عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ فِي قَوْلِهِ: وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) .

- **قال ابن عاشور** : وجاء قوله (الذين كفروا) دون أن يقول : لقالوا ، كما قال (فلمسوه) إظهاراً في مقام الإضمار لقصد تسجيل أنّ دافعهم إلى هذا التعنّت هو الكفر ، لأنّ الموصول يؤذن بالتعليل.

- **وقال ابن عطية** : لما أخبر عنهم عز وجل بأنهم كذبوا بكل ما جاءهم من آية تبع ذلك إخبار فيه مبالغة مضمنه أنه لو جاءهم أشنع مما جاء لكذبوا أيضاً .

- والغرض أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات وأظهر الدلائل ، كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) . وقال تعالى (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) وقال تعالى (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ) وقال تعالى (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا) وذكر تعالى نحو هذا العناد واللجاج عن فرعون وقومه في قوله (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) .

- **قال الشوكاني** : وإذا كان هذا حالهم في المرئي المحسوس ، فكيف فيما هو مجرد وحي إلى رسول الله ﷺ بواسطة ملك لا يرونه ولا يحسونه ؟

- وفي هذا علم الله بما سيكون لو كان ، لأنه علم ماذا سيكون قول هؤلاء لو نزل عليهم كتاب في قرطاس .

الفوائد :

١- بيان عناد المكذبين للرسول ﷺ لقوله تعالى (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) .

٢- علم الله تبارك وتعالى بما سيكون لو كان ، لأنه علم ماذا سيكون قول هؤلاء لو نزل عليهم كتاب في قرطاس .

٣- تأكيد المعلوم بالمحسوس .

(**وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ** (٨) **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ** (٩)) .

[الأنعام : ٨ – ٩] .

(**وقَالُوا**) المكذبون للنبي ﷺ .

(**لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ**) أي : هلا نزل عليه ملك نراه ويكلمنا أنه نبي حتى نؤمن به ونتبعه ؟ كما قالوا (لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً) .

(**وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً**) كما اقترحوا وطلبوا .

(**لَقُضِيَ الْأَمْرُ**) فيه أقوال :

قيل : أي لا انتهى الأمر بهلاكهم إذ لم يؤمنوا عند رؤيته ونزوله ، لأن مثل هذه الآية البينة ، وهي نزول الملك على تلك الصفة إذا لم يقع الإيمان بعدها فقد استحقوا الإهلاك والمعاجلة بالعقوبة .

ورجح هذا القول : الطبري ، والبغوي ، وابن القيم ، وابن كثير ، والشوكاني ، والقاسمي ، والسعدي ، والشنقيطي .

ويؤيد هذا القول : أن الملائكة لا تنزل إلا بوحي أو بعذاب ، ويدل على ذلك قوله تعالى (ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين) .والحق هاهنا العذاب .

ويؤيده كذلك قوله تعالى (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) .

♦ **قال القاسمي** : والمعنى : أن الملك لو أنزل على رسول الله ﷺ في صورته ، وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن ، ثم لم يؤمنوا ، لحاق بهم العذاب ، وفرغ الأمر ، فإن سنة الله قد جرت في الكفار أنهم متى اقترحوا آية . ثم لم يؤمنوا ، استؤصلوا بالعذاب ، كما قال تعالى (مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ) وقوله تعالى (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ) .

وقيل : أن المراد موتهم ، والمعنى : إن الله سبحانه لو أنزل ملكاً مشاهداً لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء ، من هول رؤيته ، إذ لا يطيقون رؤيته .

ورجح هذا القول ابن عطية ، والآلوسي .

قال ابن عطية : وقالت فرقة (لقضي الأمر) أي لماتوا من هول رؤية الملك في صورته ، ويؤيد هذا التأويل ما بعده من قوله (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً) فإن أهل التأويل مجمعون أن ذلك لأنهم لم يكونوا يطيقون رؤية الملك في صورته .

وقيل : (لَقُضِيَ الْأَمْرُ) أي : قامت القيامة، قال ابن عطية وهو ضعيف .

♦ جرت عادة الله عز وجل بأن من طلب آية معينة ، ثم أعطوا هذه الآية ، ولم يؤمنوا أهلكهم الله بالعقاب والعذاب .

فإن قيل : لماذا لم تهلك قريش لما طلبوا آية فانشق القمر نصفين كما طلبوا ؟

الجواب : لأنهم لم يطلبوا آية معينة ، بل قالوا : يا محمد ! أرنا آية ، فأراهم انشقاق القمر .

(**ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ**) أي : ثم لا يُمهلون ، بل يعاجلون بالعقوبة .

(**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً**) أي : لو جعلنا الرسول إلى النبي ملكاً ، أو جعلنا الرسول إلى البشر ملكاً .

(**لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً**) أي : لجعلنا ذلك الملك رجلاً ، لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك على صورته التي خلقه الله عليها من شدة النور ، ولم يأنسوا به ونفروا منه ، ولدخلهم الرعب ، وحصل معهم من الخوف ما يمنعهم من كلامه ومشاهدته ، فلا تتم المصلحة من الإرسال .

♦ قال الرازي (لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً) والحكمة فيه أمور :

أحدها : أن الجنس إلى الجنس أميل.

وثانيها : أن البشر لا يطيق رؤية الملك .

وثالثها : أن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر ، وربما لا يعذرونهم في الإقدام على المعاصي .

ورابعها : أن النبوّة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده ، سواء كان ملكاً أو بشراً.

♦ **قال أبو حيان** : ومعنى (لجعلناه رجلاً) أي : لصيرناه في صورة رجل ، كما كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ في غالب الأحوال في صورة دحية ، وتارة ظهر له وللصحابة في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد من الصحابة ، وفي الحديث (وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً) ، وكما تصوّر جبريل لمريم بشراً سوياً والملائكة أضياف إبراهيم وأضياف لوط ومتسوّر والمحراب ، فإنهم ظهروا بصورة البشر وإنما كان يكون بصورة رجل ، لأن الناس لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته .

♦ **وقال القرطبي** : لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكاً لفروا من مقاربته وما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب والاتقاء له ما يكفهم من كلامه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لقالوا : لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم .

(**وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ**) أي : لأوقعناهم في اللبس والإشكال والخلط ، كما يفعلون ذلك مع أتباعهم من الضعفاء ، وكما يسعون إلى التلبيس عليك ، وهنا يختلط الأمر عليهم أملكٌ هو أم بشر ؟

♦ **قال الشوكاني** : أي : لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم ، لأنهم إذا رأوه في صورة إنسان ، قالوا : هذا إنسان وليس بملَك ، فإن استدلّ لهم بأنه ملك كذبوه .

الفوائد :

١-أن هؤلاء المكذبين يؤمنون بوجود الملائكة .

٢- تعنت المكذبين للمرسلين .

٣- أنهم يعلمون أن الملائكة في السماء .

٢-حكمة الله تعالى في إرسال الرسل من البشر . (الخميس/٦/١١/١٤٣٤هـ)

(**وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (١٠)**) .

[الأنعام : ١٠] .

(**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ**) (اللام) موطئة للقسم ، وقد للتحقيق ، والله لقد استهزأ الكافرون من كل الأمم بأنبيائهم الذي

بعثوا إليهم قبلك .

(**فَحَاقَ**) أي : نزل وأحاط .

(**بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ**) أي : بهؤلاء المستهزئين بالرسلة .

(**مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**) أي : عاقبة استهزائهم .

◆ في هذه الآية :

أولاً : تسلية للنبي ﷺ ، لأن الإنسان يتسلى بما وقع لغيره .

◆ **قال أبو حيان** (وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ) هذه تسلية لرسول الله ﷺ على ما كان يلقى من قومه وتأسّ بمن سبق من الرسل وهو نظير (وإن يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك) لأن ما كان مشتركاً من ما لا يليق أهون على النفس مما يكـون فيه الانفراد ، وفي التسلية والتأسي من التخفيف ما لا يخفى ، وقالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولي . . على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن . . أسلي النفس عنه بالتأسي

ثانياً : عناية الله تعالى بنبيه ﷺ حيث ينزل عليه من القرآن ما يسليه .

ثالثاً : تهديد ووعيد شديد للمكذبين المستهزئين .

رابعاً : وعد للنبي ﷺ وللمؤمنين بالنصر والعاقبة في الدنيا والآخرة .

◆ وقد وقع الاستهزاء والسخرية بالأنبياء قبله ﷺ .

فمن استهزائهم بنوح قولهم له : بعد أن كنت نجاراً صرت نبياً .

وقال تعالى عن نوح (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) .

ومن استهزائهم بهود ما ذكره الله عنهم بقولهم (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) .

ومن استهزائهم بصالح قولهم فيما ذكر الله عنهم (وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) وقولهم (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا) .

ومن استهزائهم بلوط قولهم فيما حكى الله عنهم (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) .

الفوائد :

١-تسلية النبي ﷺ ، حيث يذكره الله بقصص الأنبياء قبله حيث كذبوا وسخر منهم .

٢-تسلية لكل داعية إلى الله ، أن لا يبالي بما يقوله الأعداء من سخرية واستهزاء .

٣- سنة الله في ابتلاء الأنبياء وأتباعهم .

٤- الإشارة إلى أنه لا رسول بعد محمد ﷺ .

٥-تهديد المكذبين للرسول ﷺ .

٦- أن الاستهزاء والسخرية بالرسل موجب للعقاب .

(**قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)**) .

[الأنعام : ١١] .

(**قُلْ**) الخطاب للرسول ﷺ ، ويحتمل أن يكون له ولكل من دعا إلى شريعته .

- قوله تعالى (قل) فيه أهمية هذا الأمر الذي أُمِر به النبي ﷺ، لأن كل حكم أو خبر يُصدَّر بقل هو دليل على الاهتمام به، لأن الله جعل له عناية خاصة بالوصية بإبلاغه، وإلا فجميع الكتاب قال الله فيه (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ).

(**سِيرُوا فِي الْأَرْضِ**) السير المشي و (فِي الْأَرْضِ) أي : على الأرض ف (في) بمعنى (على) .

يأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهؤلاء المستهزئين أن يسيروا في الأرض، وهذا السير يشمل السير بالأبدان والسير بالقلوب، والسير بالقلوب: أن يقرأ ويتأمل ما وقع للأمم السابقة من العقوبات، وذلك بقراءة تاريخهم بما صح منها ، وأصح شيء ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والسير بالأقدام بأن ينظروا بأبصارهم آثار المكذبين كما في قوله تعالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) .

(**ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**) أي : انظروا ماذا حل بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم ، من العذاب والنكال ، والعقوبة في الدنيا ، مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة ، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين .

- **قال القرطبي** : (قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض) أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين المستسخرين المكذبين : سافروا في الأرض فانظروا واستخبروا لتعرفوا ما حلّ بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب ؛ وهذا السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأُمم وأهل الديار .

- **قال ابن عاشور** : والعاقبة آخر الشيء ومآله وما يعقبه من مسبّباته.

الفوائد :

١-الأمر بالسير في الأرض للاعتبار ، سواء كان بالبصائر أو بالبصر .

٢-فضل الاعتبار وأنه مطلوب .

٣- عقوبة التكذيب لله ولرسله .

(**قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٢)**) .

[الأنعام : ١٢] .

(**قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) أي : قل يا محمد لمن الكائنات جميعاً خلقاً وملكاً وتدبيراً ؟

(**قُلْ لِلَّهِ**) أي : قل لهم تقريراً وتنبيهاً هي لله .

- فالجواب من الرسول بأمر من الله .

(**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**) أي : أوجب على نفسه الرحمة .

♦ فمعنى (كتب) أوجب ، لأن الكتابة بمعنى الإيجاب ، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) أي فُرِض وأُوجِب .

والله عز وجل هو الذي ألزم على نفسه الرحمة ، ولله أن يكتب على نفسه ما شاء .

♦ قوله تعالى (عَلَى نَفْسِهِ) أي : على ذاته ، وليست صفته ، كما قال تعالى (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)

(**لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**) (اللام) موطئة للقسم ، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده ويبعثهم يوم القيامة .

كما قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) .

وقال تعالى (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ) .

♦ قوله تعالى (يوم القيامة) سميت بذلك :

لقيام الناس من قبورهم ، كما قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

ولقيام العدل فيه ، كما قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

ولقيام الأشهاد ، كما قال تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) فهذه الأمة تشهد على الأمم السابقة ، والرسول ﷺ يكون شهيداً على هذه الأمة .

(**لا رَيْبَ فِيهِ**) هذا نفي يراد به تأكيد الإثبات السابق (ليجمعنكم) .

(**الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ**) مبتدأ والخبر يكون محذوفاً والتقدير : الذين خسروا أنفسهم هم الخاسرون حقاً كما قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

♦ والخسران في لغة العرب : هو نقصان مال التاجر ، سواء كان نقصاً في ربح المال ، أو نقصاً في رأس المال ، واصطلاحاً : هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه تعالى .

وقد أقسم الله عز وجل في سورة كريمة من كتابه – وكل سورة منه كريمة – ألا وهي سورة العصر أن الخسران لا ينجو منه إنسان كائناً من كان إلا بأعمال معينة مبينة في قوله (وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .

(**فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**) توكيد أو بيان للسبب الذي كان به الخسران .

الفوائد :

١- أن جميع من في السماوات والأرض لله .

٢-ينبغي على الإنسان أن لا يخاف ولا يرجو إلا الله .

٣-رحمة الله الواسعة .

٤-إثبات البعث .

٥- إثبات يوم القيامة .　　　　**(الأحد : ١٠/١١/١٤٣٤هـ)**

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣)) .
[الأنعام : ١٣] .

(**وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**) أي : لله تعالى الساكن .

فالمراد بما سكن أي : بما استقرأ وهدأ ، من السكون ضد الحركة .

كما قال تعالى (وجعل الليل سكناً ...) لأنه يسكن فيه كل متحرك بالنهار .

وقال تعالى (وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أي : يسكن ويهدأ فيه الخلق من تعب النهار .

وبه قال البغوي ، وأبو حيان ، وأبو السعود ، والآلوسي .

- وخص الساكن بالذكر ، لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما يتصف بالحركة .

وقيل : المعنى: وله ما سكن فيهما وما تحرك، واكتفي بأحد الضدين عن الآخر كقوله تعالى (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) أي: والبرد .

- **قال ابن الجوزي** : فإن قيل : لم خص السكون بالذكر دون الحركة؟ فعنه ثلاثة أجوبة.

أحدها : أن السكون أعم وجوداً من الحركة.

والثاني : أن كل متحرك قد يسكن ، وليس كل ساكن يتحرك.

والثالث : أن في الآية إضماراً ، والمعنى : وله ما سكن وتحرك ؛ كقوله (تقيكم الحر) أراد : والبرد ؛ فاختصر .

- **وقال القرطبي** : (سَكَنَ) معناه هدأ واستقر ؛ والمراد ما سكن وما تحرك ، فحُذِف لعلم السامع .

وقيل : خص الساكن بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة .

وذهب بعض العلماء : إلى أن المعنى ما خلق ، فهو عام في جميع المخلوقات متحركها وساكنها ، فإنه يجري عليه الليل والنهار ؛ وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد الخلق ، وهذا أحسن ما قيل ؛ لأنه يجمع شتات الأقوال. (قاله القرطبي) .

واختار هذا القول الطبري ، والواحدي ، وابن عطية ، ووافقهم البيضاوي ، وابن جزي ، وابن كثير .

واحتج أصحاب هذا القول بأن المقصد من الآية العموم ، فكل ما سكن فهو من مخلوقات الله تعالى ، وهي عامة لكل ما خلق الله ، وما من شيء من مخلوقات الله إلا وهو ساكن بالليل والنهار .

- **قال ابن عاشور**: وتخصيص الليل بالذكر لأنّ الساكن في ذلك الوقت يزداد خفاء، فهو كقوله (ولا حَبَّةٍ في ظلمات الأرض) وعطف النهار عليه لقصد زيادة الشمول، لأنّ الليل لما كان مظنّةً الاختفاء فيه قد يظنّ أنّ العالم يقصد الاطّلاع على الساكنات فيه بأهميّة ولا يقصد إلى الاطّلاع على الساكنات في النهار، فذكر النهار لتحقيق تمام الإحاطة بالمعلومات.

(**وَهُوَ السَّمِيعُ**) لأقوال عباده .

- والسميع : اسم من أسماء الله تعالى ، متضمن لصفة السمع لله تعالى ، فهو سبحانه يسمع جميع الأقوال والأصوات ، السر والجهر عنده سواء .

كما قال تعالى (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) .

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) .

وقال تعالى (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) .

- **وسمع الله ينقسم إلى قسمين** :

أولاً : **سمع إدراك** : أي أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظاهر .

قال تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي...) .

هذا السمع قد يراد به الإحاطة ، كالآية السابقة .

وقد يراد به التهديد ، كقوله تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء) .

وقد يراد به التأييد ، ومنه قوله تعالى لموسى : (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) أي أسمعك وأؤيدك .

ثانياً : **سمع إجابة** : أي أن الله يستجيب لمن دعاه .

ومنه قول إبراهيم (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء) أي مجيب الدعاء .

ومنه قول المصلي (سمع الله لمن حمده) يعني استجاب لمن حمده .

ومنه كقوله ﷺ (اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع) أي : من دعاء لا يستجاب .

- **آثار الإيمان بهذا الاسم** :

أولاً : مراقبة الله تعالى فيما يقوله اللسان ، سواء أسر أو جهر به ، وسواء كان ذلك في جماعة أو في خلوة .

ثانياً : اللجوء إلى الله وسؤاله سبحانه من حاجات الدنيا والآخرة ، فهو السميع لدعاء عباده سرهم ونجواهم ، وهذا المعنى من معاني السميع (المجيب) يسكب في القلب الطمأنينة والأنس بالله وحسن الظن به سبحانه ، والرجاء فيما عنده ، وعدم الملل من دعائه .

وقد دعا الأنبياء والصالحون ربهم سبحانه بهذا الاسم ليقبل منهم طاعتهم أو ليستجيب لدعائهم :

فإبراهيم وإسماعيل قالا (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وامرأة عمران عندما نذرت ما في بطنها خالصاً لله لعبادته ولخدمة بيت المقدس قالت (فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

ودعا زكريا ربه أن يرزقه ذرية صالحة ثم قال (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) .

ودعا يوسف عليه السلام ربه أن يصرف عنه كيد النسوة (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وأمر بالالتجاء إليه عند حصول وساوس شياطين الإنس والجن، قال تعالى (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

(**الْعَلِيمُ**) بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم .

- **قال السعدي** : هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات، والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء .

- **مباحث علم الله تعالى** :

أولاً : الله تعالى يعلم كل شيء ، يشمل الجزئيات والكليات .

قال تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) .

وقال تعالى (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

ثانياً : يعلم سبحانه الماضي والمستقبل .

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) .

(ما بين أيديهم) الحاضر والمستقبل (وما خلفهم) الماضي .

ثالثاً : الله يعلم الخفايا وما في الصدور :

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) . وقال تعالى (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ) .

رابعاً : وليس شيء يصل إلى الأرض أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا قد أحاط الله به علماً .

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ) .

خامساً : ويعلم الأمور التي لن تكون كيف تكون لو كانت .

كما قال تعالى عن الكفار حين يكونون في النار (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .

وقال تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً ، لأن الله هو الذي ثبطهم عنها بحكمته بقوله (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروج الذي لا يكون قد علم جل وعلا أن لو كان كيف يكون ، كما صرح به في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) .

سادساً : ويستوي في علم الله السر والعلانية ، والصغير والكبير والغيب والشهادة .

قال تعالى (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) .

وقال تعالى (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) .

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) .

سابعاً : وعلم الله لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان .

قال تعالى (... قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) .

وقال تعالى (... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً) .

أما علم ابن آدم فمسبوق بجهل ويلحقه نسيان كما قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً) .

ثامناً : علمنا قليل بالنسبة لعلم الله .

قال تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) .

- الآثار المترتبة من علمنا بهذه الصفة :

أولاً : الخوف من الله وخشيته ، ومراقبته في السر والعلن ، لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره ، فإن

ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ظاهراً وباطناً .

ثانياً : اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض ، وللبواطن والظواهر ، يثمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه ، كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله كآفة الرياء والحسد والغل والعجب والكبر .

قال ابن القيم : فإن قلت : فما السبيل إلى حفظ الخواطر ، قلت : أسباب عدة ، أحدها : العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك ، وعلمه بتفصيل خواطرك ، والثاني : حياؤك منه ، والثالث : إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته .

ثالثاً : إن يقين العبد بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء ، ومن ذلك علمه سبحانه بحال عبده المصاب وما يقاسيه من الآلام ، إن ذلك يثمر في القلب الرجاء والأنس بالله ويدفع اليأس والقنوط من القلب .

رابعاً : ونستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء : وجوب مراقبة الله ، لأن العاقل إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء ، فسوف يراقب ربه ، بلسانه وجنانه وأركانه ، فبلسانه : لا ينطق بما حرم الله ، وبجنانه : لا يعتقد بقلبه خلاف الحق ، وبجوارحه : لا يستعملها في المحرمات ، فيستعمل العين في النظر إلى الحرام ، ويستعمل اليد في البطش الحرام ، ويستعمل الآذان في السماع الحرام .

وأيضاً نستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء: الرغبة والنشاط والرجاء، لأن الإنسان يعلم أن الله يعلم بكل أعماله الصالحة، وأنه لن يضيع منها شيء .

وختم الله هذه الآية بهذين الاسمين : السميع والعليم لأمرين :

أ- لأن معرفة أن الله سميع يسمع قولك ، عليم يعلم نيتك ، فحينئذٍ يقودك ذلك إلى التقوى .

ب- ولأن معرفة ذلك حق المعرفة يؤدي بالإنسان إلى الحذر أن يقول قولاً أو يفعل فعلاً خلاف الكتاب والسنة .

الفوائد :

١-أن السكون والحركة بيد الله .

٢- إثبات هذين الاسمين : السميع والعليم .

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)) .

[الأنعام : ١٤] .

(**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً**) الاستفهام للتوبيخ ، أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين أغير الله أتخذ ولياً ، استنصر به ويتولى أمري ، كما قال تعالى (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) . والمعنى : لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له .

- **قال ابن عاشور** : وأعيد الأمر بالقول اهتماماً بهذا المقول، لأنّه غرض آخر غير الذي أمر فيه بالقول قبله، فإنّه لما تقرّر بالقول ، السابق عبودية ما في السماوات والأرض لله ، وأنّ مصير كلّ ذلك إليه انتقل إلى تقرير وجوب إفراده بالعبادة ، لأنّ ذلك نتيجة لازمة لكونه مالكاً لجميع ما احتوته السماوات والأرض ، فكان هذا التقرير جارياً على طريقة التعريض إذ أمر الرسول ﷺ بالتبرىء من أن يعبد غير الله.

والمقصود الإنكار على الذين عبدوا غيره واتّخذوهم أولياء .

(**فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) أي : خالقهما مبدعهما على غير مثال سابق .

(**وَهُوَ يُطْعِمُ**) أي : الرازق لخلقه ، يطعمهم ويغذيهم ، من مأكولات ومشروبات ومطعومات .

(**وَلا يُطْعَمُ**) أي : غير محتاج إليهم ، ولذلك لكمال غناه ، فهو أحد صمد ، تصمد إليه الخلائق .

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) .

بل أمر سبحانه عباده أن يسألوه الإطعام فقال تعالى في الحديث القدسي (فاستطعموني أطعمكم) .

وقال أبو حيان : (وهو يطعم ولا يطعم) أي يرزق ولا يرزق كقوله (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) والمعنى أن المنافع كلها من عند الله ، وخص الإطعام من بين أنواع الانتفاعات لمس الحاجة إليه كما خص الربا بالأكل وإن كان المقصود الانتفاع بالربا.

♦ **قال ابن عاشور** : (وهو يطعم ولا يطعم) أي: يُعطي الناس ما يأكلونه ممّا أخرج لهم من الأرض: من حبوب وثمار وكلأ وصيد. وهذا استدلال على المشركين بما هو مسلّم عندهم ، لأنّهم يعترفون بأنّ الرازق هو الله وهو خالق المخلوقات وإنّما جعلوا الآلهة الأخرى شركاء في استحقاق العبادة.

وقد كثر الاحتجاج على المشركين في القرآن بمثل هذا كقوله تعالى (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) .

♦ وفي هذا أنه سبحانه لا يأكل ولا يشرب لأن هذا نقص ، والمخلوق يأكل ويشرب لحاجته للأكل والشرب لنقصه .

ولهذا ذكر تعالى أن عيسى ليس بإله بدليل أنه يأكل ويشرب فقال تعالى (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ...) .

(**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ**) أي : من هذه الأمة .

(**وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) أي : وقيل لي : ولا تكونن من المشركين .

♦ **قال ابن عاشور** : (قل) أي : قل لهم ذلك لييْأسوا، والكلام نهي من الله لرسوله مقصود منه تأكيد الأمر بالإسلام، لأنّ الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضدّه ، فذكر النهي عن الضدّ بعد ذلك تأكيد له ، وهذا التأكيد لتقطع جرثومة الشرك من هذا الدين.

♦ **قال السعدي :** أي: ونهيت أيضا ، عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض عليَّ ، وأوجب الواجبات .

♦ والشرك : تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله .

الفوائد :

١-أن الإنسان يلجأ إلى الله لأنه هو الولي .

٢- تحريم اتخاذ ولي من دون الله .

٣- على المسلم أن يصدع بالحق ويعلن به ، وأن يظهر شعائر دينه .

٤- أن الله هو المطعم لا مطعم سواه .

٥- ينبغي سؤال الله الإطعام والرزق .

٦- أن الله هو الغني الكامل فلا يحتاج إلى الطعام .

(قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)) .
[الأنعام : ١٥- ١٦] .

(**قُلْ**) أي : وقل لهم أيضاً :

(**إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) أي : إني أخاف إن عبدت غير ربي عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة .

- **قال البيضاوي** : (قُلْ إِنّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) مبالغة أخرى في قطع أطماعهم ، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب ، والشرط معترض بين الفعل والمفعول به وجوابه محذوف .

- فيوم القيامة يوم رهيب عظيم شديد .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) .

وقال تعالى (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) .

(**مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ**) يعني العذاب .

(**يَوْمَئِذٍ**) أي : يوم القيامة .

(**فَقَدْ رَحِمَهُ**) أي : فقد رحمه الله .

(**وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ**) الفوز : حصول الربح ونفي الخسارة ، وأعظم الفوز دخول الجنان ورؤية الكريم المنان ، قال تعالى (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) .

الفوائد :

١- وجوب الخوف من معصية الله .

٢-أن المعاصي سبب للعذاب .

٣-أن الفوز الحقيقي هو من يصرف عنه عذاب جهنم .

٤- إثبات رحمة الله تعالى .   (الثلاثاء : ١١/١١/١٤٣٤هـ)

(وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ (١٧)) .
[الأنعام : ١٧] .

(**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ**) من فقر ، أو مرض ، أو شدة ، وغيرها من أيّ أنواع الضر .

- **قال ابن عطية** : و (الضُّر) بضم الضاد سوء الحال في الجسم وغيره .

- **وقال ابن عاشور** : والضُرّ بضم الضاد هو الحال الذي يؤلم الإنسان ، وهو من الشرّ ، وهو المنافر للإنسان .

ويقابله النفع ، وهو من الخير ، وهو الملائم.

(**فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ**) أي : فلا مزيل له إلا الله سبحانه وتعالى .

(**وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ**) من صحة ، وعافية ، ومال ، وغيرها من أنواع الخير ، فلا راد له ، ثم بيّن سبحانه سبب ذلك بقوله :

(**فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) فلا يعجزه شيء ، ولا أحد يستطيع أن يرد أمره .

- **قال ابن عطية** : وهذا مثال ومعنى الآية الإخبار عن أن الأشياء كلها بيد الله إن ضر فلا كاشف لضره غيره وإن أصاب بخير فكذلك أيضاً لا راد له ولا مانع منه .

- **وقال القرطبي** : والمعنى : إن تنزِل بك يا محمد شدّة من فقر أو مرض فلا رافع وصارِف له إلاّ هو ، وإن يصِبك بعافية ورخاءٍ ونعمة (فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) من الخير والضر .

- **وقال ابن كثير** : يقول تعالى مخبرًا أنه مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، لا مُعَقِّب لحكمه ، ولا رَادَّ لقضائه (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) كما قال تعالى (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم لا مانع لِما أَعْطَيْت، ولا معطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ، ولهذا قال تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) .

وعن ابن عَبَّاسٍ قال : كنت خَلْفَ النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : " يا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمَكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللَّهِ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّه، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، واعْلَم أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لم يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّه لَكَ ، وإن اجْتَمَعُوا عَلَى أن يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لم يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رفعت الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ " رويناه في الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح.

- **قال ابن عاشور** : فالخطاب للنبي ﷺ ، وهذا مؤذن بأنّ المشركين خوّفوا النبي ﷺ أو عرّضوا له بعزمهم على إصابته بشرّ وأذى فخاطبه الله بما يثبّت نفسه وما يؤيس أعداءه من أن يستزلّوه .

- **وقال رحمه الله** : وفي الآيات ردّ على المشركين الذين كانوا إذا ذُكّروا بأنّ الله خالق السماوات والأرض ومن فيهن أقرّوا بذلك ، ويزعمون أنّ آلهتهم تشفع عند الله وأنّها تجلب الخير وتدفع الشرّ ، فلمّا أبطلت الآيات السابقة استحقاق الأصنام الإلهية لأنّها لم تخلق شيئاً ، وأوجبت عبادة المستحقّ الإلهية بحقّ ، أبطلت هذه الآية استحقاقهم العبادة لأنّهم لا يملكون للناس ضرّاً ولا نفعاً ، كما قال تعالى (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً) وقال عن إبراهيم عليه السلام (قال هل يسمـــعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرّون) .

- وفي هذه الآية : برهان على وحدانية الله تعالى ، لانفراده تعالى بالضر والنفع .
- وعلى الإنسان أن يعلق رجاءه بالله تعالى ، لأنه هو سبحانه مالك الضر والنفع .

- **قال ابن رجب رحمه الله** : واعلم أنَّ سؤالَ اللهِ تعالى دونَ خلقه هوَ المتعين ؛ لأنَّ السؤال فيهِ إظهار الذلِّ من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار ، وفيه الاعترافُ بقدرةِ المسؤول على دفع هذا الضَّرر ، ونيل المطلوب ، وجلبِ المنافع ، ودرء المضارِّ ، ولا يصلح الذلُّ والافتقار إلاَّ لله وحدَه ؛ لأنَّه حقيقة العبادة ، وكان الإمامُ أحمد يدعو ويقول : اللهمَّ كما صُنتَ وجهي عَنِ السُّجود لغيرك فصُنْه عن المسألة لغيرك ، ولا يقدر على كشف الضرِّ وجلب النفع سواه ، كما قال (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ) ، وقال (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) .

والله سبحانه يحبّ أنْ يُسأل ويُرْغَبَ إليه في الحوائج ، ويُلَحَّ في سؤاله ودُعائه ، ويَغْضَبُ على من لا يسأله ، ويستدعي مِنْ عباده سؤاله ، وهو قادر على إعطاء خلقه كُلِّهم سُؤْلَهم من غير أنْ يَنْقُصَ من ملكه شيء ، والمخلوق بخلاف ذلك كله : يكره أنْ يُسأل ، ويُحبُّ أنْ لا يُسألَ ، لعجزه وفقره وحاجته . ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوك : ويحك ، تأتي من يُغلِقُ عنك بابَه ، ويُظهِرُ لك فقرَه ، ويواري عنك غناه ، وتدع من يفتحُ لك بابه بنصف الليل ونصف النهار ، ويظهر لك غناه ، ويقول : ادعني أستجب لك ؟

وقال طاووس لعطاء : إياك أنْ تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ويجعل دونها حجابه ، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة ، أمرك أنْ تسأله ، ووعدك أنْ يُجيبك .

وقال رحمه الله : فإنَّ العبد إذا علم أنَّه لن يُصيبَه إلا ما كتبَ الله له مِنْ خير وشرٍّ ، ونفعٍ وضرٍّ ، وأنَّ اجتهادَ الخلق كلِّهم على خلاف المقدور غيرُ مفيد البتة ، علم حينئذٍ أنَّ الله وحده هو الضَّارُّ النَّافعُ ، المعطي المانع ، فأوجبَ ذلك للعبدِ توحيدَ ربِّه – عز وجل – ، وإفرادَه بالطاعة ، وحفظَ حدوده ، فإنَّ المعبود إنَّما يقصد بعبادته جلبَ المنافع ودفع المضار ، ولهذا ذمَّ الله من يعبدُ من لا ينفعُ ولا يضرُّ ، ولا يُغني عن عابدِهِ شيئاً ، فمن علم أنَّه لا ينفعُ ولا يضرُّ ، ولا يُعطي ولا يمنعُ غيرُ الله ، أوجبَ له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرُّع والدعاء ، وتقديم طاعته على طاعةِ الخلق جميعاً ، وأنْ يتّقي سخطه ، ولو كان فيه سخطُ الخلق جميعاً ، وإفراده بالاستعانة به ، والسؤال له ، وإخلاص الدعاء له في حال الشدَّة وحال الرَّخاء ، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عندَ الشدائد، ونسيانه في الرخاء، ودعاء من يرجون نفعَه مِنْ دُونِه، قال الله – عز وجل – (قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

الفوائد :

١- أنه ينبغي للمسلم أن يعلق رجاءه بالله تعالى .

٢- الحث على الصبر ، لأنك إذا علمت أن الذي أصابك بالضر هو الله ، فلابد أن تصبر لأنك عبده يفعل بك ما شاء .

٣- تمام سلطان الله تعالى ، وأنه سبحانه هو المتصرف كما يشاء بعباده .

٤- عموم قدرة الله .

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)) .

[الأنعام : ١٨] .

(**وَهُوَ الْقَاهِرُ**) اسم من أسماء الله تعالى .

ومعناه : قال ابن كثير : هو الذي خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجـوه ، وقهر كل شيء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره .

- **قال السعدي** : القهار لجميع العالم العلوي والسفلي ، القهار لكل شيء ، الذي خضعت له المخلوقـات ، وذلت لعزته وقوته وكمال قدرته .
- **وقال الخطابي** : هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة ، وقهر الخلق كلهم بالموت .
- من آثار هذا الاسم :

أولاً : أنه لا يكون إلا واحداً لا كفؤ له ، وإلا لم يكن قهاراً ، قال ابن القيم : لا يكون القهار إلا واحداً ، إذ لو كان معه كفؤ له فإن لم يقهره لم يكن قهاراً على الإطلاق ، وإن قهره لم يكن كفؤاً ، فكان القهار واحداً ، ولهذا اقترن اسمه سبحانه (القهار) باسمه سبحانه (الواحد) في كل الآيات ، قال تعالى (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) .

ثانياً : التعلق بالله وحده والتوكل عليه سبحانه ، وقطع العلائق بالأسباب المقهورة مع فعلها ، لأن حقيقة التوكل هي تمام الاعتماد على الله تعالى مع تمام الثقة بكفايته وإعانته ، وهذا لا يرصف إلا للواحد القهار .

ثالثاً : تعظيم الله – عز وجل – والخوف منه وحده وسقوط الخوف من المخاليق الضعاف المقهورين المغلوبين من القلب ، سواء كان ذلك خوفاً على الرزق أو خوفاً على الأجل .

(**فَوْقَ عِبَادِهِ**) متضمن لإثبات صفة العلو بأنواعها الثلاثة :

علو قهر : لهذه الآية (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) .

وعلو صفة : فكل صفات الله عالية ، له من الصفات أكملها وأعلاها . فهو حي متضمن لصفة الحياة الكاملة ، لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال .

وعلو مكان : وأهل السنة يثبتون علو الله ، فهو سبحانه عالٍ على خلقه بائن منهم .

- قوله تعالى (فَوْقَ عِبَادِهِ) المراد بها العبودية العامة ، فإن العبودية تنقسم إلى أقسام :

عبودية عامة : وهي عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فهذه عبودية القهر والملك .

قال تعالى (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً) .

وقال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) ، وقال تعالى (ومَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ) .

والنوع الثاني : فعبودية الطاعة والمحبة (الخاصة) .

قال تعالى (يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ) .

وقال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً) .

(**وَهُوَ الْحَكِيمُ**) اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة البالغة .

- **قال ابن جرير** : هو الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل .
- **وقال ابن كثير** : الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله .
- **قال ابن القيم** : وقد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة : أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل ، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة ، لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل .
- **وقال السعدي** : فلا يخلق شيئاً عبثاً ، ولا يشرع سدى ، الذي له الحكم في الأولى والآخرة ، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك ، فيحكم بين عباده في شرعه ، وفي قدره ، وجزائه .

وقال رحمه الله : (وَهُوَ الْحَكِيمُ) فيما أمر به ونهى ، وأثاب ، وعاقب ، وفيما خلق وقدر.

◆ فهو سبحانه حكيم في صنعه ، وحكيم في شرعه ، فجميع مصنوعاته كلها محكمة ، قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) وأما في الشرع فيقول سبحانه (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبداً .

قال بعض العلماء : الحكمة تكون في صورة الشيء : أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة ، وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة .

وتكون في غايته : أي : أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة ، وكذلك الحيوانات ، وكذلك جميع المخلوقات ، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً) .

◆ الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم :

أولاً : أن الله خلق الخلق لحكمة عظيمة ، وغاية جليلة وهي عبادته سبحانه حيث قال (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) . ولم يخلقهم عبثاً وباطلاً كما يظن الكفار والملاحدة ، قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) . وقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) .

ثانياً : أن خلق الله محكم لا خلل فيه ولا قصور ، قال تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) .

ونستفيد من معرفتنا أن الله حكيم في كل أفعاله: اقتناع الإنسان بما يجري عليه وما يوجبه الله عليه، لأن ما يجريه الله –عز وجل– من الأحكام مقرون بالحكمة ، فإذا علمت هذا يقينياً اقتنعت سواء كان هذا من الأحكام الكونية أو الأحكام الشرعية ، حتى المصائب التي تنال العباد لاشك أن لها حكمة .

(**الْخَبِيرُ**) الخبير اسم من أسماء الله ، ومعناه العليم ببواطن الأمور ، (المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها) ، المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور .

◆ **قال ابن عاشور** : الخبير العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة ، والظاهرة والخفية .

◆ الآثار المترتبة على معرفتنا لهذا الاسم :

أولاً : يجب على الإنسان أن يحذر من كتم النفاق أو الحسد أو غيرها من أمراض القلوب ، لأن الله مطلع على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية .

ولذلك أمرنا سبحانه أن نتقيه ونعمل بما يحب ، وأن نبتعد عن كل ما يسخطه ويغضبه ، فقال تعالى (وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) .

وقال تعالى (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) .

وقال سبحانه (وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) .

ثانياً : وجوب مراقبة الله تعالى .

ثالثاً : أن الله خبير بأحوال عباده ، بصير بمن يستحق الهداية منهم ممن لا يستحقها ، بصير بمن يصلح حاله بالغنى والمال ، وبمن يفسد حاله بذلك (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) .

رابعاً : اليقين بأن الله هو الخبير العالم ببواطن الأمور وخفياتها ، عالم بما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن كيف كان سيكون.. ، لا يفوته من العلم شيء وان كان صغيراً سراً دقيقاً ، وهذا لله وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه .

خامساً : رضا العبد باختيار ربه في كل أمره ، فطالما آمن العبد بأن الله هو الخبير، سلم له في جميع شئونه مطلق التدبير، وهذا شأن أهل اليقين أنهم يسلمون له أمورهم ثقة في كمال تدبيره .

سادساً : الإيمان بأن الله خبير عليم بأعمال عباده وأقوالهم ، وما يجول في صدورهم من خير أو شر، قال تعالى (وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) فيوقن العبد أنه مكشوف أمام الله ، لا تخفى على الله منه خافية ، فيراقب الله في جميع أحواله وخواطره وقلبه بتهذيب سره وتطهير باطنه ، ويخلص أعماله لله .

- **قال القرطبي** : (وَهُوَ الحكيم) في أمره (الخبير) بأعمال عباده ، أي من اتصف بهذه الصفات يجب ألاَّ يُشرَكَ به.

- **قال الشيخ ابن عثيمين** : وقرن تعالى هنا بين الحكيم والخبير ، ليعلم الناس أن حكمة الله عز وجل عن خبرة وعلم ببواطن الأمور ، وعلى هذا فقد تكون خفية عن كثير من الناس ، لأنه لا يدرك الحكمة إلا من كان خبيراً .

الفوائد :

١- إثبات اسم القاهر لله .

٢- إثبات علو الله بكل أنواعه .

٣- الرد على من أنكر علو الله .

٤- إثبات العبودية لجميع الخلق .

٥- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الحكيم والخبير . (الخميس:١٣/١١/١٤٣٤هـ)

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)) .

[الأنعام : ١٩] .

(**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً**) أي : قل لهم يا محمد ، أي شيء أعظم شهادة حتى يشهد لي بأني صادق .

ثم أمره الله تعالى أن يجيبهم هو :

(**قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**) أي : قل لهم الله يشهد على صدقي .

- **قال ابن الجوزي** :ومعنى الآية : قل لقريش : أيُّ شيء أعظم شهادة؟ فإن أجابوك ، وإلا فقل : الله ، وهو شهيد بيني وبينكم على ما أقول.

وقال الزجاج : أمره الله أن يحتج عليهم بأن شهادة الله في نُبُوَّته أكبر شهادة، وأن القرآن الذي أتى به، يشهد له أنه رسول الله، وهو قوله (وأوحيَ إليَّ هذا القرآن لأُنذركم به) ففي الإنذار به دليل على نبوته ، لأنه لم يأت أحد بمثله ، ولا يأتي ، وفيه خبر ما كان وما يكون ، ووعد فيه بأشياء ، فكانت كما قال. (زاد المسير) .

- وقد شهد الله لنبيه ﷺ بالصدق بالشهادة القولية والفعلية .

القولية :

قال تعالى (لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً) .

وقال تعالى (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ) .

والفعلية :

تمكينه ونصره وتأييده .

♦ **قال ابن القيم** : فإن قيل : وما شهادته [سبحانه] لرسوله ؟ قيل : هي ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصدقه بعد العلم بها ضرورة ، فدلالتها على صدقه أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق ، فشهادته سبحانه لرسوله أصدق شهادة وأعظمها وأدلها على ثبوت المشهود به ، فهذا وجه.

ووجه آخر : أنه صدقه بقوله وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه ، فإذا أخبر عنه أنه شهد له قولاً لزم ضرورة صدقه في ذلك الخبر وصحت الشهادة له به قطعاً ، فهذا معنى الآية.

(**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ**) أي : أوحى الله إليّ هـذا القرآن الذي تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به .

♦ الوحي لغة : الإعلام بسرعة وخفاء ، واصطلاحاً : ما أوحاه الله إلى نبيه ﷺ سواء كان بواسطة أو بغير واسطة .

كما قال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) .

وقال تعالى (نَذِيراً لِلْبَشَرِ) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) .

♦ وخص الإنذار مع أن النبي ﷺ مبشراً ونذيراً ؟

لأن المقام مقام تحذير ، ولأن الإنذار متضمن للتبشير .

فالرسول بشيراً ونذيراً ، بل كل الرسل كذلك .

قال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) .

وقال تعالى (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً) .

(**وَمَنْ بَلَغَ**) أي : وأنذر به من بلغ إليه ، أي : كل من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلة .

قال القرطبي : أي : ومن بلغه القرآن ، وهذا ما عليه عامة أهل العلم .

كما قال تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ) .

وقوله ﷺ (بلغوا عني ولو آية) .

وهناك قول آخر وأن المعنى (ومن بلغ) أي : بلغ الحلم ، لكنه قول ضعيف جدا ولذلك قال ابن جزي رحمه الله : وهو بعيد .

♦ وفي هذه الآية أن الرسول ﷺ منذر لكل من بلغه القرآن كائناً من كان ، ففي هذا عموم إنذاره ورسالته .

كما قال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً) .

وقال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) .

♦ **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ) صرح في هذه الآية الكريمة بأنه ﷺ منذر لكل من بلغه هذا القرآن العظيم كائناً من كان ، ويفهم من الآية أن الإنذار به عام لكل من بلغه ، وأن كل من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار ، وهو كذلك.

أما عموم إنذاره لكل من بلغه ، فقد دلت عليه آيات أخر أيضاً كقوله (قُلْ يا أيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) .

وقوله (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ) وقوله (تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) .

وأما دخول من لم يؤمن به النار ، فقد صرح به تعالى في قوله (وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ) .

وأما من لم تبلغه دعوة الرسول ﷺ فله حكم أهل الفترة الذين لم يأتهم رسول ، والله تعالى أعلم.

(**أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى**) استفهام توبيخ ، أي : إنكم أيها المشركون لتقرون بوجود آلهة أخرى مع الله ؟ فكيف تشهدون أن مع الله آلهة أخرى بعد وضوح الأدلة وقيام الحجة على وحدانية الله ؟

كما قال تعالى عنهم (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ... مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ) .

(**قُلْ لا أَشْهَدُ**) كرر الأمر بالقول لأهمية الموضوع ، لأن هذه الشهادة باطلة .

(**قُلْ**) لهم يا محمد معلناً ذلك :

(**إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ**) أي : أن الله واحد لا شريك له .

♦ فأمرَ أولاً بنفي شهادتهم ، ثم أمر ثانياً : بإثبات شهادته أن الله إله واحد .

كما قال تعالى (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) .

وقال تعالى (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) .

وقال تعالى (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ) .

وقال تعالى (قلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) .

وقال تعالى (وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

(**وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**) أي : وأنا بريء من هذه الأصنام وما تعبدون من دون الله .

♦ ففي هذا أنه يجب البراءة من الشرك وأهله .

كما قال تعالى عن الخليل (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) .

وذكر تعالى عن خليله عليه السلام أنه قال لأبيه آزر (**وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩**) .

فهذا هو تحقيق التوحيد ، وهو البراءة من الشرك وأهله ، واعتزالهم والكفر بهم وعداوتهم وبغضهم .

♦ فالله سبحانه وتعالى يصف خليله إبراهيم بأربع صفات :

الصفة الأولى : أنه كان قدوة في الخير .

الصفة الثانية : أنه كان خاشعاً مطيعاً مداوماً على عبادة الله .

الصفة الثالثة : أنه كان معرضاً عن الشرك .

الصفة الرابعة : بعده عن الشرك ومفارقته للمشركين .

وقال تعالى (**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ٢٧**) .

في قول إبراهيم : ﴿ **إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي** ﴾ ، ولم يقل إلا الله فائدتان :

أ-الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة ، لأنه كما أنه متفرد بالخلق ، فيجب أن ينفرد بالعبادة .

ب-الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام ، ولأنها لم تفطركم حتى تعبدوها ، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات .

الفوائد :

١- أن شهادة الله أكبر شهادة .

٢-أن القرآن موحى إلى الرسول .

٣- عظمة هذا القرآن .

٤- أن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة .

٥-تحريم الشرك والإنكار على من يفعل ذلك .

٦- وحدانية الله تعالى .

٧- وجوب التبرؤ من أهل الباطل .

(**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ** (٢٠) .
[الأنعام : ٢٠] .

(**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ**) وهم اليهود والنصارى ، فاليهود أعطوا التوراة ، والنصارى أعطوا الإنجيل .

(**يَعْرِفُونَهُ**) قيل: أي يعرفون الرسول ﷺ، وقيل: إن الضمير يرجع إلى الكتاب وهو القرآن، والراجح الأول، أي: يعرفون محمد ﷺ.

واختاره : القرطبي ، والطبري ، والبغوي ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، وابن كثير ، والآلوسي ،

أ-لأن الله أخبر أن نبوة محمد ﷺ مذكورة في التوراة والإنجيل ، وأن نعته في كتبهم ظاهر واضح .

ب- أقر عمر في قوله لعبد الله بن سلام ، أتعرف محمد كما تعرف ابنك ؟ قال : نعم .

ج- لسياق الآية .

(**كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ**) بيان لتحقق تلك المعرفة وكمالها وعدم وجود شك فيها ، فإن معرفة الآباء للأبناء هي البالغة إلى غاية الإتقان إجمالاً وتفصيلاً .

- **قال ابن عاشور** : والتشبيه في قوله (كما يعرفون أبناءهم) تشبيه المعرفة بالمعرفة ، ... لأن المرء لا يضلّ عن معرفة شخص ابنه وذاته إذا لقيه وأنّه هو ابنه المعروف ، وذلك لكثرة ملازمة الأبناء آباءهم عرفاً.
- قال عبد الله بن سلام : أنا أعرف بالنبي ﷺ من ابني لأني أشهد أنه رسول الله ﷺ ، ولا أشهد لابني ، لأني لا أدري ما أحدثت

النساء بعدي.

♦ وفي هذا إقامة الحجة عليهم ، لأنهم يعرفونه وموجود صفته في التوراة ، وقد قال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

● **فإن قيل** : لم خص الأبناء الذكور ؟

الجواب : لأن الذكور أعرف وأشهر ، وهم بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق .

(**الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**) يحتمل أن المعنى : هم الذين خسروا أنفسهم ، ويحتمل المعنى : أولئك هم الخاسرون لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بعد وضوح الآيات .

والمعنى الصحيح : أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم وتمردهم لا يؤمنون بما جاء به الرسول .

♦ وخسروا أيضاً أهليهم كما قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ).

الفوائد :

١- أن الحجة قائمة على اليهود والنصارى في صحة بعثة النبي ﷺ .

٢-توبيخ أهل الكتاب .

٣-أن من لم يؤمن فقد خسر نفسه .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)) .

[الأنعام : ٢١] .

(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً**) الاستفهام إنكاري ومعناه النفي، أي: لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب، لأن الكذب على الله من أعظم الكذب ، وهذا يشمل الكذب عليه في أحكامه أو آياته أو يتكلم بغير علم ، وقد قال تعالى (وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ) .

(**أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ**) (أو) للتنويع ، أي : أو كذب بآيات الله سواء الكونية كالشمس والقمر ، أو الآيات الشرعية كالوحي المنزل على رسول الله .

♦ وقد سبق أن التكذيب بالآيات الكونية : كأن يعتقد أن خالقها غير الله ، أو لله شريكاً ، أو معيناً .

والتكذيب بالآيات الشرعية : بتكذيبها ، أو جحدها ، أو عدم العمل بها .

(**إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**) الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ، والظلم المراد به الشرك ، لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، والمشرك ظالم ، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده ، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر .

كما قال تعالى عن العبد الصالح (إن الشرك لظلم ...) .

وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ) قال : بشرك ، ثم تلا قول لقمان (إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ) .

وقال تعالى (وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) .

- فالمشرك لا يفلح ، وهو خالد في النار إذا مات من غير توبة ، كما قال تعالى (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً) .

- الظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الشرك .

وهو أعظم الظلم وأشده .

كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) أي : من المشركين .

قال ابن رجب : فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق ، فعبده وتألهه ، فوضع الأشياء في غير موضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين ، إنما أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

والثاني : ظلم العبد نفسه بالمعاصي .

كما قال تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ).

والثالث : ظلم العبد لغيره .

كما في الحديث (قال الله تعالى : إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) رواه مسلم .

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) متفق عليه .

وعن ابن عمر . قال : قال ﷺ (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه .

الفوائد :

١- أن الظلم يختلف ، بعضه أشد من بعض .

٢-التحذير من افتراء الكذب على الله .

٣-نفي الفلاح عن الظالم .

٤-التحذير من الظلم .

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٢٤)) .

[الأنعام : ٢٢- ٢٤] .

(**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً**) أي : واذكر يوم نحشرهم جميعاً للحساب ، فلا يفلت منهم أحداً .

والحشر هو : جمع الخلائق يوم القيامة لحسابهم والقضاء بينهم .

- والحشر ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) .

وقال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) .

وقال تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) .

وقال تعالى (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) .

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) .

وقال تعالى (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) .

وقال ﷺ : (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفْراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد) . متفق عليه

- **ويحشر كل شيء حتى البهائم ودل على حشر البهائم عدة أدلة :**

أ- قوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) .

ب_ قوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).

ج_ وحديث أبي ذر (أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال : يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان ؟ قال : قلت : لا ، قال : لكن الله يدري وسيقضي بينهما) رواه أحمد .

د- وحديث (مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطأوه بأظلافها). متفق عليه

هـ- الآثار الواردة في قوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) وأن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض ، ثم يقول لها : كوني تراباً ، فتكون تراباً ، فعندها يقول الكافر (يا ليتني كنت تراباً) .

- **كيف يحشر الناس ؟**

يحشرون حفاة عراة غرلاً .

لحديث عائشة . قالت : قال رسول الله ﷺ : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، قالت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) متفق عليه .

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال (إنكم تُحشرون حفاة عراة غُرلاً ، ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) وأول من يُكسَى يوم القيامة إبراهيم) متفق عليه .

حفاة : جمع حاف وهو من ليس عليه نعال .

عراة : جمع عار وهو من ليس عليه ثياب .

غرلاً : أي غير مختونين .

- **أول من يكسى إبراهيم** .

للحديث السابق (وأول من يكسى إبراهيم عليه السلام) .

والحكمة في ذلك :

قيل : لم يكن في الأولين والآخرين لله عز وجل عبد أخـوف من إبراهيم فتعجل له كسوته أمـاناً له ليطمئن قلبه .

وقيل : لأنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر .

وقيل : أن الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس ، فلما صبر واحتسب وتوكل على الله جازاه على ذلك بأن جعله أول من يدفع عنه العرى يوم القيامة ، وهذا أحسنها .

- **أرض المحشر الشام** .

عن سهل بن سعد . قال : قال رسول الله ﷺ : (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ، ليس فيها معلم لأحد) رواه البخاري .

عفراء : أي ليس بياضها ناصع . **كقرصة النقي** : الدقيق الخالص من الغش .

ليس فيها معلم لأحد : أي : شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات كالجبل والصخرة والبناء .

(**ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا**) أي : نقول للمشركين الذين أشركوا مع الله في الدنيا .

(**أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**) المراد من هذا الاستفهام للتوبيخ والتبكيت ، أي : أين آلهتكم التي جعلتموها مع الله شريكاً لله . من صنم أو حجر أو غيرها من المعبودات .

كما قال تعالى في القصص (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ) سؤال إفضاح لا إفصاح.

(**ثُمَّ**) أي : بعد هذا السؤال .

(**لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ**) أي : حجتهم .

- **قال الماوردي** : في الفتنة هنا ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني معذرتهم ، فسماها فتنة لحدوثها عن الفتنة ، قاله قتادة.

والثاني : عاقبة فتنتهم وهو شركهم.

والثالث : يعني بَلِيَّتُهم التي ألزمتهم الحجة وزادتهم لائمة ، قاله أبو عبيد القاسم بن سلام .

- **قال السمرقندي** : وأصل الفتنة في اللغة : هو الاختبار.

ويقال : فتنت الذهب في النار إذا أدخلته لتعلم جودته وإنما سمي جوابهم فتنة لأنهم حين سئلوا ، اختبروا بما عندهم بالسؤال فلم يكن الجواب من ذلك الاختبار فتنة إلا هذا القول.

(**إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**) أقسموا كاذبين بقولهم : والله يا ربنا ما كنا مشركين .

قال القرطبي : تبرؤا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين .

قال ابن عباس : يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا : تعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين ، فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون .

- **قال في التسهيل** : سؤال : فإن قيل : كيف يجحدونه وقد قال الله ولا يكتمون الله حديثاً؟ فالجواب أن ذلك يختلف باختلاف

طوائف الناس واختلاف المواطن ، فيكتم قوم ويقر آخرون ، ويكتمون في موطن ويقرون في موطن آخر ، لأن يوم القيامة طويل وقد قال ابن عباس لما سئل عن هذا السؤال : إنهم جحدوا طمعاً في النجاة ، فختم الله على أفواههم ، وتكلمت جوارحهم فلا يكتمون الله حديثاً.

(**انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ**) أي : انظر يا محمد كيف كذبوا على أنفسهم بنفي الإشراك عنها أمام علام الغيوب ، وهذا للتعجب من كذبهم الصريح .

- **قال القرطبي** : والنظر في قوله (انظر) يراد به نظر الاعتبار .

(**وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**) أي : وغاب عنهم واضمحل ما كانوا يعتقدون أن هذه آلهة مع الله ، وأنها تنفع وتضر .

كما قال تعالى (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا) أي : غابوا عنا .

- **قال القاسمي** : (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِم) أي : بنفي الإشراك عنها أمام علام الغيوب ، بحضرة من لا ينحصر من الشهود (وَضَلَّ) أي : وكيف ضاع وغاب (عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أي : من الشركاء ، فلم تغن عنهم شيئاً ، ففقدوا ما رجوا من شفاعتها ونصرتها لهم ، كقوله تعالى (قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا) .

- فإن قال قائل : كيف قال الله : انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، والأمر لم يأت بعد ؟

الجواب : أن الله يذكر الأشياء المستقبلية بصيغة الماضي لتحقق وقوعها كقوله تعالى (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وأمر الله لم يأت بعد ، وكقوله تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) .

الفوائد :

١- إثبات الحشر .

٢- التحذير من الشرك .

٣-إثبات القول لله تعالى .

٤-أن الأصنام لا تنفع عابديها .

٥-أن هؤلاء المشركين أقروا بألوهية الله وربوبيته ، لكن لا ينفعهم في ذلك اليوم . (الأحد:١٦/١١/١٤٣٤هـ)

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٥)) .

[الأنعام : ٢٥] .

(**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ**) أي : ومن هؤلاء المشركين من يستمع لقراءتك .

(**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً**) أي : صيّرنا على قلوبهم أكنة ، والأكنة جمع كِنان ، وهو الغطاء .

أي : جعلوا على قلوبهم أغطية .

(**أَنْ يَفْقَهُوهُ**) أي : كراهة أن يفقوه ، والفقه لغة : هو الفهم .

(**وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً**) أي : وجعلنا في آذانهم ثقلاً وصمماً بحيث لا ينتفعون بما سمعوا .

والمعنى : أن الله حال بينهم وبين فهم القرآن إذا استمعوه ، وعبر بالأكنة والوقر مبالغة .

كما قال تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً [صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ) .

◆ **قال القرطبي** : وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون ، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون ، ولا ينقادون إلى الحق ، كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم .

◆ **وقال ابن الجوزي** : وإنما فُعلَ ذلك بهم مجازاة لهم بإقامتهم على كفرهم ، وليس المعنى أنهم لم يفهموه ولم يسمعوه ، ولكنهم لما عدلوا عنه ، وصرفوا فكرهم عما عليهم في سوء العاقبة ، كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع .

◆ والله عز وجل فعل ذلك بسبب ذنوبهم وكفرهم .

كما قال تعالى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) .

وقال تعالى (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

وقال تعالى (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) .

◆ **قال ابن القيم** : أن كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده، وقع في باطل مُقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده، ولا، حتى في الأعمال ، من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق ، فرغب عن العمل لمن ضَره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده ، فابتليَ بالعمل لمن لا يملك له شيئاً من ذلك

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتُليَ بإنفاقه لغير الله وهو راغم .

(**وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا**) أي : مهما رأوا من الآيات والدلالات – بأبصارهم أو بقلوبهم – والحج والبينات والبراهين ، لايؤمنوا بها ، فلا فهم عندهم ولا إنصاف كقوله تعالى (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) .

◆ فقريش كذبت بالقرآن وقالت : ساحر ، وقالت : أساطير الأولين ، وكذبت بانشقاق القمر .

(**حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ**) أي : يحاجونك ويناظرونك في الحق والباطل .

◆ المجادلة : هي المخاصمة ، وسميت بذلك لأن كل واحد من الخصمين يجدل الحجة لتقوم على صاحبه

(**يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**) أي: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذاً من كتب الأوائل ، ومنقول عنهم .

الفوائد :

١- أنه ليس كل مستمع ينتفع .

٢-التحذير من الاستماع بلا انتفاع .

٣- أن عدم الانتفاع بالسماع كالصمم تماماً .

٤- شدة عتو هؤلاء الكفار حيث لا يؤمنون بكل آية مهما كانت .

٥- أن الله يؤيد الرسل بالآيات .

٦- ذم الجدال لإبطال الحق .

(**وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)**) .

[الأنعام : ٢٦] .

(**وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ**) أي : أن هؤلاء الكفار ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول .

(**وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ**) أي : ويبعدون هم عنه ، فيجمعون بين الفعلين القبيحين ، لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع .

- **قال أبو حيان** : نزلت في كفار مكة كانوا يمنعون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وعن الاجتماع به وينهون عن استماع القرآن وكانوا هم كذلك.

- وقيل : هو خاص بأبي طالب ينهى الكفار عن أذية محمد ﷺ ، ويتباعد عن الإيمان به .

(**وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ**) أي : ما يهلكون بهذا الصنيع ، ولا يعود وباله إلا عليهم ، بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه وهو عذاب الضلال والإضلال.

- **قال ابن جرير** : وما يهلكونَ بصدّهم عن سبيل الله ، وإعراضهم عن تنزيله ، وكفرهم بربهم – إلا أنفسهم لا غيرها ، وذلك أنهم يكسِبُونها بفعلهم ذلك ، سخط الله وأليم عقابه ، وما لا قِبَل لها به .

كما قال تعالى (ومَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ) .

- والمراد بالهلاك المعنوي .

- **قال ابن عاشور** : وأصل الهلاك الموت ، ويطلق على المضرّة الشديدة لأنّ الشائع بين الناس أنّ الموت أشدّ الضرّ ، فالمراد بالهلاك هنا ما يلقونه في الدنيا من القتل والمذلّة عند نصر الإسلام وفي الآخرة من العذاب.

والنأي : البعد .

(**وَمَا يَشْعُرُونَ**) أي : لا يحسون بذلك ، ولذلك تجدهم يفتخرون بكفرهم وما هم عليه من الضلال .

- وهذا غاية الضلال ، أن يرى الإنسان أنه على حق وهو على باطل ، ولذلك في الحديث (اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه) .

الفوائد :

١- أن هؤلاء جمعوا الضلال والإضلال .

٢-أن من ضل وأضل الناس فإنما يهلك نفسه .

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)) .

[الأنعام : ٢٧- ٢٨] .

(**وَلَوْ تَرَى**) يا محمد هؤلاء المشركين .

- **قال الآلوسي** : والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من له أهلية ذلك قصداً إلى بيان سوء حالهم وبلوغها من الشناعة إلى حيث لا يختص استغرابها دون راء.

- **وقال ابن عاشور** :الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام لأنّ في الخبر الواقع بعده تسلية له عمّا تضمّنه قوله (وهم ينهون عنه

وينأون عنه) فإنّه ابتدأ فعقّبه بقوله (وإن يهلكون إلاّ أنفسهم) ثم أردفه بتمثيل حالهم يوم القيامة ، ويشترك مع الرسول في هذا الخطاب كلّ من يسمع هذا الخبر.

(**إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ**) أي : حين حبسوا وعرضوا عليها ، ورأوا ما فيها من السلاسل والأغلال ، لرأيت أمراً عظيماً ، تشيب لهوله الرؤوس .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (وَلَوْ تَرَى) يقتضي الله جواباً وقد حذف تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن ، وجاز حذفه لعلم المخاطب به وأشباهه كثيرة في القرآن والشعر.

ولو قدرت الجواب ، كان التقدير : لرأيت سوء منقلبهم أو لرأيت سوء حالهم وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ، ألا ترى : أنك لو قلت لغلامك ، والله لئن قمت إليك وسكت عن الجواب ، ذهب بفكره إلى أنواع المكروه ، من الضرب ، والقتل ، والكسر ، وعظم الخوف ولم يدر أي الأقسام تبغي.

ولو قلت : والله لئن قمت إليك لأضربنك فأتيت بالجواب ، لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب ولا يخطر بباله نوع من المكروه سواه ، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف.

- في ذلك الوقت يتمنون أمنيات :

(**فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ**) أي : إلى الحياة الدنيا ، ليعملوا صالحاً ، وهذه الأمنية الأولى .

- **قال الرازي** : فإن قيل : كيف يحسن منهم تمني الرد مع أنهم يعلمون أن الرد يحصل لا ألبتة.

والجواب من وجوه : الأول : لعلّهم لم يعلموا أن الرد لا يحصل.

والثاني : أنهم وإن علموا أن ذلك لا يحصل ؛ إلا أن هذا العلم لا يمنع من حصول إرادة الرد كقوله تعالى : (يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النار) وكقوله (أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الماء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله) فلما صح أن يريدوا هذه الأشياء مع العلم بأنها لا تحصل ، فبأن يتمنوه أقرب ، لأن باب التمني أوسع ، لأنه يصح أن يتمنى ما لا يصح أن يريد من الأمور الثلاثة الماضية.

(**وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا**) ولا يكذبون بالقرآن .

(**وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) أي : الذين آمنوا بالله ورسله .

وهذا جاء في آيات أخبر تعالى أنهم يتمنون الرجعة والإيمان .

(**بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ**) أي : بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة ، وإن أنكروها، في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبل هذا بيسير (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ) .

وقيل : يخفون الأعمال القبيحة .

ويحتمل : أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبرًا عن موسى أنه قال لفرعـون (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ بَصَائِرَ) قال تعالى مخبرًا عن فرعون وقومه (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) .

ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين ، الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ويبطنون الكفر ، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة ، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية ، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سور مكية .

والصحيح في معنى الآية : أن الذي أخفوه هو علمهم بأنهم كانوا على باطل ، وأن الرسل على حق ، فعاينوا ذلك عياناً بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه .

ورجح هذا القول بقوة ابن القيم ونصره ، ورجحه ابن عاشور ، وذكره القاسمي وجهاً من الوجوه ، وذكره ابن كثير احتمالاً كما تقدم في قوله (ويحتمل : أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه .

- **وقال ابن عاشور** : ... أي خطر لهم حينئذ ذلك المخاطر الذي كانوا يخفونه،أي الذي كان يبدو لهم، أي يخطر ببالهم وقوعه فلا يعلنون به فبدا لهم الآن فأعلنوا به وصرحوا معترفين به.ففي الكلام احتباك، تقديره:بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكانوا يخفونه.وذلك أنهم كانوا يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله أو من نصر المؤمنين فيصدهم عنه العناد والحرص على استبقاء السيادة والأنفة من الاعتراف بفضل الرسول وبسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم،وفيهم ضعفاء القوم وعبيدهم ، ... وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِين) وهذا التفسير يغني عن الاحتمالات التي تحير فيها المفسرون وهي لا تلائم نظم الآية، فبعضها يساعده صدرها وبعضها يساعده عجزها وليس فيها ما يساعده جميعها.

- ومعنى الإضراب (بَلْ بَدَا لَهُمْ ...) فإنهم ما طلبوا العودِ إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان ، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه ، جزاء على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار .

(**وَلَوْ رُدُّوا**) أي : إلى الدنيا حسبما تمنوا .

(**لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**) أي : لعادوا إلى فعل ما نهوا عنه من القبائح التي رأسها الشرك والمخالفة .

(**وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**) أي : في قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين .

- وهذه الآية تدل على أن الله جل وعلا الذي أحاط علمه بكل موجود ومعدوم ، يعلم المعدوم الذي سبق في الأزل أنه لا يكون لو وجد كيف يكون ، لأنه يعلم أن رد الكفار يوم القيامة إلى الدنيا مرة أخرى لا يكون ، ويعلم هذا الرد الذي لا يكون لو وقع كيف يكون ، وهذا المعنى جاء مصرحاً به في آيات ، فمن ذلك أنه تعالى سبق في علمه أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك لا يخرجون إليها معه ﷺ ، والله ثبطهم عنها لحكمة ، كما صرح به في قوله (ولَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ) وهو يعلم هذا الخروج الذي لا يكون لو وقع كيف يكون ، كما صرح به تعالى في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً) .

الفوائد :

١- شدة ندم الكفار .

٢-إثبات النار .

٣- إقرار هؤلاء بالحق لكن لا ينفعهم .

٤- أن الحقائق تظهر يوم القيامة وتبين .

٥-علم الله بالمستحيل .

(**وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)**) .

[الأنعام : ٢٩] .

(**وَقَالُوا**) أي الكفار المنكرين للبعث .

(**إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا**) أي : ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ، أي : ليس هناك حياة إلا هذه ، ثم أكدوا ذلك بقولهم :

(**وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**) أي : وليس هناك بعث ولا نشور .

كما قال تعالى عنهم (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) .

وقال تعالى (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) .

كما قال تعالى (**إِنَّ هَؤُلاءِ**) أي : كفار قريش (**لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى**) أي : ما هي إلا موتتنا الأولى التي نموتها في الدنيا ولا حياة ولا بعث (**وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ**) أي : وما نحن بمبعوثين ، ثم احتجوا بحجة باطلة : فقالوا :(**فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**) أي : ارجعوا بآبائنا بعد موتهم إلى الدنيا إن كنتم صادقين فيما تقولونه وتخبرونا به من البعث ، وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة ، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا ، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها ، ثم قال تعالى متوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد .

- الحياة الدنيا سميت بذلك

الفوائد :

١-أن الكافرين ينكرون البعث .

٢-الإشارة إلى دنو الحياة الدنيا . (الثلاثاء:١٨/١١/١٤٣٤هـ)

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَـذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)) .

[الأنعام : ٣٠] .

(**وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِم**) أي : أوقفوا بين يديه ، على حكمه وقضائه فيهم .

والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يتوجه له الخطاب .

(**قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ**) الاستفهام للتقريع والتـوبيخ : أي : أليس هذا البعث الذي كنتم تنكرونه وتجحـدونه ؟

(**قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا**) اعترفوا بما أنكروا وأكدوا اعترافهم بالقسم .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (قَالَ أَلَيْسَ هذا بالحق) تقرير وتوبيخ أي أليس هذا البعث كائناً موجودا ً؟! (قَالُواْ بلى)ويؤكدون اعترافهم بالقسَم بقولهم (وَرَبِّنَا) .

وقيل : إن الملائكة تقول لهم بأمر الله أليس هذا البعث وهذا العذاب حقاً؟ فيقولون : { بلى وَرَبِّنَا } إنه حق.

(**قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**) أي : بسبب كفركم وعدم إيمانكم .

الفوائد :

١- إثبات ربوبية الله لهؤلاء الكفار .

٢-إثبات القول لله .

٣-شدة ندم هؤلاء الكفار .

٤- إثبات الأسباب .

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ (٣١)) .

[الأنعام : ٣١] .

(**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ**) أي : لقد خسر هؤلاء الكفار المكذبون بالبعث .

فالمراد بلقاء الله : أي : البعث .

♦ وأصل الخسران في لغة العرب : هو نقصان مال التاجر ، سواء كان نقصاً في ربح المال ، أو نقصاً في رأس المال ، واصطلاحاً : هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه ، لأن الإنسان إذا غُبن في حظوظه من ربه فقد خسر خسراناً مبيناً .

♦ **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (قد خسر الذين كذَّبوا بلقاء الله) إنما وُصِفُوا بالخسران ، لأنهم باعوا الإيمان بالكفر ، فعظم خسرانهم ، والمراد بلقاء الله : البعث والجزاء ؛ والساعة : القيامة ؛ والبغتة : الفجأة.

قال الزجاج : كلُّ ما أتى فجأة فقد بغت ، يقال قد بغته الأمر يَبْغَتُه بَغْتاً وبغتةً : إذا أتاه فجأة.

(**حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ**) أي : القيامة ، وسبق لماذا سميت بذلك .

♦ والمراد بالساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، وسميت بذلك لسرعة الحساب فيها ، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة ، فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة .

♦ والساعة تطلق على ثلاثة معان :

الساعة الصغرى : وهي موت الإنسان ، فمن مات فقد قامت قيامته ، لدخوله في عالم الآخرة .

والساعة الوسطى : وهي موت أهل القرن الواحد ، ويؤيد ذلك ما روته عائشة قالت (كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة : متى الساعة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم ، فقال : إن يعش هذا لم يدركه الهرم ، قامت عليكم ساعتكم) رواه مسلم . أي : موتهم ، والمراد ساعة المخاطبين .

والساعة الكبرى : وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء .

♦ وإذا أطلقت الساعة في القرآن ، فالمراد بها القيامة الكبرى كقوله تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) .

(**بَغْتَةً**) فجأة .

(**قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا**) الحسرة شدة الندامة ، أي : يتحسرون ويندمون أشد الندامة .

(**عَلَى مَا فَرَّطْنَا**) التفريط التقصير .

(**فِيهَا**) قيل : الضمير يعود على الدنيا ، أي : على ما فرطنا في حياتنا .

ورجحه ابن جزي حيث قال : الضمير فيها للحياة الدنيا لأن المعنى يقتضي ذلك وإن لم يجر لها ذكر ، وقيل : الساعة أي فرطنا في

شأنها ، والاستعداد لها ، والأول أظهر .

وقيل : الضمير يعود على الساعة ، أي : على الاعتداد بها والتصديق بها ، لأنها أقرب مذكور .

وقيل : يعود على الصفقة ، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر والدنيا بالآخرة ، فالخسران لا يكون إلا في صفقة .

- **قال الطَّبري** : (الهاء) راجعة إلى الصَّفْقة ، وذلك أنهم لما تَبيّن لهم خسران صَفْقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر ، والآخرة بالدنيا ، (قَالُواْ يا حسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) أي في الصَّفْقة ، وترك ذكرها لدلالة الكلام عليها ؛ لأن الخسران لا يكون إلا في صفْقة بيع ؛ دليله قوله (فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ) .

والراجح القول الأول ، وأن الضمير يعود إلى الحياة الدنيا .

أ-أن التفريط هو التقصير والتضييع بترك العمل الصالح النافع في الدار الآخرة ، وهذا بدلالة العقل إنما يكون في الحياة الدنيا .

ب-ويؤيد هذا الوجه آيات قرآنية :

كقوله تعالى (على ما فرطت في جنب الله) .

وقوله تعالى (يقول يا ليتني قدمت لحياتي) .

وقوله تعالى (لعلي أعمل صالحاً فيما تركت) .

ج- أنه المتبادر إلى الذهن .

د- والسياق يدل عليه ، فإن الآيات في ذكر الحياة الدنيا سباقاً كقوله (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) ولحاقاً كقوله تعالى (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) .

(**وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ**) أي : وهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم .

- قيل : إن هذا الحمل حقيقي .

(**أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ**) أي : بئس ما يحملونه من الأوزار .

- وكلمة (ألا) أداة استفتاح وتنبيه .

الفوائد :

١- بيان خسران الكافرين المكذبين بالبعث .

٢-وجوب الإيمان بلقاء الله .

٣- الإيمان بالساعة .

٤- أن الساعة تأتي قريبة .

٥- شدة تحسر هؤلاء الذين كذبوا بلقاء الله .

٦- أن الأعمال محل الثناء والقدح .

(**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٣٢)**) .

[الأنعام : ٣٢] .

(**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**) أي : ما الحياة الدنيا إلا مجرد لعب ولهو ، لعب بالأبدان والجوارح ، ولهو وغفلة بالقلوب .

- قوله تعالى (الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) هي هذه الحيلة التي نعيشها التي قبل الآخرة ، وسميت لدنيا لسببين :

السبب الأول : لأنها قبل الآخرة في الزمن .

السبب الثاني : لدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة . كما قال تعالى (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) وقال تعالى (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء) رواه الترمذي ، وقال ﷺ (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري .

- ففي هذه الآية حقارة الدنيا وخستها .

كما قال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) .

وقال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً) .

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) .

وقال القرطبي : متاع : أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول . ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود .

وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) رواه الترمذي .

وقال ﷺ (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ...) رواه الترمذي .

وقال ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم .

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي .

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم

قال النووي رحمه الله : ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر .

وقال ﷺ لابن عمر (يا ابن عمر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري وفي رواية (وعد نفسك من أهل القبور) .

هذه وصية النبي ﷺ لابن عمر ، وهي في الواقع وصية له وللأمة من بعده رضي الله عنه وأرضاه ، كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور ، قال الإمام النووي رحمه الله في معنى الحديث (لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا ، ولا تحدّث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه) .

- من أقوال السلف :

وقال موسى عليه الصلاة والسلام : الدنيا قنطره فاعبروها ولا تعمروها .

وقال عيسى عليه السلام لأصحابه : من ذا الذي يبني على موج البحار داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً .

وقال : مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله .

وقد خرج أبو الدرداء على أهل الشام ورآهم في ترف فقال لهم : مالي أراكم تجمعون ما لا تأخذون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتؤمّلون ما لا تأخذون ، لقد جمعت الأقوام التي قبلكم وأمّنتْ ، فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بوراً ، وأملهم غروراً ، وبيوتهم قبوراً ، فجعل الناس يبكون حتى سمع نشيجهم من خارج المسجد .

وقال أبو داود وهو من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل : ما رأيت الإمام أحمد بن حنبل ذكر الدنيا .

وقال ابن القيم : لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل في سم الإبرة .

وقال : الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج ، والسير في طلبها كالسير في أرض مسبعة – أي كثيرة السباع – السباحة فيها كالسباحة في غدير التمساح .

(**وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ**) أي : والدار الآخرة وما فيها من النعيم خير لعباد الله المتقين من الدنيا دار الفناء والزوال .

كما قال تعالى (والآخرة خير وأبقى) .

وقال تعالى (وللآخرة خير لك من الأولى) .

وقال تعالى (وللدار الآخرة خير للذين يتقون) .

- سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا .
- التقوى : أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

(**أَفَلا تَعْقِلُونَ**) الاستفهام هنا للتوبيخ ، والمعنى : اعقلوا هذه الحقيقة ، واعرفوا قدر الدنيا وقدر الآخرة .

- المراد بالعقل هنا عقل الرشد لا عقل التكليف ، لأن هؤلاء يعقلون لكنها عقول ليست عقول رشد .

الفوائد :

١– التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة .

٢–أن الدنيا لعب ولهو .

٣– أن الآخرة خير للمتقين . (والآخرة خير لمن اتقى) .

٤– إثبات الدار الآخرة . (**الخميس/٢٠/١١/١٤٣٤هـ**)

(**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)**) .
[الأنعام : ٣٣] .

(**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ**) أي : قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم .

- كانوا يقول عنه : إنه ساحر ، ومجنون ، وكاهن وغيرها من الأقوال التي قيلت فيه .
- وكان ﷺ يحزن لكفرهم كما قال تعالى (فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) وقال تعالى (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) وقال تعالى (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) باخع : أي مهلك .
- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ) صرح تعالى في هذه الآية الكريمة ، بأنه يعلم أن رسوله ﷺ يحزنه ما يقوله الكفار من تكذيبه ﷺ ، وقد نهاه تعالى عن هذا الحزن المفرط في مواضع أخر كقوله (فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) الآية ، وقوله (فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين) ، وقوله (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً) ،

وقوله (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) الباخع : هو المهلك نفسه

وقوله (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ) في الآيتين يراد به النهي عن ذلك ، ونظيره (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ) أي : لا تهلك نفسك حزناً عليهم في الأول ، ولا تترك بعض ما يوحى إليك في الثاني.

(**فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ**) أي : فإنهم في دخيلة نفوسهم لا يكذبونك بل يعتقدون صدقك .

- ولذلك كانوا يسمونه قبل الرسالة بالأمين ، وحكموه في بعض قضاياهم .
- **قال ابن الجوزي** : وفي الآية تسلية للنبي ﷺ وتعزية عما يواجهون به .

(**وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ**) المراد بالظالمين : المكذبين بالرسول ﷺ

(**يَجْحَدُونَ**) أي : ولكنهم يعاندون الحق ، ويدفعونه بصدورهم .

الفوائد :

١- إثبات علم الله الكامل .

٢-تسلية النبي ﷺ وتقوية روحه المعنوية .

٣- حرص النبي ﷺ على هداية الخلق .

٤-علم الله بما في القلوب .

٥- تسلية للدعاة .

٦- أن الجحد بآيات الله كفر ولو استيقنها الإنسان .

(**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)**) .

[الأنعام : ٣٤] .

(**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**) هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له ، فيمن كذبه من قومه .

- **قال الآلوسي** : تسلية إثر تسلية لرسول الله ﷺ فإن عموم البلوى ربما يهونها بعض تهوين ، وفيه إرشاد له ﷺ إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام في الصبر على الأذى وعدة ضمنية بمثل ما منحوه من النصر ، وتصدير الكلام بالقسم لتأكيد التسلية .

ومعنى الآية : ولقد كذبت رسل كثير من قِبل أقوامهم .

كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) .

وقال تعالى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ) .

وقال تعالى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ ...) .

وفي الحديث قال ﷺ (يأتي النبي ﷺ ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ﷺ وليس معه أحد) .

(**فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا**) أي : صبروا على هذا التكذيب ، فاصبر أنت يا محمد كما صبروا .

كما قال تعالى (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) .

وقد أمره الله تعالى بالصبر في آيات كثيرة :

فقال تعالى (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) وقال تعالى (فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) وقال تعالى (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ) وقال تعالى (فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً) وقال تعالى (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ) .

- وإنما أمره بالصبر لأمور :

أولاً : لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر) .

ثانياً : أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات .

ثالثاً : وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ).

رابعاً : وليكون قدوة لغيره

(**وَأُوذُوا**) بالقول والفعل ، فقد أؤذي أنبياء الله بالقول والفعل .

بالقول : فقد كان يقال لكل واحد منهم : ساحر ، ومجنون ، وكذاب .

بالفعل : منهم من ضرب ، ومن قتل .

لأن من قام بدين الإسلام ودعا الناس إليه ، فقد تحمل أمراً عظيماً ، وقام مقام الرسل في الدعوة إلى الله .

والدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر ، ذلك أن أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون إلى الناس أن يتحرروا من أهوائهم وأوهامهم ومألوفاتهم ، وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة ، فلهذا يقاومونها بكل قوة ، ويحاربون دعاتها بكل سلاح ، مدلين بأنهم أكثر مالاً وأعز نفراً ، وأقوى نفوذاً ، وأوسع سلطاناً .

فأذية الداعية طبيعة البشر :

قال الله تعالى لنبيه (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ .

والرسل أوذوا بالقول والفعل ، قال الله (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون) .

بل إن منهم من تعرض للقتل، قال سبحانه (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُون) .

ومن قام بما قام به الرسل ناله ما نالهم ، قال سبحانه (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً) .

وبالصبر مع التقوى لا يضر كيد العدو قال تعالى (وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ) .

(**حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا**) هذا وعد لهم بالنصر بعدما صبروا ، وفي الآية إرشاد إلى أن النصر مع الصبر .

وقد قال تعالى (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

وقال تعالى (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) .

(**وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ**) أي : التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين .

كما قال (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) .

وقال تعالى (كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) .

(**وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ**) أي : ولقد جاءك أخبار المرسلين من قبلك الذين كذّبوا وأوذوا كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم ، فتسلّ ولا تحزن ، فإن الله ناصركم كما نصرهم .

- **قال ابن كثير** : أي : من خبرهم كيف نُصروا وأُيدوا على من كذبهم من قومهم ، فلك أسوة وبهم قدوة .
- **وقال القاسمي** : قوله تعالى (وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ) أي : من خبرهم في مصابرة الكافرين ، وما منحوه من النصر ، فلا بد أن نزيل حزنك بإهلاكهم ، وليس إمهالهم لإهمالهم ، بل لجريان سنته تعالى بتحقق صبر الرسل وشكرهم.

الفوائد :

١- تسلية النبي ﷺ .

٢- تسلية لكل داعية إلى الله .

٣-سنة الله في ابتلاء الأنبياء وأتباعهم .

٤- الثناء على الرسل بصبرهم .

٥- أن أعداء الرسل لا يقتصرون على التكذيب ، بل يؤذون الرسل .

٦- ألا يرجى النصر إلا من عند الله .

٧- لا مبدل لكلمات الله .

(وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)) .

[الأنعام : ٣٥] .

(**وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ**) أي : وإن كان شق عليك إعراضهم عنك .

(**فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ**) أي : إن قدرت أن تطلب سرباً في جوف الأرض .

(**أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ**) أي : مصعداً تصعد به إلى السماء .

(**فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ**) فتأتيهم بآية مما اقترحوا فافعل ، وهذا – كما هو معلوم – غير ممكن ، فكذلك لا يمكنك أن تأتي بما اقترحوه من الآيات ، كما قال تعالى (وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ) عطف عليه أي ليؤمنوا فافعل ؛ فأُضمِر الجواب لعلم السامع.

أمر الله نبيه ﷺ ألا يشتدّ حزنه عليهم إذا كانوا لا يؤمنون ؛ كما أنه لا يستطيع هداهم.

(**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى**) أي : لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم ، لأن القلوب بيد الله ، وهذا كقوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) أي : على دين الإسلام ، وكقوله تعالى (لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً) وقال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا [أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ] .

- فاقتضت حكمة الله أن يكون الناس منهم الكافر ومنهم المؤمن ؟

(**فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**) أي : فلا تكونن يا محمد من يجهلون حكمة الله وسننه الإلهية التي لا تتغير ولا تتبدل .

- الجهل قسمان : جهل سفاهة – وجهل انتفاء علم ، والمراد الثاني بلا شك .

مثال الجهل الذي هو السفاهة قوله الله تعالى (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) أي : بسفاهة .

- ولا يلزم من نهي الله لنبيه ﷺ عن أن يكون من الجاهلين أن يكون النبي ﷺ فَعَلَ فِعْل الجاهلين ، كما قال تعالى (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) وقوله تعالى (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) .

- **قال ابن عاشور** : وإنّما عدل على الأمر بالعلم لأنّ النّهي عن الجهل يتضمّنه فيتقرّر في الذهن مرتين ، ولأنّ في النهي عن الجهل بذلك تحريضاً على استحضار العلم به ، كما يقال للمتعلّم : لا تنسى هذه المسألة.

وليس في الكلام نهي عن شيء تلبّس به الرسول ﷺ كما توهّمه جمع من المفسّرين ، وذهبوا فيه مذاهب لا تستبين.

الفوائد :

١-أن النبي ﷺ قد عظم عليه إعراض الكفار عن دعوته .

٢-أنه لا بد لكل نبي من آية .

٣-أن الهداية والضلالة بيد الله .

٤-حكمة الله في جعل الناس صنفين : مؤمنين وكافرين .

(**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)**) .

[الأنعام : ٣٦] .

(**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ**) أي : إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه كما قال تعالى (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

- فالمراد بالسماع هنا سماع الانقياد والقبول وليس سماع الإدراك .

(**وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ**) فيها قولان : القول الأول: المراد بالموتى الكفار ، لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات الأجساد ، وهذا قول الأكثر . وقيل : الموتى موتى الأجساد .

والأكثر على القول الأول ، ولم يذكر ابن كثير سواه ، وقد رجح هذا .

قال الطبري : والكفار يبعثهم الله مع الموتى ، فجعلهم تعالى في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً ، ولا يعقلون دعاءً ، ولا يفقهون قولاً ، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ولا يعتبرون بآياته ، ولا يتذكرون فينزجرون عن تكذيب رسل الله .

وقد رجح هذا القول : الطبري ، والقرطبي ، والسمرقندي ، والواحدي ، والبغوي ، وابن عطية ، وابن كثير ، والشوكاني .

- **قال الشوكاني** : شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعاً لا يفهمون الصواب ولا يعقلون الحق .

كما قال تعالى في نظائر هذه الآية (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي ...) .

وقال تعالى (لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) .

وقال تعالى (وما يستوي الأحياء ولا الأموات ...) .

قرينة السياق والمقابلة في الآية ، فذكر سبحانه الذين يسمعون وتفسيرها بأنهم المؤمنون ، وذكر الموتى وتفسيرها بالمقابل بأنهم الكفار .

- قوله تعالى (**يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ**) أي : للحساب والجزاء .

واختار هذا البغوي ، وابن عطية ، وأبو حيان ، والسيوطي .

كما قال تعالى في نظائر ذلك (يوم يبعثهم الله جميعاً) .

وقال تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ...) .

وهذا هو المعنى الظاهر المتبادر إلى الأذهان ، ولذلك قال أبو حيان : والظاهر أن الموت هنا والبعث حقيقة .

- **قال السعدي** : ويحتمل أن المراد بالآية، على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون .

ويكون هذا، متضمناً للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك .

وقيل : المراد يهديهم الله إلى الإيمان به وبرسوله ، وهذا في الدنيا .

(**ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**) أي : إلى الجزاء فيجازي كلاً بما يليق به كما تقتضيه حكمته البالغة .

الفوائد :

١- حصر الاستجابة لدعوة الرسل بالذين يسمعون سماع القبول والإذعان .

٢- أنه كلما صار الإنسان أسمع لكلام الله ورسوله صارت استجابته أقوى .

٣- إثبات البعث .

٤- تهديد أولئك الكفار الذين لا يسمعون بأن الله سيبعثهم ثم يجازيهم .

٥-قدرة الله الكاملة على البعث .

٦- أن المرجع إلى الله . (الأحد : ٢٣ / ١١ / ١٤٣٤هـ)

(**وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَـادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَـةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُـمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٧)**) .
[الأنعام : ٣٧] .

(**وَقَالُوا**) أي : كفار مكة ، المعاندون المكذبون للرسول .

(**لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ**) هلاّ نزّل على محمد معجزة تدل على صدقه كالناقة والعصا والمائدة .

فهم يريدون آيات اقترحوها هم كقوله تعالى عنهم (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً).

- **قال القرطبي** : وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة مثله .
- **وقال في التسهيل** : والمعنى : أنهم طلبوا أن يأتي النبي ﷺ بآية على نبوّته ، فإن قيل : فقد أتى به ، وكأنه لم يأت بشيء عندهم لعنادهم وجحدهم ، والآخر : أنهم إنما طلبوا آية تضطرهم إلى الإيمان من غير نظر ولا تفكر .

(**قُلْ**) لهم راداً عليهم .

(**إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً**) أي : هو تعالى قادر على أن يأتيهم بما اقترحوا ، كما حدث لما طلب الحواريون آية مائدة من السماء ، أنزلها سبحانه ، وغيرها من آيات الرسل الحسية والمعنوية ، لكن حكمته تقتضي تأخير ذلك ولم فعله .

- ثم بيّن تعالى عدم إنزال ما اقترحوا من الآيات فقال :

(**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**) أي : أنه لو نزلت الآية التي طلبوها ولم يؤمنوا لنزل بهم العذاب العاجل ، كما وقع بقوم صالح لما اقترحوا عليه إخراج ناقة عشراء ، من صخرة صماء ، فأخرجها الله لهم منها بقدرته ومشيئته فعقروها (وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) فأهلكهم الله دفعة واحدة بعذاب استئصال ، وذلك في قوله تعالى (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً) .

♦ **قال ابن كثير** : أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفًا) ، وقال تعالى (إِنْ نَشَأْ نُنزلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) .

قال في التسهيل : ... والآخر لا يعلمون أن الله إنما منع الآيات التي تضطرهم إلى الإيمان لمصالح العباد ، فإنهم لو رأوها ولم يؤمنوا لعوقبوا بالعذاب .

وقيل : هو أنه لما ظهرت المعجزة القاهرة والدلالة الباهرة الكافية لم يبق لهم عذر ولا علة ، فبعد ذلك لو أجابهم الله تعالى في ذلك الاقتراح فلعلّهم يقترحون اقتراحاً ثانياً ، وثالثاً ، ورابعاً ، وهكذا إلى ما لا غاية له ، وذلك يفضي إلى أن لا يستقر الدليل ولا تتم الحجة ، فوجب في أول الأمر سد هذا الباب والاكتفاء بما سبق من المعجزة القاهرة والدلالة الباهرة.

وقيل : أنه تعالى علم منهم أنهم إنما يطلبون هذه المعجزات لا لطلب الفائدة بل لأجل العناد والتعصب وعلم أنه تعالى لو أعطاهم مطلوبهم فهم لا يؤمنون ، فلهذا السبب ما أعطاهم مطلوبهم لعلمه تعالى أنه لا فائدة في ذلك .

♦ **قال الشنقيطي** : ذكر في هذه الآية الكريمة: أنه قادر على تنزيل الآية التي اقترحها الكفار على رسوله، وأشار لحكمة عدم إنزالها بقوله (ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) وبين في موضع آخر أن حكمة عدم إنزالها أنها لو أنزلت ولم يؤمنوا بها، لنزل بهم العذاب العاجل كما وقع بقوم صالح لما اقترحوا عليه إخراج ناقة عشراء ، وبراء، جوفاء، من صخرة صماء ، فأخرجها الله لهم منها بقدرته ومشيئته، فعقروها (وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ) فأهلكهم الله دفعة واحدة بعذاب استئصال، وذلك في قوله (وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بالآيات إِلاَّ تَخْوِيفاً).

♦ وقد بيّن تعالى في مواضع أخر أنه لا داعي إلى ما اقترحوا من الآيات، لأنه أنزل عليهم آية أعظم من جميع الآيات التي اقترحوها، وتلك هي القرآن العظيم ، وذلك في قوله (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ) فإنكاره جل وعلا عليهم عدم الاكتفاء بهذا الكتاب عن الآيات المقترحة يدل على أنه أعظم وأفخم من كل بينة ، وهو كذلك .

الفوائد :

١- تعنت هؤلاء المكذبين .

٢-إثبات قدرة الله .

٣- حكمة الله العظيمة .

٤- أن أفعال الله مقرون بمشيئته .

(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)).

[الأنعام : ٣٨] .

(**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ**) أي : ما من حيوان يمشي على وجه الأرض .

- والدابة : كل ما يدب على الأرض ، بأرجل متعددة ، أو أربع ، أو اثنتين ، أو يزحف على بطنه .

(**وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ**) أي : ولا من طائر يطير في الجو بجناحيه .

- قوله تعالى (بِجَنَاحَيْهِ) هذا من باب التوكيد ، كقوله : ضرب بيده ، وأبصر بعينه .

(**إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**) قيل : جماعات مثلكم ، خلقهم الله كما خلقكم ، ورزقهم كما رزقكم ، داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شيء .

وقيل : أمثالكم في أن لها أسماء تعرف بها .

وقيل : أمثالكم في الخلق والرزق والموت والاقتصاص .

قيل : يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني.

وإلى هذا القول ذهب طائفة عظيمة من المفسرين وقالوا : إن هذه الحيوانات تعرف الله وتحمده وتوحده وتسبحه واحتجوا عليه بقوله تعالى (وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) وبقوله في صفة الحيوانات (كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) وبما أنه تعالى خاطب النمل وخاطب الهدهد .

وقيل : المراد أنها أمثالنا في أن دبرها الله تعالى وخلقها وتكفل برزقها .

وقيل : المراد أنه تعالى كما أحصى في الكتاب كل ما يتعلق بأحوال البشر ، من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة فكذلك أحصى في الكتاب جميع هذه الأحوال في كل الحيوانات ، لقوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيءٍ) .

وقيل : أراد تعالى أنها أمثالنا في أنها تحشر يوم القيامة يوصل إليها حقوقها .

وقيل : المراد ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم ، فمنهم من يقدم إقدام الأسد ، ومنهم من يعدو عدو الذئب ، ومنهم من ينبح نباح الكلب ، ومنهم من يتطوس كفعل الطاوس ، ومنهم من يشبه الخنزير فإنه لو ألقي إليه الطعام الطيب تركه وإذا قام الرجل عن رجيعه ولغ فيه.

فكذلك نجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها ، فإن أخطأت مرة واحدة حفظها ، ولم يجلس مجلساً إلا رواه عنه.

- والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر أن ينزل آية .

(**مَا فَرَّطْنَا**) أي : ما أهملنا .

(**فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**) **أي:** الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحدًا من جميعها من رزقه وتدبيره، سواء كان بريًا أو بحريًا، كما قال (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

- **قال السعدي** : أي ما أهملنا ولا أغفلنا ، في اللوح المحفوظ شيئا من الأشياء ، بل جميع الأشياء ، صغيرها وكبيرها ، مثبتة في اللوح المحفوظ ، على ما هي عليه ، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم.

- فالمراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ ، أي : ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئاً فلم نكتبه ، فالله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ .
- **قال ابن القيم** : وقالت طائفة المراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء وهذا إحدى الروايتين عن ابن عباس وكان هذا القول أظهر في الآية والسياق يدل عليه فإنه قال (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم) وهذا يتضمن أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل والتقدير الأول وأنها لم تخلق سدى بل هي معبدة مذللة قد قدر خلقها وأجلها ورزقها وما تصير إليه ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها ثم قال إلى ربهم يحشرون فذكر مبدأها ونهايتها وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} أي كلها قد كتبت وقدرت وأحصيت قبل أن توجد فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول .
- **وقيل** : المراد بالكتاب هنا ، القرآن ، ورجحه الرازي لكنه قول ضعيف .
- وفي هذه الآية دليل لأحد مراتب الإيمان بالقدر وهي الكتابة ، فإن مراتب القدر أربعة :

أولاً : الإيمان بأن الله علم بكل شيء جملة وتفصيلاً ، أزلاً وأبداً .

قال تعالى (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وقال تعالى (وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) .

ثانياً : الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ .

كما قال تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) .

وقال ﷺ (إن الله كتب مقادير السموات والأرض قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) رواه مسلم .

وفي هذين الأمرين يقول الله تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) .

الثالث : الإيمان بأن جميع الكائنات لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى .

قال تعالى (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) وقال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً) .

الرابع : الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله .

قال تعالى (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ) .

(**ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**) أي : يجمعون بعد الحياة، فالأمم كلها تحشر من الدواب والطير وغيرها، وينصف الله بعضها من بعض، حتى يأخذ للجماء من القرناء ، وتقدم مباحث الحشر .

الفوائد :

١-أنه ما من حيوان يدب على الأرض أو يطير في السماء إلا وهو مكتوب عند الله .

٢- عظمة الله تعالى .

٣- أن الله لم يهمل شيئاً في اللوح المحفوظ .

٤-إثبات الحشر والمرجع إلى الله .

٥- أن كل شيء يحشر حتى الحيوانات .

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِــــرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)) .

[الأنعام : ٣٩] .

(**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**) أي : والذين كذبوا بآياتنا كالقرآن المنزل ، وسمي آية لأنه علامة ودليل على صدق من جاء به .

(**صُمٌّ**) لا يسمعون كلام الله سماع قبول ، والأصم : الذي لا يسمع .

(**وَبُكْمٌ**) لا ينطقون بالحق .

(**فِي الظُّلُمَاتِ**) أي : ظلمات الكفر ، قال ابن كثير : أي : مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم – وهو الذي لا يسمع – أبكم – وهو الذي لا يتكلم – وهو مع هذا في ظلام لا يبصر ، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه ؟

(**مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ**) أي : من يشأ الله إضلاله يضلله ، فيعمى عن الحق ولا يصل إليه .

(**وَمَنْ يَشَأْ**) هدايته .

(**يَجْعَلْهُ**) يصيره .

(**عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**) أي : على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ، وهو الإسلام .

- فالله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، لأن الأمر أمره عز وجل ، لا معقب لحكمه ، ولا اعتراض عليه .
- أن كل فعل علقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة ، أي : أنها ليست مشيئة مجردة هكذا تأتي عفواً ، وهذا عام في أحكام الله الشرعية والقدرية :

في الشرعية قال تعالى في المواريث (فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) .

وفي الأمور القدرية قال تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) .

- وهذه الحكمة قد تكون معلومة للجميع ، وقد تكون معلومة لبعض الناس ، وقد تكون مجهولة لكل الناس ، لا يحيطون بالله علماً .
- **قال ابن القيم** : من نزهه – سبحانه - أن يفعل لغرض أو حكمة حذراً من تشبيهه بالفاعلين لذلك فقد شبهه بأهل السفه والعبث الذين لا يقصدون بأفعالهم غاية محمودة ، ولا غرضاً مطلوباً محبوباً .

الفوائد :

١- بيان حال الذين كذبوا بآيات الله .

٢-أن من شاء الله هدايته اهتدى ، ومن شاء إضلاله ضل .

٣- سؤال الله الهداية .

(**قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا**

تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)) .
[الأنعام : ٤٠ – ٤١] .

(**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ**) استفهام تعجب، أي : أخبروني إن أتاكم عذاب الله كما أتى من قبلكم ، أو أتتكم القيامة فجأة من تدعون ؟

(**أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ**) أي : أتدعون غير الله لكشف الضر عنكم ؟

(**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**) في أن آلهتكم تنفعكم .

(**بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ**) بل للإضراب الإبطالي (إبطال أنهم يدعون غير الله) والمعنى : بل لا تدعون إلا الله .

(**فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ**) فيزيل ويفرج ما دعوتم به إلى الله .

(**إِنْ شَاءَ**) وإنما قال : إن شاء ، لئلا يطمع هؤلاء في كشف الكربة ، فإذا لم تكشف احتجوا على الله .

(**وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ**) أي : في وقت الضرورة لا تدعون أحد سواه وتنسون أصنامكم وآلهتكم وأندادكم كما قال تعالى (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) .

الفوائد :

١- تقرير الإنسان بما لا يمكن دفعه .

٢-أن هؤلاء المكذبين عند الضراء لا يلجئون إلا إلى الله .

٣-أن الله يجيب دعوة المضطر ولو كان كافراً .

٤-أنه لا يصرف السوء إلا الله .   (الثلاثاء / ٢٥ / ١١ / ١٤٣٤ هـ .

(**وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)**) .
[الأنعام : ٤٢ – ٤٥] .

(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ**) هذه تسلية للنبي ﷺ ، أي : والله لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرين من قبلك .

(**فَأَخَذْنَاهُمْ**) في الكلام حذف تقديره : فكذبوا وكفروا فأخذناهم وأهلكناهم .

(**بِالْبَأْسَاءِ**) يعني بالفقر والضيق في العيش .

(**وَالضَّرَّاءِ**) يعني الأمراض والأسقام والآلام .

- **قال ابن عطية** : في الكلام حذف يدل عليه الظاهر تقديره فكذبوا فأخذناهم ، ومعناه لازمناهم وتابعناهم الشيء بعد الشيء ، (البأساء) المصائب في الأموال ، (والضراء) في الأبدان ، هذا قول الأكثر ، وقيل قد يوضع كل واحد بدل الآخر .
- **قال أبو حيان** : هذا تسلية للرسول ﷺ وإن عادة الأمم مع رسلهم التكذيب والمبالغة في قسوة القلوب حتى هم إذا أخذوا

بالبلايا لا يتذللون لله ولا يسألونه كشفها .

♦ **وقال ابن عاشور** : والمراد : أنّ الله قدّم لهم عذاباً هيّناً قبل العذاب الأكبر ، كما قال (ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلّهم يرجعون) وهذا من فرط رحمته الممازجة لمقتضى حكمته ؛ وفيه إنذار لقريش بأنّهم سيصيبهم البأساء والضرّاء قبل الاستئصال ، وهو استئصال السيف.

(**لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ**) لعل : للتعليل ، أي : لأجل أن يتضرعوا إلى الله عز وجل ويخشونه ويخشعون .

قال الرازي : فإن قيل : أليس قوله (بَلْ إياه تَدْعُونَ) يدل على أنهم تضرعوا ؟ وههنا يقول : قست قلوبهم ولم يتضرعوا.

قلنا : أولئك أقوام ، وهؤلاء أقوام آخرون.

أو نقول أولئك تضرعوا لطلب إزالة البلية ولم يتضرعوا على سبيل الإخلاص لله تعالى فلهذا الفرق حسن النفي والإثبات.

♦ **قال ابنُ رجب رحمه اللهِ:** مِن لَطَائِفِ البَلايَا وفوائِدِها تكفيرُ الخطايا بها والثواب على الصبر عليها، وهل يثاب على البلاء نَفْسِهِ، فيه اختلاف بين العلماء.

ومنها: تذكير العبد بذنوبه فربما تاب ورجع منها إلى الله عز وجل.

ومنها: زوالُ قسوة القلوب وحدوثُ رقَّتِها.

قال بعضُ السلف إن العبدَ لَيُمْرضُ فيذكرُ ذُنُوبَهَ فَيَخْرُجَ منه مثلُ رَأسِ الذباب من خشيةِ اللهِ فيغفرُ له.

ومنها: انْكِسارُهُ لِلّهِ عَزَّ وَجَلَ وذِلَّهُ وذلك أَحَبُ إلى اللهِ مِن كثيرٍ مِن طاعاتِ الطائعين.

ومنها: أنها تُوجِبُ لِلعبدِ الرجُوعَ بِقلبه إلى الله عز وجل والوقوفَ ببابه والتضرعَ لَهُ والاستكانة وذلك مِن أعظَمِ فوائِدِ البَلاءِ وقد ذَمَّ اللهُ مَن لا يَسْتكينُ لَهُ عند الشدائد.

قال تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) وقال (وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) .

وفي بعضِ الكتبِ السابقةِ: إن اللهَ لَيبتلِي العبدَ وهو يُحِبُّه لِيَسْمَعَ تَضَرُعَه.

وقال سعيدُ بنُ عبد العزيز قال داودُ ﷺ: سبحانَ مُستخرجِ الدعاء بالبَلاء وسبحانَ مُستخرجِ الشكرِ بالرَّخَاءِ.

وقال ثابت: إذا دعا الله المؤمنُ بدعوة وكلَّ الله جبريل بحاجته فيقول الله: لا تعجل بإجابته فإني أحب أن أسمعَ صوتَ عبدِي المؤمن.

ومنها: أن البلاء يوصل إلى قلبه لذة الصبر عليه أو الرضا به وذلك مقام عَظِيم جدًا. وقد تقدمت الإشارة إلى فضل ذلك وشرفه.

ومنها: أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى المخلوق ويوجب له الإقبال على الخالق وحده.

وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد فكيف بالمؤمنين.

والبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه وذلك على أعلى المقامات وأشرف الدرجات.

وفي الإسرائيليات يقول الله عز وجل: البلاء يجمع بيني وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك.

وإذا اشتد الكرب وعظم الخطب كان الفرج حينئذٍ قريبًا في الغالب. قال تعالى (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا) .

وقال تعالى (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ) .

وأخبر عن يعقوب ﷺ أنه لم ييأس من لقاء يوسف وقال لإخوته (اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ).

وقال (عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً) .

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج باشتداد الكرب، أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى وجُدِ الإياس من كشفه من جهة المخلوق ووقع التعلق بالخالق استجاب له وكشف عنه.

فإن التوكل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين كما قال الإمام أحمد. واستدل عليه بقول إبراهيم عليه السلام لما عرض عليه جبريل في الهواء وقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا .

والتوكل من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج فإن الله يكفي من توكل عليه كما قال (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال الفضيل: والله ولو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئًا لأعطاك مولاك كما تريد .

(**فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا**) أي فلم يتضرعوا حينئذ مع تحقق ما يستدعيه .

- **قال القرطبي** : (لولا) تحضيض ، وهي التي تلي الفعل بمعنى هَلاَّ ؛ وهذا عِتاب على ترك الدعاء ، وإخبار عنهم أنهم لم يتضرَّعوا حين نزول العذاب.

(**وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ**) أي : أصابهم القسوة ، وقسوة القلب : غلظته وشدته بحيث لا يعتبر ولا يتعظ .

- وقد حذر الله من قسوة القلب فقال تعالى (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) .

وهو من صفات أهل الكتاب فقال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) فوصف أهل الكتاب بالقسوة ، ونهانا عن التشبه بهم .

- **قال ابن القيم** : ما ضربَ عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله .
- أسباب قسوة القلب .

أولاً : نقض العهد مع الله .

قال تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) .

قال ابن عقيل يوماً في موعظته: يا من يجد في قلبه قسوة، احذر أن تكون نقضت عهداً، فإن الله يقول (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ...).

الثاني : طول الأمل .

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) .

ولذلك طول الأمل ينسي الآخرة ، كما قال علي : أخوف ما أخاف عليكم اثنتين : طول الأمل واتباع الهوى ، فطول الأمل ينسي الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق .

فليس هناك أنفع للقلب من قصر الأمل (وهو العلم بقرب الرحيل) .

الثالث : كثرة الأكل ، لا سيما إن كان من الشبهات أو الشهوات .

قال بشر : خصلتان تقسّيان القلب : كثرة الكلام ، وكثرة الأكل .

الرابع : كثرة الذنوب .

قال تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

وفي المسند قال ﷺ (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى يعلو

قلبه ، فلذلك الران الذي ذكر الله في كتابه : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

قال بعض السلف : البدن إذا عري رقّ ، وكذلك القلب إذا قلت خطاياه أسرعت دمعته .

قال ابن المبارك :

رأيت الذنوب تميت القلوب ويورث الذل إدمانها .

وترْك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسِك عصيانها .

- **علامات رقة ولين القلب .**

أولاً : الإكثار من ذكر الله .

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) .

قال رجل للحسن ، يا أبا سعيد ، أشكو إليك قسوة قلبي ، قال : أذبه بذكر الله .

قال بعض السلف : دواء القلب من خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتفكر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

ثانياً : العطف على المسكين .

فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو قسوة قلبه ؟ فقال له الرسول ﷺ : (إذا أحببت أن يلين قلبك فامسح رأس اليتيم وأطعم المسكين) رواه أحمد .

ثالثاً : زيارة المقابر .

قال ﷺ (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة ، وترق القلب) رواه أحمد .

إذا قسا القلب قحطت العين .

رابعاً : كثرة ذكر الموت .

ولذلك قال ﷺ (أكثروا من ذكر هاذم اللذات) رواه الترمذي .

لما في ذلك من رقة القلب ، ونشاط العبادة ، وتعجيل التوبة ، والإقلاع عن المعاصي .

قال سعيد بن جبير : لو فارق الموت ذكر قلبي لفسد .

خامساً : أكل الحلال .

قال الفضيل : من عرف ما يدخل جوفه كتب عند الله صديقاً .

وقال سهل التستري: من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى، ومن أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى .

سادساً : الدعاء بسلامة القلب .

كان ﷺ يقول (اللهم إني أسألك قلباً سليماً ..) رواه أحمد .

سابعاً : الاستجابة لأمر الله ورسوله .

قال تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ).

(**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) أي : وحسّن لهم الشيطان المعاصي والإصرار على الضلال .

- والمراد بالشيطان الجنس ، وليس المراد شيطاناً واحداً .
- وقد ذكر تعالى تزيين الشيطان في آيات :

فقال تعالى (وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ) .

وقال تعالى (وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) .

(**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِه**) أي : فلما تركوا وأعرضوا عما جاءهم من التذكير وجعلوه وراء ظهورهم .

- فالنسيان هنا الترك ، لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به ، إذ ليس هو من فعلهم .
- **قال القرطبي** : قوله تعالى (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ) يُقال : لِمَ ذموا على النسيان وليس من فعلهم؟

فالجواب أنّ (نَسُوا) بمعنى تركوا ما ذكّروا به ، عن ابن عباس وابن جُرَيْج ، وهو قول أبي عليّ .

وذلك لأن التارك للشيء إعراضاً عنه قد صيره بمنزلة ما قد نسِي ، كما يُقال : تركه في النِّسْي.

جواب آخر وهو أنهم تعرّضوا للنّسيان فجاز الذمّ لذلك ؛ كما جاز الذمّ على التعرّض لسخط الله عزّ وجلّ وعقابه.

(**فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**) أي : فتحنا عليهم أبواب الرزق والرخاء والأنعام ومن كل ما يختارون ، استدراجاً منه تعالى وإملاء لهم ، عياذاً بالله من مكره ، ولهذا قال :

(**حَتَّى إِذَا فَرِحُوا**) فرح بطر ومرح ، وهذا الفرح المذموم كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) وهو الفرح على المعصية .

قال القرطبي : معناه بَطِرُوا وأشِروا وأعجِبوا وظنّوا أن ذلك العطاء لا يَبِيد ، وأنه دال على رضاء الله عزّ وجلّ عنهم (أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) أي استأصلناهم وسطونا بهم.

(**بِمَا أُوتُوا**) أي : بما أعطوا من الأموال والأولاد والأرزاق .

أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) أي : فجأة ، أهلكناهم من غير مقدمات .

- وهذا أشد ما يكون من العذاب ، أن يؤخذوا على غرة وغفلة وطمأنينة ، ليكون أشد لعقوبتهم وأعظم لمصيبتهم .

(**فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**) آيسون من كل خير .

عن عقبة بن عامر . عن النبي ﷺ قال (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج ، ثم تلا رسول الله ﷺ : فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) .

قال الحسن : مكَر بالقوم ورب الكعبة ، أعطُوا حاجتهم ثم أخذوا .

وقال الحسن : من وسّع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له .

(**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا**) أي : أهلكوا واستؤصلوا عن آخرهم .

- الدابر : الآخر ، والمعنى : قطعوا عن آخرهم .
- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) عبارة عن استئصالهم بالهلاك والمعنى : فقطع دابرهم ونبه على سبب الاستئصال بذكر الوصف الذي هو الظلم ، وهو هنا الكفر والدابر التابع للشيء من خلفه .

(**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) أي : فالله يحمد على كل شيء ، ومن ذلك : أنه سبحانه وتعالى يحمد على نصر الرسل وإهلاك الكافرين ، فإن بذلك تتبين آياته ، وإكرامه لأوليائه ، وإهانته لأعدائه ، وصدق ما جاءت به المرسلون .

- وفيه تعليم المؤمنين كيف يحمدونه سبحانه عند نزول النعم التي من أجلها هلاك الظلمة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون،

فإنهم أشد على عباد الله من كل شديد .

♦ **قال الزمخشري** : إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة وأنه من أجل النعم وأجزل القسم .

♦ **وقال أبو حيان** : والذي يظهر أنه تعالى لما أرسل إلى هؤلاء الأمم كذبوهم وآذوهم فابتلاهم الله تارة بالبلاء ، وتارة بالرخاء فلم يؤمنوا فأهلكهم واستراح الرسل من شرهم وتكذيبهم وصار ذلك نعمة في حق الرسل إذ أنجز الله وعده على لسانهم بهلاك المكذبين فناسب هذا الفعل كله الختم بالحمدلة.

♦ **وقال ابن عاشور** : وهذا الحمد شكر لأنّه مقابل نعمة، وإنّما كان هلاكهم صلاحاً لأنّ الظلم تغيير للحقوق وإبطال للعمل بالشريعة، فإذا تغير الحقّ والصلاح جاء الدمار والفوضى وافتتن الناس في حياتهم فإذا هلك الظالمون عاد العدل، وهو ميزان قوام العالم.

الفوائد :

١- أن الله أرسل رسلاً للناس تبشيراً وتحذيراً .

٢-الإشارة إلى أن الرسول محمد ﷺ آخر الرسل .

٣-الحكمة من الابتلاء بأنواع الابتلاء وهي الرجوع إلى الله .

٤-فضل التضرع والخشوع لله .

٥-أن المسلم الحق عند المحن يرجع إلى الله .

٦- أن من لا يرجع ويتضرع عند المحن ففيه شبه من الكفار .

٧- ذم قسوة القلب ، وأنها سبب عدم الاتعاظ والاعتبار .

٨- على المسلم أن يبتعد عن الأسباب التي تؤدي إلى قسوة القلب .

٩-عداوة الشيطان للإنسان .

١٠- أن الله يستدرج عباده إذا أصروا على الكفر والعناد .

١١- ذم الفرح المذموم ، وهو الفرح بمعصية الله .

١٢- تهديد للظالمين .

١٣- من نعم الله إهلاك المكذبين ، ليكون ذلك تثبيتاً لأوليائه .   الخميس / ٢٧ / ١١ / ١٤٣٤هـ

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦)) .

[الأنعام : ٤٦] .

(**قُلْ**) أي : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المعاندين .

(**أَرَأَيْتُمْ**) أخبروني .

(**إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ**) أي : سلبكم سمعكم فأصبحتم لا تسمعون .

(**وَأَبْصَارَكُمْ**) أي : سلبكم بصركم فأصبحتم لا تبصرون الأشياء .

(**وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ**) فطبع عليها ، حتى لا تفقهوا قولا ولا تبصروا حجة ، ولا تفهموا مفهومًا .

لأن الله هو الذي أعطاكم إياها كما قال تعالى (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ) .

ويحتمل أن عبارة عن منع الانتفاع بهما النفع الشرعي .

(**مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ**) أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه، وإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك ، فلمَ عبدتم معه مَنْ لا قدرة له على شيء إلا إذا شاءه الله ، وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك .

- قوله تعالى (يَأْتِيكُمْ بِهِ) الضمير في قوله (به) أي : بما ذكِرَ مما أخذه الله منكم .

- **قال ابن جرير** : وهذا من الله تعالى ذكره ، تعليم نبيَّه الحجة على المشركين به ، يقول له : قل لهم : إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضرًّا ولا نفعًا، وإنما يستحق العبادةَ عليكم من كان بيده الضر والنفع، والقبض والبسط، القادرُ على كل ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدر على شيء.

- **قال الخازن** : وإنما ذكر هذه الأعضاء الثلاثة ، لأنها أشرف أعضاء الإنسان فإذا تعطلت هذه الأعضاء ، اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا.

(**انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ**) أي : نبينها ونوضحها ونفسرها ونوعها حتى يعلموا أنه سبحانه هو المستحق للعبادة ، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال .

- التصريف : المجيء بالآيات على جهات مختلفة ، تارة إنذاراً ، وتارة إعذاراً ، وتارة ترغيباً ، وتارة ترهيباً .

- **قال القرطبي** : وتصريف الآيات الإتيان بها من جهات ؛ من إعذار وإنذار وترغيب وترهيب ونحو ذلك.

- والآية هي العلامة الدالة على عظمة الله ووحدانيته سبحانه ، وقد نوع الله الآيات ووضحها .

قال تعالى (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) .

وقال تعالى (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً) .

- فكل شيء في الكون دال على وحدانية الله تعالى .

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعَالِمِينَ)

وخلق السموات من أعظم الآيات كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) وقال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) .

فواعجباً كيف يعصى الإله   أم كيف يجحده الجاحدُ

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

(**ثُمَّ هُمْ**) أي : ثم هم بعد هذا البيان والتوضيح .

(**يَصْدِفُونَ**) يعرضون فلا يعتبرون ولا يتعظون .

الفوائد :

١-تحدي هؤلاء الذين أشركوا بالله بهذه المسألة .

٢- أن الإنسان إذا أصيب في سمعه أو بصره أو سائر جسده فليلجأ إلى الله .

٣- رحمة الله بعباده حيث صرف الآيات لهم ونوعها .

٤- ذم من يعرض عن الآيات .

(**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧)**) .

[الأنعام : ٤٧] .

(**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ**) أي : عقوبة الله .

(**بَغْتَةً**) أي : فجأة وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم كما لو كنتم نيام .

(**أَوْ جَهْرَةً**) أي : ظاهراً عياناً ، كما لو أنتم أيقاظ ، ، كأن يأتيكم العذاب بعد أن تُعاينوا أسبابه ، وتروا أوائله ، حتى يقع بكم جهرة عياناً وأنتم تنظرون إليه وهذا كقوله تعالى (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ) .

وقيل : (بَغْتَةً) ليلاً (أَوْ جَهْرَةً) إتيان العذاب نهاراً كما في قوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) والأول أصح .

وقد ضعف هذا القول ابن عاشور فقال : فالعذاب الذي يجيء بغتة هو الذي لا تسبقه علامة ولا إعلام به.والذي يجيء جهرة هو الذي تسبقه علامة مثل الكسف المحكي في قوله تعالى (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا) أو يسبقه إعلام به كما في قوله تعالى: (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ) فإطلاق الجهرة على سبق ما يشعر بحصول الشيء إطلاق مجازي ، وليس المراد من البغتة الحاصل ليلاً ومن الجهرة الحاصل نهاراً .

- **وقال الشنقيطي** : وهذا التفسير ليس كما ينبغي، بل التحقيق أن معنى (بغتة) أي: أتاكم العذاب في حال كونه مباغتاً، أي: مفاجئاً ، وقوله (جهرة) أن يأتيكم العذاب بعد أن تعاينوا أسبابه وتروا أوائله حتى بكم جهرة عياناً وأنتم تنظرون إليه .

(**هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ**) الاستفهام إنكاري بمعنى النفي ، أي : ما يهلك بالعذاب إلا أنتم لأنكم ظالمون بكفرهم بالله ، لأن الشرك بالله أعظم الظلم .

قال القرطبي : أي هل يهلك إلاَّ أنتم لشرككم ؛ والظلم هنا بمعنى الشرك ، كما قال لقمان لابنه (يا بني لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

- فإن قيل : جاء في الأحاديث الصحيحة أن العذاب إذا نزل بقوم كفار شمل من فيهم من المسلمين ، وهذه الآية بيّنت أنه لا يُهلك إلا القوم الظالمون ؟

قيل : بأن العذاب لو شمل وأهلك من هو معهم ، أن هذا الهلاك تمحيص له ، وأنه يبعث يوم القيامة في نعمة من الله ورحمة وأجر .

وقيل : أن هذا في قصص الأنبياء ، وأن الغالب أن الكلام في الأمم والرسل ، والقرآن قص علينا أن كل أمة علم الله أن الهلاك سيأتيها ، أمرَ نبيها ومن معه فخرجوا منها ونجوا ، كما ذكر تعالى أنه نجى هوداً بقوله (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) وقال تعالى (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) .

الفوائد :

١- تهديد الكفار بعذاب الله .

٢- أن عذاب الله أحياناً يأتي بغتة وأحياناً جهرة .

٣- تحريم الظلم وأنه سبب للهلاك والعقوبة .

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (٤٩)) .

[الأنعام : ٤٨ – ٤٩] .

(**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**) أي : وما نرسل الرسل إلا مبشرين لمن آمن بالجنات والخيرات ، ومنذرين من كفر بالنار والعقوبات ، لم نرسل المرسلين لتكون بيدهم خزائن السماوات والأرض ، أو يكون ملائكة ، أو يقترح عليهم من شاء كل ما شاء من التعنتات ، لا ، ليس الأمر كذلك ، وإنما أرسلناهم تبشيراً وإنذاراً .

- التبشير الإخبار بما يسر ، سمي بذلك لأن البشر يظهر على الوجه ، والإنذار : هو الإعلام المقرون بالتخويف .
- والبشارة أغلب ما تطلق على الإخبار بما يسر خاصة ، وجاء في القرآن إطلاقها على الإخبار بما يسوء كقوله (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) إما تهكماً ، وإما أن هذا أسلوب من أساليب العرب .
- في هذه الآية حصر مهمة الرسل بالتبشير والإنذار ، حتى لا يتوهم متوهم أن له قدرة على الهداية أو الرزق أو الربوبية .
- وفي هذه الآية بيان مهمة من مهمات الرسل ، وللرسل وظائف :

أولاً : التبشير للمؤمن والإنذار للكافر .

قال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) .

وقال تعالى (رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

وقال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

وقال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) .

ثانياً : رحمة للناس .

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) .

ثالثاً : البلاغ المبين .

قال تعالى (وإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) .

وقال تعالى (مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) .

وقال تعالى (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) .

رابعاً : الدعوة إلى الله .

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

خامساً : إقامة الحجة .

وقال تعالى (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى) .

وعندما يصيحون بالنار بعد أن يحيط بهم العذاب من كل جانب وينادون ويصرخون تقول لهم خزنة جهنم :

كما قال تعالى (قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَـاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) .

(**فَمَنْ آمَنَ**) بقلبه .

(**وَأَصْلَحَ**) عمل الجوارح ، وإصلاح العمل يكون بأمرين : الإخلاص ، ومتابعة الشريعة .

والقاعدة المقررة عند العلماء: أن الإيمان إذا جاء مطلقاً ولم يُعطف عليه العمل الصالح فهو يشمل الإيمان من الجهات الثلاث: إيمان القلب بالاعتقاد، وإيمان اللسان بالإقرار، وإيمان الجوارح بالعمل الصالح، وإذا عُطف عليه العمل الصالح كقوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قوله هنا (آمَنَ وَأَصْلَحَ) انصرف الإيمان إلى ركنه الأكبر وهو الاعتقاد القلبي، وصار الإصلاح بعده يُراد به الأعمال.

(**فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**) فيما يستقبلونه من أهوال ، فهم آمنون .

(**وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**) أي: بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعتها، فالله وليهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تركوه .

(**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**) هذا القسم الثاني من الذين أرسل إليهم الرسل ، وهم من كذب بآيات الله .

- وآيات الله كونية وشرعية :

الآية الكونية القدرية . (فهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها) .

وهي ما نصبه الله (جل وعلا) ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد المستحق للعبادة ، كالشمس والسماء والأرض ونحوها ، وكل ما في الكون من مخلوقات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي : لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون ، وهو المعبود وحده .

- الكفر بالآيات الكونية يكون بأمور : أن يجحد أن الخالق سبحانه خلقها فيدعي أن الذي خلقها ، أو أن يعتقد أن له شريكاً في خلقه ، أو أن له معيناً في خلقه .

الآيات الشرعية الدينية ، كآيات هذا القرآن العظيم . (لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله) .

ومنه قوله تعالى (رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ) وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) .

وسميت آيات ، جمع آية ، لأنها علامة على صدق من جاء بها .

والكفر بالآيات الشرعية إما بجحودها، أوبتكذيبها، أو بالاستكبار والعناد ، كما قالوا عن القرآن: إنه سحر، وأساطير الأولين .

(**يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ**) أي : يصيبهم العذاب إصابة مباشرة .

♦ والمسيس : وقوع الشيء على الشيء مباشرة من غير أن يحول بينهما حائل ، وعبّر بالمسيس ليبين أن حرّ ذلك العذاب وألمه يباشرهم مباشرة عظيمة شديدة من غير حائل ، وعذاب الله لا يماثله عذاب (فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) .

(**بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**) بسبب فسقهم ، (والباء) سببية ، أي : يمسهم العذاب بسبب كونهم كانوا فاسقين في دار الدنيا ، والفسق المراد به هنا الكفر .

♦ الفسق يطلق ويراد به الكفر كقوله تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) ويطلق ويراد به ما دون الكفر كقوله تعالى (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) .

الفوائد :

١- منّة الله بإرسال الرسل .

٢- أن إرسال الرسل يتضمن هذين الشيئين : البشارة ، والإنذار .

٣-أن الناس ينقسمون في دعوة الرسل إلى قسمين : مصدق ، ومكذب .

٤-حكمة الله في انقسام الناس إلى ذلك .

٥- وجوب الإيمان وإصلاح العمل .

٦- أن التكذيب بآيات الله سبب للعقوبة . الثلاثاء / ٣ / ١٢ / ١٤٣٤

(قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)) .

[الأنعام : ٥٠] .

(**قُلْ**) يقول تعالى لرسوله ﷺ آمراً له أن يقول لكفار قريش ، حينما طلبوا منه الآيات تعنتاً .

♦ فالآية رد على الذين يطلبون من النبي ﷺ الآيات ويقترحونها .

(**لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ**) أي : لست أملكها ولا أتصرف فيها .

(**وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ**) أي : ولا أقول لكم : إني أعلم الغيب ، إنما ذاك من علم الله ، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه .

(**وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ**) أي : ولا أدعي أني ملك ، إنما أنا بشر من البشر .

(**إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى**) أي : ما أتبع فيما أدعوكم إليه إلا وحي الله الذي يوحيه إليّ ، كما قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) .

♦ والوحي : لغة الإعلام ، واصطلاحاً : هو إعلام الله تبارك وتعالى لأحد أنبيائه بالشرع .

♦ قوله تعالى (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ) في هذا أن من خصائص الرسل عن بقية البشر بالوحي ، وهناك خصائص اختص بها الأنبياء دون بقية البشر :

أولاً : الوحي :

قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) .

ثانياً : تنام أعينهم دون قلوبهم .

قال ﷺ – في حديث الإسراء – (وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم) رواه البخاري .

ثالثاً : التخيير عند الموت .

قال ﷺ (ما من نبي يمرض إلا خيّر بين الدنيا والآخرة) متفق عليه .

رابعاً : أحياء في قبورهم .

قال ﷺ (الأنبياء أحياء في قبورهم) رواه أبو يعلى .

وقال ﷺ (رأيت موسى يصلي في قبره) رواه مسلم .

خامساً : لا تأكل الأرض أجسادهم .

قال ﷺ (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) رواه أبو داود .

سادساً : يقبرون حيث يموتون .

قال ﷺ (لم يقبر نبي إلا حيث يموت) رواه أحمد .

ولهذا فإن الصحابة رضوان الله عليهم دفنوا الرسول ﷺ في حجرة عائشة ، حيث قبضت روحه فيها .

سابعاً : العصمة مما لا يليق .

كالكذب والغش والخيانة .

(**قُلْ**) يا محمد بعد أن تبيّن هذا .

(**هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ**) أي : هل يستوي من اتبع الحق وهُديَ إليه ، ومن ضل عنه ولم يَنقَد له ؟

كما قال تعالى (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) .

(**أَفَلا تَتَفَكَّرُون**) الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، يعني أبعد هذا تعرضون فلا تتفكرون .

الفوائد :

١-أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب .

٢- أن مهمة الرسول التبليغ والإنذار .

٣- أن النبي متبع للوحي وما جاء عن الله .

٤- فضل الإيمان والهدى .

٥- ذم عمى البصيرة .

(وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)) .

[الأنعام : ٥١] .

(**وَأَنْذِرْ بِهِ**) أي : وأنذر بهذا القرآن يا محمد ، وأعلمهم بما عند الله من الأوامر والنواهي .

والإنذار : الإعلام بالشيء على وجه التخويف .

- قوله تعالى (به) أي : بالقرآن وهذا هو الصحيح ورجحه ابن جرير .

وقد رجح هذا القول : ابن جرير ، والقرطبي ، والبغوي ، وابن عطية ، وابن الجوزي .

أ-لدلالة السياق ، قال أبو حيان : لما أخبر أنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه ، أمره أن ينذر به .

ب- أن الأولى عود الضمير إلى أقرب مذكور وهو قوله (ما يوحى إليّ) ، ولذلك قال الشنقيطي : وأصح الأقوال في مرجع الضمير : أنه راجع إلى القرآن المعبر عنه بقوله (إن أتبع إلا ما يوحى إليّ) .

وقيل : إلى الله ، وقيل : إلى اليوم الآخر .

(**الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ**) أي : الذين يؤمنون بالبعث والقيامة والحشر ، ويخافون ذلك اليوم حينما يجمعهم في ذلك اليوم كما قال تعالى (وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً) .

- اختلف في المراد ب(الذين يخافون) :

فقيل : كل من خاف من البعث ، سواء كان مسلماً فإنه ينذر ليترك المعاصي ، أو كان من أهل الكتاب فينذر ليتبع الحق ، ورجحه القرطبي ، وابن عطية ، وابن الجوزي .

لعموم اللفظ ، قال أبو حيان : وظاهر قوله (الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ) عموم من خاف الحشر ، وآمن بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني .

ب- أنه ﷺ كان مبعوثاً للكل ، فكلهم منذرين .

وقيل : المراد بالاسم الموصول هم المؤمنون .

وبه قال ابن كثير ، والقاسمي .

قالوا : لأن له شاهداً من القرآن كقوله (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) وقوله (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب) .

- فإن قيل : لما خص الإنذار على الذين يخافون أن يحشروا ، مع أن القرآن إنذار للأسود والأبيض (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) وقال تعالى (أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) ؟

لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حلّ بهم من الخوف ، بخلاف من لا يخاف الحشر كقوله تعالى (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) مع أنه تذكير للأسود والأبيض ، وكقوله (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ) وهو منــذر للأسود والأبيض .

- في الآية وجوب الإنذار بالقرآن ، لكن لا ينتفع به إلا من آمن بالقيامة ولقاء الله .

كما قال تعالى (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً) .

وقال تعالى (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) .

(**لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ**) أي : لا يتولاهم أحد دون الله .

(**وَلا شَفِيعٌ**) أي : ولا يشفع لهم أحد من دون الله .

◆ والشفاعة : التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة ، فشفاعة النبي ﷺ لأهل الموقف أن يقضَى بينهم من نوع دفع الضر ، وشفاعته ﷺ لأهل الجنة بدخولها من نوع جلب منفعة .

(**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**) اللام للتعليل ، أي : لأجل أن يتقوا الله ، فيفعلون أوامره ويجتنبون نواهيه .

الفوائد :

١- وجوب الإنذار بالقرآن .

٢-أنه ليس كل أحد يقبل النذارة .

٣- إثبات الحشر .

٤- أن الإيمان باليوم الآخر سبب لقبول الهدى والحق .

(وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)) .

[الأنعام : ٥٢] .

(**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ**) قال الطبري: نزلت هذه الآية في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين، قال المشركون لرسول الله ﷺ: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك ، وأراد النبي ﷺ طمعاً في إسلامهم ، فنهاه الله أن يبعد هؤلاء الذين يدعون الله من مجلسه من أجل الكفار الفجرة .

كما قال (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) .

◆ قوله تعالى (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) المراد بالدعاء هنا دعاء المسألة ، ودعاء العبادة ، فدعاء المسألة ، أن يقول : يا ربنا اغفر لي وارحمني ، ودعاء العبادة ، أن يقوم ويصلي ويصوم ويحج ، ووجه كون العابد داعياً ، لأنه بعبادته يريد بذلك ثواب الله والخوف من عقابه ، فهو دعاء بلسان الحال .

(**بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ**) الباء هنا بمعنى (في) وتأتي الباء بمعنى (في) كقوله تعالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ). والمراد بالغداة والعشي : المراد بذلك الصلوات الخمس ، وقيل : بالغداة صلاة الصبح ، وبالعشي صلاة العصر ، وقيل : الآية أعم من الصلاة ، وهذا الصحيح ، لأنهم يدعون الله ويعبدونه بأنواع العبادات من صلاة وغيرها ، أول النهار وآخره .

◆ وفي تخصيص الغداة والعشي عدة أوجه :

قيل : أن العرب إذا أرادت الدوام أطلقت الليل والنهار ، والغداة والعشي ، يعنون أنهم دائمون على ذلك .

وقيل : أن أول النهار وآخره من أفضل الأوقات التي تُنتهز فيها فرصة العبادات .

(**يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**) أي : يبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم ، فهم مخلصون فيما هم من العبادات والطاعات ، لا يريدون رياء ولا سمعة ، ولا غرضاً من أغراض الدنيا .

◆ في هذه الآية نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن طرد ضعفاء المسلمين ، وأمره في آية أخرى أن يصبر نفسه معهم ، وأن لا تعدو عيناه عنهم إلى أهل الجاه والمنزلة في الدنيا فقال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ

عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) .

وهذا الطلب وهو طرد ضعفاء المسلمين ، طلبه قوم نوح من نوح فأبى كقوله تعالى عنه (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا) وقوله (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) ، وهذا من تشابه قلوب الكفار المذكور في قوله (تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) .

- اعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة :

منها : أنها توجب إخلاص العمل لله .

لأن الإحسان إليهم لمحبتهم لا يكون إلا لله تعالى ، لأن نفعهم في الدنيا لا يرجى غالباً.

ومنها : أنها تزيل الكبْر .

لأن المستكبر لا يرضى مجالسة المساكين ، كما سبق عن رؤساء قريش والأعراب .

ومنها : أنه يوجب صلاح القلب وخشوعه .

ففي حديث أبي هريرة (أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه ، فقال له : إن أحببتَ أن يلين قلبُك فأطعم المسكين ، وامسح رأس اليتيم) رواه أحمد .

ومنها : أن مجالسة المساكين توجب رضى من يجالسهم برزق الله عز وجل ، وتعظم عنده نعمة الله ، ومجالسة الأغنياء توجب التسخط بالرزق ومد العين إلى زينتهم وما هم فيه ، وقد نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن ذلك فقال تعالى (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وقال ﷺ (انظروا إلى من دونكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) .

ومنها : أن النبي ﷺ أوصى بحب المساكين .

قال أبو الدرداء (أوصاني رسول الله ﷺ أن أنظر إلى دوني، ولا أنظر إلى من فوقي، وأوصاني أن أحب المساكين وأن أدنو منهم) .

وكان عون بن عبد اله يجالس الأغنياء فلا يزال في غم ، لأنه لا يزال يرى من هو أحسن منه لباساً ومركباً وطعاماً ومسكناً ، فتركهم وجالس المساكين فاستراح .

وفي الحديث (اللهم إني أسألك فعل الخيرات ... وحب المساكين) .

ويروى أن داود كان يجالس المساكين ويقول : مسكين بين مساكين .

قال ابن رجب: وحب المساكين مستلزم لإخلاص العمل لله تعالى، والإخلاص هو أساس الأعمال الذي لا تثبت الأعمال إلا عليه .

ولم يزل السلف يوصون بحب المساكين .

كتب الثوري إلى بعض إخوانه : عليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم ، فإن رسول الله ﷺ كان يسأل ربه حب المساكين .

ويروى عن أبي هريرة قال : كان جعفر بن أبي طالب يحب المساكين ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه ، وكان النبي ﷺ يكنيه أبا المساكين .

وكانت زينب بنت خزيمة تسمى أم المساكين لكثرة إحسانها إليهم ، وتوفيت في حياة النبي ﷺ .

ومر الحسن بن علي على مساكين يأكلون ، فدعوه فأجابهم وأكل معهم وتلا (إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) .

وكان ابن عمر لا يأكل غالباً إلا مع المساكين ، وكان يقول : لعل بعض هؤلاء أن يكون ملكاً يوم القيامة .

وكان سفيان الثوري يعظم المساكين ، ويجفو أهل الدنيا ، فكان الفقراء في مجلسه هم الأغنياء والأغنياء هم الفقراء .

وقال سليمان التيمي : كنا إذا طلبنا علية أصحابنا وجدناهم عند الفقراء والمساكين .

وقال الفضيل : من أراد عز الآخرة فليكن مجلسه مع المساكين .

- وفيه أهمية الإخلاص .

(**مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ**) أي : لا تؤاخذ بأعمالهم وذنوبهم كقول نوح (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي) ، وهذا كالتعليل لما قبله ، والمعنى : لا تؤاخذ بذنوبهم ولا بما في قلوبهم إن أرادوا بصحبتك غير وجه الله ، وهذا على فرض تسليم ما قاله المشركون ، وإلا فقد شهد الله لهم بالإخلاص بقوله (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

(**وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ**) أي : لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولا هم بحسابك فلم تطردهم .

(**فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**) الظلم معناه : وضع الشيء في غير موضعه ، فمن طرد مسلماً طيباً كريماً يستحق التقدير والإحسان على خاطر خبيث ، فقد وضع الأمر في غير موضعه ، حيث طرد من يستحق القُرْب على خاطر من يستحق البعد .

- قال القرطبي : وهذا كقوله تعالى (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) .

الفوائد :

١- تحريم طرد ضعفاء المسلمين الذين يريدون الحق .

٢- دفاع الله عن هؤلاء المؤمنين .

٣-فضل من يريد بعمله وجه الله .

٤-أن الرسول ليس مسؤولاً عن هؤلاء ، فالله يتولى أمورهم .

٥- التحذير من الظلم .   الخميس / ٥ / ١٢ / ١٤٣٤ هـ

(**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)**) .

[الأنعام : ٥٣] .

(**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ**) أي : ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض .

- يعني : الشريف بالوضيع ، والعربي بالمولى ، والغني بالفقير .

كما قال تعالى في آخر سورة الأنعام (وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

(**لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ**) الضعفاء الذين لا مكانة لهم ، ولا مال ، ولا جاه .

(**مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا**) أي : ليقول الأشراف والأغنياء أهؤلاء الضعفاء والفقراء منّ الله عليهم بالهداية والسبق إلى الإسلام من دوننا ! قالوا : ذلك إنكاراً واستهزاء .

- **قال ابن كثير** : وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول البعثة ، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل كما قال قوم نوح لنوح (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ) وكما قال هرقل ملك الروم لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل فقال له : اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، فقال : هم أتباع الرسل ، والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون (**أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ**

عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا) أي : ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير– لو كان ما صاروا إليه إليه خيراً — ويدعنا كما قالوا (لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) .

◆ **قال ابن عطية** : فابتلاء المؤمنين بالمشركين هو ما يلقون منهم من الأذى ، وابتلاء المشركين بالمؤمنين هو أن يرى الرجل الشريف من المشركين قوماً لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين وجعل لهم عند نبيه قدراً ومنزلة ، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من طلبهم أن يطرد الضعفة .

◆ **قال الشنقيطي** : أجرى الله تعالى الحكمة بأن أكثر أتباع الرسول ضعفاء الناس ، ولذلك لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن نبينا ﷺ : أأشرف الناس يتبعونه ، أم ضعفاؤهم؟ فقال : بل ضعفاؤهم. قال : هم أتباع الرسل .

فإذا عرفت ذلك فاعلم أنه تعالى أشار إلى أن من حكمة ذلك فتنة بعض الناس ببعض، فإن أهل المكانة والشرف والجاه يقولون: لو كان في هذا الدين خير لما سبقنا إليه هؤلاء، لأنا أحق منهم بكل خير كما قال هنا (وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ) لآية إنكاراً منهم أن يمن الله على هؤلاء الضعفاء دونهم، زعماً منهم أنهم أحق بالخير منهم، وقد رد الله قولهم هنا بقوله (أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ) وقد أوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله تعالى (وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ) الآية، وقوله (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ)، إلى غير ذلك من الآيات.

◆ فالأغنياء غالباً يبتلون بالفقراء ويفتنون بما يعطيه الله للفقراء من الدين والإيمان ، والفقراء غالباً يبتلون بما يعطيه الله للأغنياء من الدنيا ، فيقول الفقراء : كيف أعطيَ هؤلاء الغنى والدنيا ونحن خير منهم ولم نعطها ؟ يحسدونهم على غناهم ، كما أن الأغنياء يقولون : كيف يكون هؤلاء الفقراء على حق ودين ويكونون أفضل منا ونحن خير منهم .

◆ وقد أخبر الله تعالى أن هذا الابتلاء يحتاج إلى صبر ، وأن لله حكمة كما قال (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً) .

فقال تعالى رداً عليهم :

(**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**) أي : أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً .

◆ وسبقت مباحث الشكر ، وأنه يكون من الله للعبد (إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) ومن العبد لربه (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) (إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) .

الفوائد :

١–أن الدنيا دار ابتلاء واختبار .

٢–على الإنسان أن يعلم أن ما يكون بالدنيا من فقر أو مرض أو غيرهما فهو ابتلاء واختبار .

٣–فضل الشكر لله .

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)

[الأنعام : ٥٤] .

(**وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا**) اختلف في المراد بهؤلاء :

فقيل : هم الذين نهاه الله عن طردهم وهم المستضعفون من المؤمنين .

وبه قال القرطبي ، وابن جزي ، والشوكاني ، والشنقيطي .

وقيل : نزلت في قوم أصابوا ذنوباً عظاماً ولم يرد عليهم ، فنزلت الآية ، ورجحه الطبري .

ومن المفسرين من حمل الآية على عمومها .

كابن عطية ، والرازي ، وابن تيمية ، والقاسمي ، والسعدي .

وحجتهم عموم اللفظ .

قال ابن عطية : وهي على هذا تعم جميع المؤمنين دون أن تشير إلى فرقة .

وقال الرازي : والأقرب من هذه الأقاويل أن تحمل الآية على عمومها .

(**فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ**) أي : فأكرمهم بالسلام عليهم ، تطييباً لخواطرهم وإكراماً لهم .

- **قال ابن عطية** : قال جمهور المفسرين (الذين) يراد بهم القوم الذين كان عرض طردهم فنهى الله عز وجل عن طردهم ، وشفع ذلك بأن أمر بأن يسلم النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ويؤنسهم .

- قوله تعالى (سَلامٌ عَلَيْكُمْ) قيل : أن النبي ﷺ أَمِرَ بأن يُسلم عليهم مبتدئاً إياهم بالسلام ، **وقيل** : إن هذا السلام هو من جهة الله ، أي : أبلغهم منا السلام لما احتقرهم أعداء الله .

- **قال القرطبي** : وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى.

وقال : ويستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم ؛ فإن في ذلك غضب الله ، أي حلول عقابه بمن آذى أحداً من أوليائه.

(**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**) أي: أوجب ذلك على نفسه إيجاب فضل وإحسان وامتنان، وقد قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) وقال ﷺ (لما قضى الله الخلْق: كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي) متفق عليه .

(**أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ**) أي : بسفاهة ، ولهذا أجمع الصحابة على أن كل ذنب عصيَ الله به فهو جهالة عمداً كان أو جهلاً ، لأن من يعصي الله فهو جاهل بالله وبقدره وعظمته .

- وليس المراد بالجهالة هنا الجهالة التي هي ضد العلم ، لأن من يعمل السوء وهو جاهل غير عالم لا يؤاخذ ولا ذنب عليه بل هو معذور .

- والسوء : السيئة ، سميت سيئة لأنها تسوء صاحبها في الدنيا وفي الآخرة ، في الدنيا بظهور آثارها عليه من الهمّ والضيق في الصدر والخلق والرزق ، فيفقد من السعادة في الحياة بقدر ما عمل من السوء ، قال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) وقال تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) . وتسوؤه آجلاً بعد موته لمعاقبته عليها إن لم يتب منها أو يتداركه الله بعفوه .

(**ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ**) أي: رجع عما كان عليه من المعاصي من بعد المعصية ، وذلك بالإقلاع عن هذه المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها ، وأن تكون خالصة لله تعالى ، وأن تكون في وقتها المناسب : قبل حضور الموت وبلوغ الروح الحلقوم ،

وقبل طلوع الشمس من مغربها .

- فالتوبة : هي الرجوع والعودة إلى الله والإنابة إليه ، أي : الرجوع من المعصية إلى الطاعة .

(**وَأَصْلَحَ**) أي : وأصلح عمله وأناب وأخلص لله تعالى في المستقبل ، وترك هذه المعصية والبعد عنها .

(**فَأَنَّهُ غَفُورٌ**) اسم من أسماء الله .

قال السعدي : الغفور : الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب .

قال ابن القيم :

وهو الغفور فلو أتى بقرابها من غير شرك بل من العصيان

لأتاه بالغفران ملء قرابها سبحانه هو واسع الغفران .

متضمن للمغفرة الواسعة كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) ، وقال تعالى (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) وقال تعالى (ورحمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

والمغفرة : هي ستر الذنب عن الخلق ، والتجاوز عن عقوبته ، كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال (يدني المؤمن يوم القيامة من ربه – عز وجل – حتى يضع كنفه – أي ستره ورحمته – فيقرره بذنوبه ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم ، أي ربي ، حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك ، قال الله : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) رواه البخاري ومسلم .

ومنه سمي المغفر ، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام .

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم :

أولاً : محبة الله وحمده وشكره على رحمته لعباده وغفرانه لذنوبهم .

ثانياً : فتح باب الرجاء والمغفرة للشاردين عن الله تعالى والمسرفين على أنفسهم ، فهما عظمت ذنوب العبد فإن مغفرة الله ورحمته أعظم كما قال تعالى (إن ربك وسع لمغفرة) ، وقد تكفل الله بالمغفرة لمن تاب (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى) ، بل من فضله وجود وكرمه أن تعهد بأن يبدل سيئات المذنبين إلى حسنات قال تعالى عن التائبين (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) .

ثالثاً : الإكثار من الأعمال الصالحة والحسنات لأنها من أسباب الحصول على مغفرة الله للسيئات السالفة قال سبحانه (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى) .

رابعاً : إن كونه سبحانه غفوراً وغفاراً للذنوب لا يعني أن يسرف المسلم في الخطايا والذنوب ويتجرأ على معصية الله تعالى بحجة أن الله غفور رحيم، لأن المغفرة لا تكون إلا بشروطها وانتفاء موانعها قال سبحانه (إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً).

خامساً : سؤال الله عز وجل بهذا الاسم الكريم مغفرة الذنوب ووقاية شرها ، لأنه سبحانه وحده الذي يملك غفران الذنوب ، ولا يملك ذلك أحد سواه .

سادساً : مجاهدة النفس على التخلق بخلق الصفح عن الناس وستر أخطائهم وعوراتهم والاهتداء بهدي القرآن الكريم الذي يأمر بالعفو عن الناس ومقابلة السيئة بالحسنة ، قال سبحانه في وصف المتقين (والْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) .

(**رَحِيمٌ**) اسم من أسماء الله دال على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى ، كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) وقال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

- ورحمة الله تعالى لعباده نوعان :

الأولى : رحمة عامة .

وهي لجميع الخلائق بإيجادهم ، وتربيتهم ، ورزقهم ، وإمدادهم بالنعم والعطايا ، وتصحيح أبدانهم ، وتسخير المخلوقات من نبات وحيوان وجماد في طعامهم وشرابهم ، ومساكنهم ، ولباسهم ، وحركاتهم ، وغير ذلك من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

الثانية : رحمة خاصة .

وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين فيرحمهم الله في الدنيا بتوفيقهم إلى الهداية والصراط المستقيم ، ويثبتهم عليه ، ويدافع عنهم وينصرهم على الكافرين ويرزقهم الحياة الطيبة ويبارك لهم فيها ، ويمدهم بالصبر واليقين عند المصائب ، ويغفر لهم ذنوبهم ، ويكفرها بالمصائب ، ويرحمهم في الآخرة بالعفو عن سيئاتهم والرضا عنهم والإنعام عليهم بدخول الجنة ، كما قال تعالى (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً) .

قال الشيخ ابن عثيمين : فهي رحمة إيمانية دينية دنيوية .

- ومن أعظم آثار رحمة الله تعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للناس وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وقال تعالى (ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ).

- ومن رحمته : سبحانه مغفرته لذنوب عباده بالصفح عنهم ، وتكفير سيئاتهم ، وفتح باب التوب لهم ، كما قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .

- ينبغي على العبد أن يتصف بصفة الرحمة ، فقد مدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ، ومن أسمائه ﷺ (نبي الرحمة) ومدح الصحابة بقوله (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ، وخص أبو بكر من بينهم بقوله (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر) .

- **الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم :**

أولاً : محبة الله المحبة العظيمة ، وذلك حينما يفكر العبد وينظر في آثار رحمة الله في الآفاق وفي النفس والتي لا تعد ولا تحصى ، وهذا يثمر تجريد المحبة لله والعبودية الصادقة له سبحانه وتقديم محبته على النفس والأهل والمال والناس جميعاً .

ثانياً : عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله وعدم اليأس من رحمة الله تعالى ، فإن الله قد وسعت رحمته كل شيء ، وحسن الظن بالله وانتظار الفرج بعد الشدة من أجل العبادات .

ثالثاً : اتصاف العبد بالرحمة وبذلها لعباد الله تبارك وتعالى، وقد حض الله عباده على التخلق بها، ومدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ومن أسمائه ﷺ أنه نبي الرحمة، ومدح الصحابة بقوله (رحماء بينهم) وخُص أبو بكر بينهم بالكمال البشري في الرحمة بعد الرسل حيث قال ﷺ فيه (أرحم أمتي أبو بكر) رواه أحمد .

رابعاً : التعرض لرحمة الله بفعل أسبابها .

- وإذا كان الله رحيماً فينبغي أن يعمل بالأسباب التي تنال بها الرحمة :

أولاً : رحمة الناس .

قال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه .

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) رواه أحمد .

ثانياً : الإحسان .

قال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) .

ثالثاً : طاعة الرسول ﷺ .

قال تعالى (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

رابعاً : السماحة في البيع والشراء .

قال رسول الله ﷺ (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) . رواه البخاري .

خامساً : عيادة المريض .

قال رسول الله ﷺ (من عاد مريضاً خاض في الرحمة) رواه مسلم .

سادساً : قيام الليل وإيقاظ الأهل .

قال رسول الله ﷺ (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء) رواه أبو داود .

سابعاً : الحلق في النسك .

قال رسول الله ﷺ (اللهم ارحم المحلقين ثلاثاً) متفق عليه .

ثامناً : مجالس الذكر .

قال رسول الله ﷺ (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة) رواه مسلم .

تاسعاً : الجلوس في المسجد .

قال رسول الله ﷺ (إن الملائكة تستغفر للمصلي مادام في مصلاه تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه) متفق عليه .

عاشراً : سماع حديث الرسول وتبليغه .

قال رسول الله ﷺ (رحم الله من سمع مني حديثاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع) رواه ابن حبان .

الحادي عشر : الإنصات للقرآن .

قال تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الثاني عشر : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

قال تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الثالث عشر : الاستغفار .

قال تعالى (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

- والتوبة واجبة على الفور .

المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها ، ومتى أخرها عصى بالتأخير .

ومما يدل على وجوب المبادرة بها من هذه الآية : أن التوبة لا تقبل عند حضور الأجل ، والإنسان لا يدري متى يحضره أجله ، فالموت يأتي بغتة .

- بعض علامات التوبة المقبولة :

منها : أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .

ومنها : أنه لا يزال الخوف مصاحباً له ، لا يأمن مكر الله طرفة عين .

ومنها : انخلاع قلبه ، وتقطعه ندماً وخوفاً .

- وأمر الله بالتوبة توبة نصوحاً فقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً) .

قال ابن القيم : النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء :

الأول : تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته .

والثاني : إجماع العزم والصدق بكليته عليها ، بحيث لا يبقى عنده تردد ، ولا تلوم ولا انتظار .

والثالث : تخليصها من الشوائب والعِلَل القادحة في إخلاصها ، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته ، والرغبة فيما لديه .

- اتهام التوبة :

منها : ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة ، وتذكر حلاوة مواقعته .

ومنها : طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه تاب ، حتى كأنه قد أعطيَ منشوراً بالأمان .

ومنها : جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة .

- هل يشترط لصحة التوبة أن لا يعود إلى الذنب أبداً ، أم ليس ذلك بشرط ؟

الأكثرون على أن ذلك ليس بشرط، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم على ترك معاودته .

الفوائد :

١- فضل من آمن بالله وآياته .

٢- كلما قوي إيمان الشخص قوي حبه لأهل الإيمان .

٣- عظم رحمة الله .

٤-أن من أذنب ثم تاب تاب الله عليه .

٥-وجوب الإصلاح لمن تاب .

٦- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الغفور الرحيم .

(**وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)**) .

[الأنعام : ٥٥] .

(**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ**) أي : وكما فصلنا في هذه السورة الدلائل والحجج على ضلالات المشركين ، كذلك نبين ونوضّح لكم أمور الدين .

(**وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**) أي : ولتتضح وتظهر طريق المجرمين ، فينكشف أمرهم وتستبين سبلُهم .

- المجرمين جمع مجرم ، والجريمة : الذنب الذي يستحق صاحبه العذاب والنكال .
- فإن قيل : لماذا خص سبيل المجرمين دون المؤمنين ؟ فالجواب : أن سبيل المجرمين إذا عُرفتْ عرفتْ منها سبيل المؤمنين ، لأن الأشياء تعرف بأضدادها ، وإذا عرف الإنسان الشر عرف أن مقابله هو الخير .

الفوائد :

١–رحمة الله بعباده حيث يفصل وينوع لهم الآيات لعلهم يتذكرون .

٢–أهمية معرفة طريق المجرمين ليتجنبها المسلم .

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨)) .

[الأنعام : ٥٦- ٥٨] .

(**قُلْ**) يا محمد لهؤلاء المشركين المعرضين عن عبادة الله إذا دعوك إلى عبادة آلهتهم .

(**إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**) إن الله نهاني أن أعبد الذين تدعون من دونه من الأصنام والمعبودات التي تعبدونها من دون الله ، لأن الله قال لنبيه ﷺ (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهَ) أي : بل الله وحده (فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِين) .

(**قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ**) أي : ولقد نهاني الله عن اتباع أهوائكم ، أي : مهوياتكم التي تميل إليها نفوسكم باتباع الهوى والباطل ، كما قال تعالى (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) والمعنى : لا أتبع أهواءكم الباطلة في عبادة الأصنام والإشراك بالله تعالى .

- وفي هذا تنبيه على ضلالهم .

والهوى : ميل النفس ، وأكثر ما يطلق في الشرع : إلى ميلها إلى ما لا ينبغي .

(**قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**) فإن خالفت أمر ربي عز وجل وعبدتُ آلهتكم التي تعبدون أو اتبعت أهواءكم فيما تريدون مخالفاً بذلك أمر ربي ، فقد تركت محجة الحق ، وسلكت على غير الهدى ، فصرت ضالاً مثلكم على غير استقامة . (والضلال ضد الرشاد) .

- وفي هذا أنه يجب على الإنسان أن يتبرأ من عبادة غير الله .

كما قال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) .

وقال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ).

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) .

وقال تعالى (فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) .

وقال تعالى (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) .

- وفيها أن من اتبع هواه بغير علم ولا دليل أنه ضال وأنه ليس من المهتدين .

(**قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي**) أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، إني على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إليّ .

(**وَكَذَّبْتُمْ بِهِ**) أي : وكذبتم بالحق الذي جاءني من الله وهو القرآن ، واختاره ابن عطية ، والبغوي .

وقيل : إن الضمير يعود إلى الرب ، أي : وكذبتم بربكم .

واختاره الطبري ، والرازي ، والشوكاني ، والسعدي ، لأنه أقرب مذكور .

وقيل : وكذبتم به ، أي : بالعذاب ، وقيل : بالبينة .

(**مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ**) أي : من العذاب ، فهو ليس بيدي وإنما بيد الله ، فإن الكفار كانوا يقولون للنبي ﷺ : هذا الذي تهددنا به من عذاب الله ، فإن كنت صادقاً نبياً فعجّله لنا ، كما ذكر ذلك الله عنهم في آيات :

كقوله تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) .

وقال تعالى (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) .

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) .

وقال تعالى (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ): أيْ: أيّ شيء يحبس العذاب ويؤخره، ولِمَ لا تعجله ؟

وقيل : (مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) من الآيات التي تقترحونها عليّ .

(**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**) أي : إنما يرجع أمر ذلك إلى الله ، إن شاء عجّل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأجّلكم ، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة .

(**يَقُصُّ الْحَقَّ**) أي : يخبر الخبر الحق ويبينه البيان الشافي ، كما قال تعالى (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) ، ويحتمل أن يكون (يقص) من قصْ الأثر بمعنى تبِعَه ، ويكون المعنى : (يقص الحق) أي : يتبع الحق فيما يفصل به بينكم .

(**وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ**) أي : هو خير من بيّن وميّز بين المحق والمبطل وأعدلهم ، لأنه لا يقع في حكمه وقضائه حيف إلى أحد لوسيلة له إليه ولا لقرابة ولا مناسبة ، ولا في قضائه جور .

- ويفصل بين الناس يوم القيامة كما قال تعالى (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
- وفي هذه الآية أن الحكم لله جميعاً ، وإن سبب النزول خاص في الحكم الكوني ، حيث قالوا : عجل لنا العذاب ، فالحكم الكوني والشرعي لله ، فلا تشريع لأحد ، ولا تحليل لأحد إلا له سبحانه ، فالحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، والدين ما شرعه الله .

(**قُلْ**) أي : قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يستعجلون العذاب بقوله (عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) .

(**لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ**) أي : العذاب الذي تستعجلون به ، لو كان بيدي لعجلته عليكم .

(**لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**) أي : لعجلته لكم لأستريح منكم ، ولكنه بيد الله .

وقيل : بسؤالي وطلبي ذلك .

(**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ**) لا يخفى عليه من أحوالهم شيء ، فيمهل ولا يهمل .

فالله تعالى أعلم بالوقت الذي ينزل فيه عذابهم .

وفيه تهديد ووعيد .

الفوائد :

١- أن النبي ﷺ يجب أن يعلن براءته من الشرك .

٢- يجب على كل مسلم أن يتبرأ من عبادة غير الله .

٣- وجوب عبادة الله .

٤- تحريم الشرك .

٥- أن كل من عبد غير الله فهو متبع لهواه (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) .

٦- أن الرسول لا يعلم الغيب .

٧- أن مهمة الرسول البلاغ والبيان .

٨- الحكم كله لله تعالى .

٩- شدة عتو الكفار حيث كانوا يستعجلون بالعذاب كفراً وعناداً واستهزاء .

١٠- تهديد ووعيد للظالمين .

١١- أن أعظم الظلم الشرك . (الاثنين / ١٧ / ١٢ / ١٤٣٤هـ)

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

[الأنعام : ٥٩] .

(**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ**) أي : عند الله لا عند غيره ، وهذا التركيب يفيد الحصر والاختصاص .

المفاتح جمع : مَفتَح بفتح الميم أي : خزائن الغيب ، أي : عند الله خزائن الغيب لا عند غيره ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل .

ثم أكد هذا بقوله :

(**لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ**) تأكيد لما سبق .

وهذه المفاتح فسرها أعلم الخلق بربه وهو النبي ﷺ بقوله في حديث ابن عمر (مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) رواه البخاري . **وهي** :

الأولى (**إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ**) : فلا أحد يعلم متى تقوم الساعة إلا الله .

كما قال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ) .

وقال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) .

ولما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة ؟ قال له : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ...) رواه مسلم .

فمن ادعى علم الساعة فهو كافر ، ومن صدقه فهو أيضاً كافر ، لأنه مكذب للقرآن .

الثانية (**وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ**) .أي : الوقت الذي ينزل فيه المطر لا يعلمه إلا الله وحده .

الثالثة (**وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ**) .أي : الذي يعلم ما في أرحام الإناث هو الله وحده ، أذكر هو أم أنثى ؟ قبيح أو جميل ؟ شقي أو سعيد ؟

الرابعة (**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً**) .أي : لا يدري ما يكسب غداً من خير أو شر ، ما يكسب من الحسنات التي تقربه إلى الله ، وما يكسب من السيئات التي تبعده عن الله ، وما يدري ما يكسب غداً من المال .

الخامسة (**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**) .أي : لا يدري أحد أين يموت ، هل يموت في أرضه أم في أرض أخرى ، ولا يدري هل يموت في البر أو في البحر ، ولا يدري أيضاً بأي ساعة يموت ، لأنه إذا كان لا يمكنه أن يدري بأي أرض يموت ، فكذلك لا يدري بأي زمن وساعة يموت .

وقد جاء في حديث عن النبي ﷺ (أنه إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة) رواه أحمد .

- هذه مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله .
- وقد بيّن تعالى أن الغيب كله لا يعلمه إلا الله كما قال تعالى (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) .

وأعظم الخلق : الملائكة ، والرسل لا يعلمون الغيب .

فالملائكة لما قال لهم الله (فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ) أجابوا بأن قالوا (سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) .

والرسل عليهم الصلاة – مع ما أعطاهم الله من العلم والمكانة – يقولون : إنهم لا يعلمون الغيب إلا ما علمهم الله .

فهذا سيدهم وخاتمهم قد أمره ربه أن يقول (قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) .

وأمره أيضاً في سورة الأعراف أن يقول (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) .

وهذا نوح عليه السلام ذكر الله عنه في سورة هود أنه قال لقومه (وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً) .

وهذا نبي الله إبراهيم كما قال الله (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) ولم يدرِ أن الذين ينضج لهم عجله ملائكة كرام لا يأكلون .

وهذا نبي الله يعقوب قال الله فيه (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ) ومع هذا فولده يوسف كان في مصر ، وما بينه وبينه ثمان مراحل ، ولا يعلم عن أمره شيئاً .

وهذا نبي الله سليمان عليه السلام ، الذي أعطاه الله الريح ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وما كان يدر يعن قصة بلقيس وجماعتها ، حتى جاءه الهدهد الضعيف المسكين ، وكان قد خرج بغير إذن ، وكان نبي الله سليمان يتوعده ويتهدده على الخروج بغير إذن كما قص الله في سورة النمل (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ...) حتى قال له (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ...) .

(**وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**) أي : يحيط علمه العظيم بجميع الموجودات بريها وبحريها ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

◆ **قال الشوكاني** : خصهما بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله ، أي يعلم ما فيهما من حيوان وجماد علماً مفصلاً لا يخفى عليه منه شيء ، أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما .

قال القرطبي : قوله تعالى (وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر) خصّهما بالذّكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر ، أي يعلم ما يهلك في البر والبحر.

ويقال : يعلم ما في البر من النبات والحبّ والنّوى ، وما في البحر من الدواب ورزق ما فيها

(**وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا**) مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات، أي : لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها، والأرض التي تسقط عليها .

(**وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ**) أي : ولا حبة صغيرة في باطن الأرض إلا يعلمها سبحانه وتعالى ، يعلم مكانها .

قال السعدي : من حبوب الثمار والزروع ، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق ؛ وبذور النوابت البرية التي ينشأ منها أصناف النباتات.

(**وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**) أي : ولا شيء فيه رطوبة أو جفاف إلا وهو معلوم عند الله ومسجل في اللوح المحفوظ .

◆ **قال ابن الجوزي** : وفي الكتاب المبين قولان.

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ ، قاله مقاتل.

والثاني : أنه علم الله المتقَنُ ، ذكره الزجاج.

◆ اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق : سماه القرآن بالكتاب كما في هذه الآية وفي قوله تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) .

وبالإمام المبين ، كما في قوله تعالى (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) .

وبالكتاب المسطور ، كما في قوله تعالى (وَالطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ) .

وبأم الكتاب ، كما قال تعالى (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) .

الفوائد :

١- عموم علم الله تعالى .

٢- وجوب الخوف من الله .

٣- الحذر من إبطان الشر والنفاق والرياء في القلب ، لأن الله لا يخفى عليه شيء .

٤- في هذه الآية أعظم زاجر ، وأكبر واعظ عن اقتراف المعاصي .

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)) .

[الأنعام : ٦٠ – ٦٢] .

(**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ**) يخبر تعالى أنه يتوفى عباده في منامهم بالليل، كما قال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم، وهذا هو التوفي الأصغر ، كما قال تعالى (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..) وقال تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً) .

(**وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ**) أي : ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار .

♦ وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم ، في حال سكونهم وفي حال حركاتهم كما قال تعالى (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ) أي في الليل (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) أي : في النهار ، وقال تعالى (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً) .

(**ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ**) أي : ثم يوقظكم ويثيركم في النهار ، فالهاء التي في (فيه) راجعة على النهار .

(**لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً**) أي : ليقضي الله الأجل الذي سماه لحياتكم ، وذلك الموت ، فيبلغ مدته ونهايته .

(**ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ**) أي : يوم القيامة .

(**ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ**) أي : فيخبركم .

(**بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) في حياتكم الدنيا ، ثم يجازيكم بذلك ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**) تقدم في أول السورة .

(**وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً**) أي : الملائكة ، يحفظون بدن الإنسان ، ويحفظون عمله ويُحصونه عليه .

فالدليل الأول : قوله تعالى (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) .

والدليل الثاني : قوله تعالى (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَاماً كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) ، وقال تعالى (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ، وقال تعالى (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) .

(**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**) أي : احتُضِر وحان أجله .

(**تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا**) أي : الملائكة الموكلون بذلك .

♦ والتوفي أحياناً يضاف إلى ملك الموت كما قال تعالى (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ) وجاء يضاف إلى الله كما قال تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) وتارة يضاف إلى الملائكة كهذه الآية (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) ؟ والجمع :

أن الموت بإذن الله ، وقبض الروح يكون بملك الموت ، ويكون معه رسل تساعده .

(**وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ**) أي : وهم – أي الملائكة – لا يقصّرون في شيء مما أمروا به من الحفظ والتوفي .

♦ **قال ابن كثير** : (وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ) في حفظ روح المتوف ، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله ، إن كان من الأبرار ففي عليين ، وإن كان من الفجار ففي سجين .

(**ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ**) قيل : الملائكة ، وقيل : الخلائق كلهم إلى يوم القيامة فيحكم بينهم بعدله كما قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) ، وقال تعالى (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً) .

(**مَوْلاهُمُ الْحَقِّ**) أي : خالقهم ورازقهم وباعثهم ومالكم (الحق) الذي لا شك فيه ، فلا شك في وجوده ، ولا يسع أحداً إنكاره

لظهور دلائل إثباته ، فهو سبحانه حق في ذاته ، حقٌّ في صفاته ، حق في أقواله ، حق في أفعاله ، كامل الصفات والنعوت ، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والكمال والجمال موصوفاً .

ولهذا قال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) .

وفي الحديث كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال (اللهم لك الحمد ، ... أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ...) متفق عليه .

- والمراد بالولاية هنا العامة ، لأن الولاية تنقسم إلى قسمين :

ولاية عامة : بمعنى أن يتولى شؤون عباده ، وهذا للكفار والمؤمنين .

ودليلها هذه الآية (. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) وقوله تعالى (وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

ولاية خاصة ، وهذه للمؤمنين .

كما قال تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ) .

مقتضى النوع الأول : أن لله تعالى كمال السلطان ، والتدبير في جميع خلقه .

ومقتضى النوع الثاني : الرأفة ، والرحمة ، والتوفيق .

(**أَلا لَهُ الْحُكْمُ**) أي : له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه .

(**وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**) يحتمل معنيان :

الأول : أن اليوم الآخر – الذي يقع فيه الحساب – أن مجيئه قريب وسريع ، وكل ما هو آت قريب والله أخبر عن أمر الساعة أنه كلمح البصر أو هو أقرب .

والثاني : – وهو المتبادر – : أن ذلك الحساب لا يطول لكثرة الخلق الذين يحاسبهم ، بخلاف حال المخلوقين فإنهم إذا كثر ذلك عليهم فإن ذلك يقتضي طول الوقت الذي تستغرقه تلك المحاسبة .

الفوائد :

١- أن النوم وفاة .

٢- عموم علم الله تعالى بجميع أعمال العباد .

٣-أن لكل إنسان أجل مسمى يموت عنده .

٤-أن المرجع والمصير إلى الله تعالى .

٥-إثبات اسم من أسماء الله وهو القاهر .

٦- إثبات علو الله تعالى بجميع أنواعه .

٧-إثبات الملائكة .

٨-إثبات أن للملائكة وظائف وأعمال .

٩- أن الرسل تقبض أرواح بني آدم بأمر من الله .

١٠- أن الملائكة يطبقون أوامر الله ويؤدونها كاملة .

١١-أن مرد جميع الخلائق إلى الله .

١٢- وجوب تحكيم الله في كل شيء .

١٣- إثبات الحساب .

١٤- إثبات سرعة الحساب .

١٥- أن الله لا يعجزه شيء . (الخميس / ١٩ / ١٢ / ١٤٣٤هـ)

(قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) .

[الأنعام : ٦٣ – ٦٥] .

(**قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**) أي : قل يا محمد لهؤلاء الكفرة من ينقذكم ويخلصكم في أسفاركم من شدائد وأهوال البر والبحر ؟

قال الفخر : (ظلمات البر والبحر) مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما ، يقال : لليوم الشديد يوم مظلم.

(**تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً**) قال ابن المعنى : تدعون ربكم علانية وسراً ، قائلين :

(**لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ**) أي : من هذه الضائقة .

(**لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**) أي : بعدها .

قال القرطبي : وبّخهم الله في دعائهم إياه عند الشدائد وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره .

قال الرازي : ولفظ الآية يدل على أن عند حصول هذه الشدائد يأتي الإنسان بأمور :

أحدها : الدعاء .

وثانيها : التضرع .

وثالثها : الإخلاص بالقلب ، وهو المراد من قوله : (وَخُفْيَةً) .

(**قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ**) أي : الله وحده ينجّيكم من هذه الشدائد ومن كل كرب وغمّ .

(**ثُمَّ أَنْتُمْ**) أي : بعد ذلك .

(**تُشْرِكُونَ**) تقريع وتوبيخ ، أي : ثم أنتم بعد معرفتكم بهذا كله تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى .

قال القرطبي : قوله تعالى (ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) تقريع وتوبيخ ؛ مثل قوله في أوّل السورة (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) .

لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة وجب الإخلاص ، وهم قد جعلوا بدلاً منه وهو الإشراك ؛ فحسُن أن يُقرَّعوا ويُوَبَّخُوا على هذه الجهة وإن كانوا مشركين قبل النجاة. أ هـ .

وهكذا المشرك يرجع إلى الله ويخلص وقت الضراء ، ثم وقت الرخاء يشرك ويرجع :

كما قال تعالى (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً) .

وقال تعالى (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ...) .

وقال تعالى (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) .

وقال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) .

- وفي هذا فضل التوحيد والإخلاص .

- **قال ابن القيم** : التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه ، فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وأما أولياؤه فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ، ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات ، وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة ، ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه ، لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل هذه سنة الله في عباده ، فما دفعت شـــدائد الدنيا بمثل التوحيد ، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد ، فلا يلقى في الكرب العظام إلا الشرك ، ولا ينجى منها إلا التوحيد ، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها . (الفوائد) .

- سبب أن الله يستجيب الدعـــاء عند الشدة ، لأن الإنسان ينقطع تعلقه بالمخلوق ، فلا يبقى في قلبه إلا الله .

(**قُلْ**) يا محمد .

(**هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ**) بالرجم كما فعل بمن قبلكم .

(**أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ**) بالخسف كما فعل بقارون (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ) .

(**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً**) أي : يجعلكم ملتبسين شيعاً فرقاً متخالفين .

(**وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ**) أي : يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل .

وقد روى البخاري عن جابر قال (لما نزلت (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ) قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك، قال (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال : أعوذ بوجهك (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ) قال رسول الله ﷺ (هذا أهون).

وعن سعد . قال : قال رسول الله ﷺ (سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها) رواه مسلم .

وفي صحيح مسلم قال ﷺ (... وإن ربي قال : يا محمد ! إني إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك : أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً) رواه مسلم .

وقد اختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية :

فقيل : إن الذين عناهم الله بهذه الآية هم المسلمون من لأمة محمد ﷺ ، لأن النبي ﷺ استعاذ عند نزولها ، **وقيل** : إنها في الشرك ومن سلك طريقهم في الشقاق والعناد ، قال الطبري : والصواب من القول عندي أن يقال : إن الله تعالى توعّـد بهذه الآية أهل

الشرك من عبدة الأوثان .

(**انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ**) أي : انظر يا محمد كيف نبين ونوضع ونوع لهم الآيات .

لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) أي : لكي يفقهوا ذلك ويعتبروه ، فيذّكروا ويزدجروا عما هم عليه مقيمون مما يسخطه الله منهم ، من عبادة الأوثان والأصنام ، والتكذيب بكتاب الله ورسوله ﷺ .

♦ التصريف : تصريف الشيء : أي يؤتى به في صور شتى ، يبين لهم ما يحتاجون إليه بذكر العبر والعظات تارة بالقصص وتارة بذكر أحوال الآخرة إلى غير ذلك .

الفوائد :

١- أنه لا ينجي من الكرب والشدائد إلا الله .

٢- أن الكفار يعلمون أنه لا ينجي إلا الله ، ولذلك يدعونه في وقت الضراء .

٣- توبيخ هؤلاء الكفار حيث يدعون الله وقت الضراء ثم يشركون وقت الرخاء .

٤- أن من أسباب إجابة الدعاء التضرع والإسرار .

٥- فضل الإخلاص والتوحيد ، وأنه سبب لكل خير .

٦- فضل وعلو منزلة الشكر .

٧- وجوب شكر الله تعالى .

٨- ذم من يرجع إلى طغيانه بعد أن أنجاه الله وأنقذه .

٩- قدرة الله العظيمة بإحلال العذاب بالمشركين وتنوعه .

١٠-رحمة الله بعباده حيث ينوع لهم الآيات ويبينها لعلهم يرجعون .

(**وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)**) .

[الأنعام : ٦٦ – ٦٧] .

(**وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ**) أي : وكذب بهذا القرآن قومك يا محمد – وهم قريش – .

♦ قوله (وَكَذَّبَ بِهِ) أي : بالقرآن ، وهو الصحيح ، وقيل : بالعذاب .

(**وَهُوَ الْحَقُّ**) أي : الذي ليس وراءه حق .

(**قُلْ**) يا محمد لهم :

(**لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ**) أي : لست عليكم بحفيظ ، ولست بموكل بكم ، كقوله (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) أي : إنما عليّ البلاغ ، فمن اتبعني ، سعد في الدنيا والآخرة ، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة .

(**لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ**) أي : لكل خبر مستقر ، يعني : قرار يستقر عنده ، ونهاية ينتهي إليه ، فيتبين حقه وصدقه ، من كذبه وباطله ، كما قال تعالى (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) وقال (للهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) .

(**وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**) مبالغة في الوعيد والتهديد ، أي : وستعلمون ما يحكم بكم من العذاب .

الفوائد :

١- تحريم التكذيب بالقرآن .

٢- وجوب الإيمان بالقرآن .

٣- أن القرآن كله حق ، وما جاء به متضمن للحق الكامل .

٤-أنه ليس النبي إلا البلاغ والبيان .

٥- تهديد لكل مكذب وكافر . (الأحد / ٢٢ / ١٢ / ١٤٣٤هـ)

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)

[الأنعام : ٦٨ – ٦٩] .

(**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا**) أي : بالتكذيب والاستهزاء .

الخوض هو التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله .

(**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**) أي : لا تجالسهم وقم عنهم .

(**حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**) أي : حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه .

والخطاب للنبي ﷺ وأمته تبع له .

- **قال الشوكاني** : الخطاب للنبي ﷺ ، أو لكل من يصلح له.

- **قوله تعالى** (حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) حتى: للغاية، يعني: إلى أن يخوضوا في حديث غيره، وتأتي (حتى) للتعليل مثل قوله تعالى (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا) فهنا (حتى) للتعليل، أي: لا تنفقوا لأجل أن ينفضوا .

- **قال ابن عاشور** : والخوض حقيقته الدخول في الماء مشياً بالرّجْلين دون سباحة ثم استعير للتصرّف الذي فيه كلفة أو عنت، كما استعير التعسّف وهو المشي في الرمل لذلك.واستعير الخوض أيضاً للكلام الذي فيه تكلّف الكذب والباطل لأنَّه يتكلّف له قائله، قال الراغب : وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يُذمّ الشروع فيه، قال تعالى (يخوضون في آياتنا) (نخوض ونلعب) ، (وخضتم كالذي خاضوا) ، (ذرهم في خوضهم يلعبون) .

فمعنى (يخوضون في آياتنا) يتكلّمون فيها بالباطل والاستهزاء.

والخطاب للرسول ﷺ مباشرة وحكم بقية المسلمين كحكمه ، كما قال في ذكر المنافقين في سورة النساء (١٤٠) (فلا تقعدوا معهم حتَّى يخوضوا في حديث غيره) . (تفسير ابن عاشور) .

- فالآية دليل على تحريم الجلوس مع الذين يستهزئون بآيات الله ، وقد قال تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ ..) أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك ، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه .

وقال تعالى (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ) وقال تعالى (وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً) .

وإنما حرم الله الجلوس معهم لأسباب :

أولاً : لأن فيه دلالة على رضاه بفعلهم الشنيع .

ثانياً : أنه ربما يتأثر بما يقولون وينخدع وتقع الشبهة في قلبه (والشبَه خطافة) .

ثالثاً : أنه يكون في حضوره ذريعة لعوام الناس في حضورهم مثل هذه المجالس .

قال : وَسَبَبُ هَذَا النَّهْيِ أَنَّ الْإِقْبَالَ عَلَى الْخَائِضِينَ وَالْقُعُودَ مَعَهُمْ أَقَلُّ مَا فِيهِ أَنَّهُ إِقْرَارٌ لَهُمْ عَلَى خَوْضِهِمْ ، وَإِغْرَاءٌ بِالتَّمَادِي فِيهِ ، وَأَكْبَرُهُ أَنَّهُ رِضَاءٌ بِهِ وَمُشَارَكَةٌ فِيهِ ، وَالْمُشَارَكَةُ فِي الْكُفْرِ وَالِاسْتِهْزَاءِ كُفْرٌ ظَاهِرٌ

◆ **قال الشوكاني** : وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة ، الذين يحرّفون كلام الله ، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويردّون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإن إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقلّ الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير.

وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزّهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة ، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر.

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر ، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه ، وبلغت إليه طاقتنا ، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها ، علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرّمات ، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة ، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان ، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه ، فيعمل بذلك مدّة عمره ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق ، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر.

قال سلام بن أبي مطيع : أن رجلا من أصحاب الأهواء قال لأيوب السختياني : يا أبا بكر أسألك عن كلمة , قال أيوب – وجعل يشير بإصبعه : – ولا نصف كلمة ولا نصف كلمة .

وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى : ولا تشاور صاحب بدعة في دينك , ولا ترافقه في سفرك .

وقال الفضيل : لا تجلس مع صاحب بدعة , فاني أخاف أن ينزل عليك اللعنة .

وقال : احذروا الدخول على أصحاب البدع , فإنهم يصدون عن الحق .

لا تناظر مبتدعا مقيما على بدعته : قال الإمام الشافعي – رحمه الله – : " ما ناظرت أحدا علمت أنه مقيم على بدعة " .

وشرح الإمام البيهقي – رحمه الله – كلام الشافعي بقوله : " وهذا لأن المقيم على بدعته قلما يرجع بالمناظرة عن بدعته ، وإنما كان يناظر من يرجو رجوعه إلى الحق ، إذا بينه له " . " مناقب الشافعي " للبيهقي (١/١٧٤) .

وعن سفيان قال من سمع ببدعة فلا يحكيها لجلسائه لا يلقها في قلوبهم .

قال الذهبي معلقاً على قول سفيان : " أكثر أئمة السلف على هذا التحذير؛ يرون أن القلوب ضعيفة والشبه خطافة .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب .

وقال الأصبهاني رحمه الله :" لا ترى أحدا مال إلى هوى أو بدعة إلاَّ وجدته متحيِّرا؛ ميت القلب؛ ممنوعا من النطق بالحق " .

◆ **وقال ابن عاشور** : والإعراض عنهم هنا هو ترك الجلوس إلى مجالسهم ، وهو مجاز قريب من الحقيقة لأنَّه يلزمه الإعراض الحقيقي غالباً ، فإن هم غشُوا مجلس الرسول عليه السلام فالإعراض عنهم أن يقوم عنهم وعن ابن جريج : فجَعَل إذَا استهزأوا قام فحذِروا وقالوا لا

تستهزءوا فيقومَ.

وفائدة هذا الإعراض زجرهم وقطع الجدال معهم لعلّهم يرجعون عن عنادهم.

(**وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ**) أي : بأن جلست معهم على وجه النسيان والغفلة .

(**فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى**) أي بعد تذكر الأمر بالإعراض كما عليه جمهور المفسرين.

(**مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**) الذين ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها .

◆ **قال ابن عاشور** : والقوم الظالمون هم الذين يخوضون في آيات الله ، فهذا من الإظهار في مقام الإضمار لزيادة فائدة وصفهم بالظلم ، فيعلم أنّ خوضهم في آيات الله ظلم ، فيعلم أنَّه خوض إنكار للحقّ ومكابرة للمشاهدة .

قال الشوكاني : والمعنى : إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد بعد الذكرى إذا ذكرت (مَعَ القوم الظالمين) أي الذين ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها.

قيل : وهذا الخطاب وإن كان ظاهره للنبي ﷺ فالمراد التعريض لأمته لتنزّهه عن أن ينسيه الشيطان.

وقيل : لا وجه لهذا ، فالنسيان جائز عليه كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة " إنما أنا بشر أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني " ونحو ذلك.

◆ **قال ابن عاشور** : فالمعنى إن أنساك الشيطان الإعراض عنهم فإن تذكّرتَ فلا تقعد معهم ، فهذا النسيان ينتقل به الرسول ﷺ من عبادة إلى عبادة، ومن أسلوب في الدّعوة إلى أسلوب آخر، فليس إنساء الشيطان إيَّاه إيقاعاً في معصية إذ لا مفسدة في ارتكاب ذلك ولا يحصل به غرض من كيد الشيطان في الضلال، وقد رفع الله المؤاخذة بالنسيان، ولذلك قال (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) ، أي بعد أن تتذكَّر الأمر بالإعراض.

فالذكرى اسم للتذكّر وهو ضدّ النّسيان ، فهي اسم مصدر ، أي إذا أغفلت بَعد هذا فقعدت إليهم فإذا تذكَّرت فلا تقعد ، وهو ضدّ فأعرض ، وذلك أنّ الأمر بالشيء نهي عن ضدّه.

(**وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْء**) في معنى قوله: (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) وجهين للعلماء:

الأول: أن المعنى: وما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله من حساب الكفار من شيء، وعلى هذا الوجه فلا إشكال في الآية أصلاً .

الوجه الثاني: أن معنى الآية وما على الذين يتقون ما يقع من الكفار في الخوض في آيات الله في مجالستهم لهم من شيء، وعلى هذا القول فهذا الترخيص في مجالسة الكفار للمتقين من المؤمنين كان في أول الإسلام للضرورة ثم نسخ بقوله تعالى: (إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ)، وممن قال بالنسخ فيه مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم كما نقله عنهم ابن كثير.

فظهر أن لا إشكال على كلا القولين. (الشنقيطي) .

قال الشوكاني : أي : ما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله من حساب الكفار من شيء .

◆ فقوله (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ) أي : يتقون ويجتنبون مجالستهم ، **وقيل** (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ) أي : يتقون الخوض معهم وإن جلسوا معهم ، وهذا قول ضعيف لأمرين :

الأمر الأول : لأن الله نهى عن مجالسة الخائضين ، **الأمر الثاني** : ولأن هذا مقتضى إنكار المنكر ، وأقل درجات المنكر الإنكار

بالقلب ، ولا يكون منكراً بالقلب وهو جالس معهم .

(**وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**) أي : ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه ، لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه .

♦ **قال الشنقيطي** : ومعنى قوله تعالى: (وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) على الوجه الأول أنهم إذا اجتنبوا مجالستهم سلموا من الإثم ولكن الأمر باتقاء مجالستهم عند الخوض في الآيات لا يسقط وجوب تذكيرهم ووعظهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لعلهم يتقون الله بسبب ذلك، وعلى الوجه الثاني فالمعنى أن الترخيص في المجالسة لا يسقط التذكير لعلهم يتقون الخوض في آيات الله بالباطل إذا وقعت منكم الذكرى لهم وأما جعل الضمير للمتقين فلا يخفى بعده والعلم عند الله تعالى .

الفوائد :

١- تحريم الجلوس مع الذين يستهزئون بآيات الله وشرعه .

٢- تحريم الجلوس في مكان قيه منكر .

٣- أن الأحكام تدور مع عللها لقوله (.. حتى يخوضوا في حديث غيره) فلما كانوا يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها نهي عن القعود معهم ، ثم أذن لنا بالقعود معهم إذا خاضوا في حديث غيره .

٤- أن المشارك للمنكر كفاعل المنكر لقوله تعالى في الآية الأخرى (فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ) فإذا كان الجالس معهم له حكم الفاعل ، فالمشارك من باب أولى .

٥- تحريم التعاون على الإثم والعدوان .

٦- أن جليس الصالحين مثلهم .

٧- الحذر من جلساء السوء .

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ (٧٠)) .

[الأنعام : ٧٠] .

(**وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً**) أي : دعهم وأعرض عنهم ، وأمهلهم قليلاً ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم .

♦ **قال ابن الجوزي** : وفي اتخاذهم دينهم لعباً ولهواً ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه استهزاؤهم بآيات الله إذا سمعوها.

والثاني : أنهم دانوا بما اشتَهوا ،كما يلهون بما يشتهون.

والثالث : أنهم يحافظون على دينهم إذا اشتَهوا ،كما يلهون إذا اشتَهوا.

قال الفراء: ويقال: إنه ليس من قوم إلا ولهم عيد، فهم يَلْهون في أعيادهم، إلا أمة محمد ﷺ، فإن أعيادهم صلاة وتكبير وبرٌ وخير.

♦ **وقال القرطبي** : ومعنى (لَعِباً وَلَهْوَاً) أي استهزاءً بالدين الذي دعوتهم إليه.

وقيل : استهزءوا بالدين الذي هم عليه فلم يعملوا به.

والاستهزاء ليس مُسَوَّغاً في دين.

- والمراد بتركهم أي بعد إقامة الحجة عليهم .
- **قال الرازي** : اعلم أن هؤلاء هم المذكورون بقوله (الذين يَخُوضُونَ فِي ءاياتنا) ومعنى (ذَرْهُمْ) أعرض عنهم وليس المراد أن يترك إنذارهم لأنه تعالى قال بعده (وَذَكِّرْ بِهِ) ونظيره قوله تعالى (أُولَئِكَ الذين يَعْلَمُ الله مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) والمراد ترك معاشرتهم وملاطفتهم ولا يترك إنذارهم وتخويفهم.

(**وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**) أي : خدعتهم هذه الحياة الفانية حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبداً .

(**وَذَكِّرْ بِهِ**) أي : وذكر الناس بهذا القرآن ، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة .

كما قال تعالى (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) .

وقال تعالى (وذكر بالقرآن من يخاف وعيد) .

وقيل : (وَذَكِّرْ بِهِ) أي بذلك الدين لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكور ، والدين أقرب المذكور ، فوجب عود الضمير إليه.

(**أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ**) أي : لئلا تبسل ، أي : كراهة أن تبسل بما كسبت .

عن ابن عباس ومجاهد : تبسل : تُسلَم ، وقيل : تُفتضح ، وقيل : تُؤاخذ ، وكل هذه العبارات متقاربة في المعنى ، وحاصلها : الإسلام للهلَكَة والحبس عن الخير . أي : يُسلمه للهلكة بتفريطها وإضاعتها حظها من الله وترك العمل الصالح .

(**لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ**) أي : لا قريب ولا أحد يشفع فيها كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ) .

كما قال تعالى (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ) .

قال ابن عاشور : والوليّ : الناصر ، والشفيع : الطالب للعفو عن الجاني لمكانة له عند من بيده العقاب.

(**وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا**) أي : ولو بذلت كل مبذول ما قُبِل منها ، والعدل : الفداء ، فلو تقدم كل فدية ما قبل منها .

قال الشوكاني: والمعنى: وإن بذلت تلك النفس التي سلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها ذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك.

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ) .

(**أُولَئِكَ**) الموصون بما ذكر .

(**الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا**) أي : أولئك الذين أُسْلموا لعذاب الله بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الشنيعة .

(**لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ**) أي : لهم شراب من ماء حار قد انتهى حره ، يشوي الوجوه ، ويقطع أمعاءهم .

كما قال تعالى (وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) وقال تعالى (لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً . إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً) .

قال ابن عاشور : وخصّ الشراب من الحميم من بين بقية أنواع العذاب المذكور من بعد للإشارة إلى أنّهم يعطشون فلا يشربون إلاّ ماء يزيدهم حرارة على حرارة العطش.

(**وَعَذَابٌ أَلِيمٌ**) أي : مؤلم موجع .

(**بِمَا كَانُوا يَكْفُرُون**) أي : بسبب كفرهم .

الفوائد :

١- تهديد للذين اتخذوا دينهم لعباً وكفراً .

٢- تحريم الاستهزاء بدين الله وهو كفر كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ...) .

٣- أن الكفار غرتهم الحياة الدنيا .

٤- يجب على المسلم أن يحذر من الاغترار بالدنيا (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ).

٥- وجوب التبليغ بالقرآن .

٦- أنه في يوم القيامة كل نفس تُجازَى بما كسبت .

٧- أن الله لا يظلم الإنسان شيئاً .

٨- أنه يوم القيامة لا ينفع الإنسان حسب ولا نسب ولا قرابة .

٩- بيان شيء من عذاب أهل النار وهو الشراب من الماء الحار الذي يقطع أمعاءهم .

١٠- أن الكفر سبب للخلود في النار وشدة العذاب . (الثلاثاء : ١٤ / ١٢ / ١٤٣٤ هـ)

(قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢)) .

[النساء : ٧١ — ٧٢] .

(**قُلْ**) لهم يا محمد .

(**أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا**) أي : أن نعبد ما لا ينفعنا إن دعوناه ولا يضرنا إن تركناه ؟ والمراد به الأصنام ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ .

♦ **قال القرطبي** : قوله تعالى (قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُنَا) أي ما لا ينفعنا إن دعوناه ، (وَلاَ يَضُرُّنَا) إن تركناه ؛ يريد الأصنام.

♦ **قال السدي** : قال المشركون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، فأنزل الله (قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا ...)

(**وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا**) أي : في الكفر والضلالة .

(**بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ**) للإيمان .

♦ **قال الآلوسي** : والتعبير عن الرجوع إلى الشرك بالرد على الأعقاب كما قال شيخ الإسلام لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علم في القبح مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر.

(**كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ**) أي : فيكون مثلنا كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته وسارت به في المفاوز والمهالك فألقته في هوّة سحيقة .

(**حَيْرَانَ**) أي : حيراً لا يدري أين يذهب ، والحيران : هو الذي لا يهتدي لجهة .

(**لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا**) أي : وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم ويقولون : ائتنا فإنا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ ، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق ، والطريق هو الإسلام .

(**قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى**) أي : قل لهؤلاء الكفار : إن ما نحن عليه من الإسلام هو الهدى وحده وما عداه ضلال ، كما قال تعالى (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ) وقال تعالى (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) وكما قال تعالى (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

(**وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) أي : نخلص له العبادة وحده لا شريك له .

قال تعالى (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ**) أي استسلم لأمر ربك وأخلص لربك .

- قال بعض العلماء : الإسلام ورد فى القرآن على ثلاثة أوجه :

الأوّل : بمعنى الإخلاص .

قال تعالى (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ) أي أَخلِص.

الثاني : بمعنى الإقرار .

قال تعالى (وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ) أي أَقرّ له العبوديّة.

الثالث : بمعنى الدّين .

قال تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ) . وقال تعالى (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) .

(**قَالَ**) امتثالاً لأمر ربه مبادراً .

(**أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) إخلاصاً وتوحيداً ومحبة وإنابة .

قال بعض العلماء : إنما قال لرب العالمين دون أن يقول أسلمت لك ليكون قد أتى بالإسلام وبدليله .

- من أسباب اصطفاء إبراهيم في الدنيا وعلو منزلته في الآخرة :

سرعة امتثاله لأمر الله عز وجل .

وصبره ، فلما ابتلاه ربه بالكلمات أتمهن ووفى بهن .

وشكره لنعم الله كما قال تعالى (شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

- الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

قال الشيخ : وتربيته تعالى لخلقه نوعان : عامة وخاصة :

فالعامة : هي خلقه للمخلوقين ، ورزقهم ، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا .

والخاصة : تربيته لأوليائه ، فيربيهم بالإيمان ، ويوفقهم له ، ويكملهم ، ويدفع عنهم الصوارف ، والعوائق الحائلة بينهم وبينه ، وحقيقتها : تربية التوفيق لكل خير ، والعصمة من كل شر .

- **العالمين** : اختلف ما المراد بالعالمين على أقوال :

قيل : كل موجود سوى الله ، وهذا قول قتادة ورجحه القرطبي وابن كثير .

وقيل : أهل كل زمان عالم لقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين) أي من الناس .

وقيل : الجن والإنس ، لقوله تعالى (ليكون للعالمين نذيراً) .

وقيل : العالَم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين .

والصحيح الأول ، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ، ودليله قوله تعالى (قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما) .

- **العالمين** : جمع عالَم .

قيل : مأخوذ من العَلامة ، لأنهم عَلمٌ على خالقهِم وصانعهم ، وهذا هو الصحيح .

فإن هذا الخلق في كل فرد منه ، وفي جزء منه ، آية تدل على وحدانية الله وعلى عظمته وعلى انفراده بالملك .

قال الشاعر :

فوا عجباً كيف يُعصى الإلهُ ... أم كيف يجحده الجاحدُ

وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدل على أنه واحدُ

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

وسئل بعض الأعراب عن وجود الله فقال : إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ألا يدل على وجود اللطيف الخبير .

جسمك وروحك فيه من الآيات ما يبهر العقول .

وقيل : مأخوذ من العِلم ، لأن هذا الخلق لا يصدر إلا عن علم ومعرفة بأحوالهم .

- قال بعض العلماء : واعلم أن تربيته تعالى مخالفة لتربية غيره ، وبيانه من وجوه :

الأول : أنه تعالى يربي عبيده لا لغرض نفسه ، وغيره يربون لغرض أنفسهم لا لغرض غيرهم .

الثاني : أن غيره إذا ربى فبقدر تلك التربية يظهر النقصان في خزائنه وفي ماله وهو متعال عن النقصان والضرر ، كما قال تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) .

الثالث : أن غيره من المحسنين إذا ألح الفقير عليه أبغضه وحرمه ومنعه ، والحق تعالى بخلاف ذلك ، كما قال ﷺ : (إن الله تعالى يحب الملحين في الدعاء) .

الرابع : أن غيره من المحسنين ما لم يطلب منه الإحسان لم يعط ، أما الحق تعالى فإنه يعطي قبل السؤال ، ألا ترى أنه رباك حال كنت جنيناً في رحم الأم ، وحال ما كنت جاهلاً غير عاقل ، لا تحسن أن تسأل منه ، ووقاك وأحسن إليك مع أنك ما سألته وما كان لك عقل ولا هداية .

الخامس : أن غيره من المحسنين ينقطع إحسانه إما بسبب الفقر أو الغْيبة أو الموت ، والحق تعالى لا ينقطع إحسانه البتة .

السادس : أن غيره من المحسنين يختص إحسانه بقوم دون قوم ولا يمكنه التعميم ، أما الحق تعالى فقد وصل تربيته وإحسانه إلى الكل

، كما قال : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

فثبت تعالى أنه رب العالمين ومحسن إلى الخلائق أجمعين ، فلهذا قال تعالى في حق نفسه : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

- **العالمين** : تطلق أحياناً ويراد به الإنس والجن :

كما قال تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

وأحياناً تطلق على البشر :

كقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين) .

(**وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ**) أي : وأمرنا بإقامة الصلاة .

ومعنى إقامتها : الإتيان بها على وجه مستقيم بشروطها وأركانها ومستحباتها كما جاء عن رسول الله ﷺ .

- **قال الشيخ السعدي** : لم يقل : يفعلون الصلاة ، أو يأتون الصلاة ، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة ، فإقام الصلاة ، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها ، وإقامتها باطناً بإقامة روحها ، وهو حضور القلب فيها ، وتدبر ما يقوله ويفعله منها .

- لم يأمر الله بالصلاة إلا بلفظ الإقامة ، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة) .

- إقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها، وإنما المراد إقامتها بأدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها ، (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض : وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر .

- قوله تعالى (ويقيمون الصلاة) يشمل صلاة الفرض والنفل .

- قوله تعالى (ويقيمون الصلاة) فيه دليل على أهمية الصلاة وعظيم منزلتها وأنها من أعظم صفات المتقين ، **ومما يدل على عظيم منزلتها** :

أنها فرضت في أعلى مكان (في السماء ليلة الإسراء والمعراج) .

وفرضت خمس صلوات في اليوم والليلة ، وأول ما فرضت خمسين ثم خففت إلى خمس في العدد ، وهذا يدل على محبة الله لها ، وعنايته بها سبحانه .

أن تاركها كافر يحشر مع فرعون وقارون وأبي بن خلف ، وهي أعظم العبادات بعد الشهادتين ، وهي عمود الدين .

(**وَاتَّقُوهُ**) وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

- وهذه الآية فيها الأمر بتقوى الله عز وجل .

وقد جاءت آيات كثيرة تأمر بتقوى الله :

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

- التقوى مأخوذة من الوقاية ، وهي : أن يجعل الإنسان لنفسه وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

وهذا من أجمع التعاريف ، وقد جاء في معناها آثار عدة عن السلف كلها داخلة تحت خذا المعنى .

قال علي : التقوى: الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضى بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقال ابن مسعود : حقيقة تقوى الله : أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

وقال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله .

قال ابن القيم : وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى .

وروي أن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى؟ فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم ، قال : فما عملت ؟ قال: تشمرت وحذرت ، قال : فذاك التقوى .

قال ابن المعتز :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

كن مثل ماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبـــال من الحصى

(**وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**) أي : يوم القيامة . [وقد تقدم ما يتعلق بالحشر] .

(**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ**) أي : وليس عبثاً ، فإن الله منزه عن العبث ، فكل شيء أوجده الله لحكمة ، فالحق ضد الباطل ، فالله خلقهما لحكم باهرة ، لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ولا لعباً

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلاً ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ) .

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ) .

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون) .

فمن الحق الذي كان خلقهما من أجله : إقامة البرهان على أنه الواحد المعبود وحده جلا وعلا .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان ، صفات من يستحق أن يعبد ومن لا يستحق ، قال في صفات من يستحق العبادة (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) .

والآيات في مثل ذلك كثيرة تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق ومن الحق الذي من أجله خلق السموات والأرض ، تعليمه لخلقه أنه تعالى على كل شيء قدير ، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عِلْماً) .

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما: هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً ثم جزاؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء ، هددهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيئ فقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) ، وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً ، فقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) . فقوله تعالى (فَتَعَالَى اللَّهُ) أي: تنزه وتعاظم وتقدس عن أن يكون خلقهم لا لحكمة.

(**وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ**) قال ابن كثير : يعني يوم القيامة ، الذي يقول الله : كن فيكون عن أمره كلمح البصر أو أقرب ، كما قال تعالى (وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) يعني أن فعله سبحانه وتعالى للشيء يكون بعد قوله (كن) من غير تأخر ، لأنه ليس أمراً شاقاً .

(**قَوْلُهُ الْحَقُّ**) أي : الصدق الواقع لا محالة .

وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) أي : وله الملك يوم القيامة الذي فيه نفخ الصور كقوله تعالى (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) ، وقوله تعالى (والأمر يومئذ لله) .

- والمراد بالنفخة هذه النفخة الثانية وهي نفخة البعث والإحياء .

قال السعدي : خصه بالذكر – مع أنه مالك كل شيء – لأنه تنقطع فيه الأملاك ، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار .

- وفي الآية إثبات النفخ في الصور ، والنفخ في الصور ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

من الكتاب قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) .

وقال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ).

وقال تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً) .

وقال تعالى : (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ) .

ومن السنة :

عن عبد الله بن عمرو قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : ما الصور ؟ قال : (قرن ينفخ فيه) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : (ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً ، ثم لا يبقى أحد إلا صعق ... ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .

وأجمع المسلمون على ثبوته .

- **النافخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام** .

أجمع العلماء أن الذي موكل بنفخ الصور هو إسرافيل .

- **عدد النفخات** :

اختلف العلماء في عدد النفخات على قولين :

القول الأول : أنها نفختان : نفخة الصعق ونفخة البعث .

ويدل لهذا قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) .

وقال تعالى : (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) .

فقوله تعالى : (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ) . هذه النفخة الأولى .

وقوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) هذه هي النفخة الثانية .

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : (ما بين النفختين أربعون) قالوا : يا أبى هريرة: أربعين يوماً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون سنة : قال : أبيت) . متفق عليه

القول الثاني : أنها ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث .

واحتجوا : في قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) وهذه نفخة الفزع .

وقوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ ...) هذه نفخة الصعق .

وقوله تعالى : (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) هذه نفخة البعث .

قالوا : إن الفزع مغاير للصعق .

- **صاحب الصور مستعد للنفخ** .

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله (كيف أنعم ، وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ ، فينفخ) رواه الترمذي .

(**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**) قال الطبري : عالم ما تعاينون – أيها الناس – فتشاهدونه ، وما يغيب عن حواسكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه .عن العباد وما يشاهدونه ، لا يغيب عن علمه شيء .

قال البغوي : يعني يعلم ما غاب .

(**وَهُوَ الْحَكِيمُ**) : قال ابن جرير : هو الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل ، وقال ابن كثير : الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله .

والحكيم : اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة البالغة ، فأوامره وأحكامه وأفعاله كلها لحكمة .

(**الْخَبِيرُ**) اسم من أسماء الله ، ومعناه العليم ببواطن الأمور .

- وفي الآية يجب على الإنسان أن يحذر من كتم النفاق أو الحسد أو غيرها من أمراض القلوب، لأن الله مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية .

الفوائد :

١- توبيخ هؤلاء الذين يعبدون ما لا ينفع ولا يضر .

٢-وجوب عبادة الله ، لأنه هو النافع الضار .

٣-ذم الارتداد بعد الهداية .

٤-أن من يعبد غير الله يكون في حيرة وقلق واضطراب .

٥- وجوب الاستسلام والإخلاص لله تعالى .

٦- إثبات ربوبية الله تعالى .

٧- وجوب إقامة الله .

٨- وجوب تقوى الله .

٩- إثبات الحشر .

١٠-أن الله خلق الخلق بالحق ولحكمة .

١١- تنزيه الله عن العبث .

١٢- عموم ملك الله تعالى .

١٣- إثبات النفخ في الصور .

١٤- عموم علم الله تعالى .

١٥- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الحكيم والخبير . (الخميس / ١٨ / ١ / ١٤٣٤هـ)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)) .

[الأنعام : ٧٤- ٧٩] .

(**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ**) أي : واذكر يا محمد لقومك حين قال إبراهيم لأبيه آزر منكراً عليه .

- وهذه الآية نص على أن اسم والد إبراهيم هو آزر .

اختلف العلماء في اسم والد خليل الله إبراهيم عليه السلام ،على قولين :

القول الأول : اسمه (تارح)، أو (تارخ) .

وهو قول أكثر العلماء والمفسرين ، بل قال الزجاج : لا خــلاف بين النسابين في أن اسم أبي إبراهيم تارح .

وقد اعترض الإمام القرطبي على نقل الإجماع بإثبات وجود الخلاف .

وقال ابن كثير رحمه الله : جمهور أهل النسب – منهم ابن عباس – على أن اسم أبيه تارح ، وأهل الكتاب يقولون تارخ .

(البداية والنهاية) .

وقد ورد ذلك في صريح كلام ابن عباس : كما عند ابن أبي حاتم في " التفسير " (١٣٢٤/٤-١٣٢٥) بإسنادين عنه .

وصريح كلام مجاهد أيضاً : كما في " جامع البيان " للطبري (٤٦٦/١١).

وصريح كلام ابن جريج : أخرجه ابن المنذر بسند صحيح كما قال السيوطي في " الدر المنثور " (٣٠٠/٣)، وفي " الحاوي " (٢٥٩/٢)

ومع شهرة هذا القول ، فلا نعلم له أصلاً من كتاب الله ، أو السنة الصحيحة ، ولعل عمدة من قاله من أهل العلم أحاديث أهل الكتاب ، وأقوال النسابين الذين يستقون منهم .

ويبقى السؤال – بناء على هذا القول – ما المقصود بـ (آزر) إذن في الآية الكريمة : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

فنقول ، اختلفوا في توجيه الآية إلى أقوال كثيرة :

قال بعض المفسرين : إن لوالد إبراهيم عليه السلام اسمين ، آزر ، و (تارح) .

وقال كثير من المفسرين إن أبا إبراهيم اسمه بالسريانية تارح وبغيرها آزر .

وصرح بعضهم بأن (آزر) اسم صنم ، كما قال مجاهد : آزر لم يكن بأبيه ، إنما هو صنم .

وقال آخرون : هو سبٌّ وعيب بكلامهم ، ومعناه : معــوَجٌّ ، كأنه تأوّل أنه عابه بزَيْغه واعوجاجه عن الحق . وجوز الطبري رحمه الله أيضاً أن يكون (آزر) لقبا لوالد إبراهيم ، وليس اسماً . ذكر ذلك في " جامع البيان " .

إلى آخر التأويلات والتخريجات التي لا يقوم عليها دليل .

القول الثاني : اسمه (آزر) ، أخذاً بظاهر الآية الكريمة (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

وبظاهر الحديث الشريف الذي يرويه الإمام البخاري رحمه الله : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ : (يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي ؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ : فَالْيَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ . فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ : يَا رَبِّ ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، فَأَي خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ ؟! فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ) .

وأشهر من قال بهذا القول إمام المغازي والسير: محمد بن إسحاق ، كما روى ذلك عنه ابن جرير الطبري بسنده .

واختاره الإمام الطبري فقال : أولى القولين بالصواب منهما عندي قولُ من قال : هو اسم أبيه ؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر أنه أبوه ، وهو القول المحفوظ من قول أهل العلم ، دون القول الآخر الذي زعم قائلُه أنه نعتٌ .

قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله – في تعليقه على تأويلات القول الأول: هذه الأقوال وغيرها مما ذهب إليه بعض المفسرين لا تستند إلى دليل ، وأقوال النسابين لا ثقة بها ، وما في الكتب السالفة ليس حجة على القرآن ، فهو الحجة ، وهو المهيمن على غيره من الكتب ، والصحيح أن آزر هو الاسم العَلَم لأبي إبراهيم كما سماه الله في كتابه .

(**أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً**) أي : أتتأله لصنم تعبده من دون الله .

(**إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ**) أي : السالكين مسلكك .

(**فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**) أي : في ذهاب عن الحق ، تائهين لا يهتدون أين يسلكون ، بل في حيرة وجهل وأمركم في الجهالة والضلال بيّن واضح لكل ذي عقل صحيح .

قال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً . يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً . يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً . يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً . قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً . قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً) .

وقال تعالى (وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) .

فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته ، فلما مات الشرك وتبين إبراهيم ذلك ، رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه ، كما قال تعالى (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) .

وثبت في الصحيح : أن إبراهيم يلقى آباه آزر يوم القيامة فيقول له أبوه : يا بني ، اليوم لا أعصيك ؟ فيقول إبراهيم : أي رب ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقال : يا إبراهيم ! انظر ما وراءك ، فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى في النار .

- مناظرة أهل الباطل : فإبراهيم عليه السلام ناظر في إثبات التوحيد وإبطال القول بالشركاء والأنداد في مقامات كثيرة.

فالمقام الأول : في هذا الباب مناظراته مع أبيه حيث قال له (يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً) .

والمقام الثاني : مناظرته مع قومه وهو قوله (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل) .

والمقام الثالث : مناظرته مع ملك زمانه ، فقال (رَبِّيَ الذى يُحْيِي وَيُمِيتُ) .

والمقام الرابع : مناظرته مع الكفارة بالفعل ، وهو قوله تعالى (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ) ثم إن القوم قالوا : (حَرّقُوهُ وانصروا ءالِهَتَكُمْ) ثم إنه عليه السلام بعد هذه الواقعة بذل ولده فقال (إِنّى أرى فِى المنام أَنّى أَذْبَحُكَ) فعند هذا ثبت أن إبراهيم عليه السلام كان من الفتيان ، لأنه سلم قلبه للعرفان ولسانه للبرهان وبدنه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان .

- قال الرازي : قوله تعالى (أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً) اشتمل كلام إبراهيم عليه السلام في هذه الآية على ذكر الحجة العقلية على فساد قول عبدة الأصنام من وجهين :

الأول : أن قوله : (أتتخذ أصناماً آلهة) يدل على أنهم كانوا يقولون بكثرة الآلهة ؛ إلا أن القول بكثرة الآلهة باطل بالدليل العقلي الذي فهم من قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا الِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا) .

والثاني : أن هذه الأصنام لو حصلت لها قدرة على الخير والشر لكان الصنم الواحد كافياً ، فلما لم يكن الواحد كافياً دل ذلك على أنها وإن كثرت فلا نفع فيها ألبتة.

- **قال ابن عطية** : وهذه الآية احتجاج على مشركي العرب بأحوال إبراهيم ومحاجته لأبيه وقومه لأنهم كانوا يعظمون إبراهيم ﷺ ويعترفون بفضله فلا جرم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه في معرض الاحتجاج على المشركين.

(**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) قال ابن كثير : أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقهِ ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كقوله (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقوله (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

وقال الطبري : أنه أراه ملك السماوات والأرض ، وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب وغير ذلك من

عظيم سلطانه فيهما ، وجلّى له بواطن الأمور وظواهرها .

♦ فالمراد أراه غرائب صنع الله فيهما وعجائبه ، حيث جعل السماء سقفاً محفوظاً ، تمر عليه آلاف السنين لا يتفطر ولا يتشقق ولا يحتاج إلى ترميم ، مرفوعاً على غير عمد (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) .

وكذلك الأرض وما أودع الله فيها من غرائب صنعه وعجائبه ، من أنواع الثمار والجبال وألوانها والحيوانات والناس واختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وما أودع فيها من المنافع والمعادن والثمار .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المعنى : أنه شقت له السماء إلى العرش ، وشقت له الأرضون إلى السفلى وغير ذلك مما ذكره بعض المفسرين لكنه قول ضعيف .

♦ وقوله (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ..) الرؤية البصرية .

(**وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**) أي : ونريه ذلك ليكون عالماً موقناً ، وقيل (الوا) زائدة والتقدير : وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين ، واليقين : هو العلم الذي لا تتطرقه الشكوك ولا الأوهام .

قال ابن جرير : يعني أنه أراه ملكوت السماوات والأرض ، ليكون ممن يقر بتوحيد الله ، ويعلم حقيقة ما هداه له ، وبصّره إياه ، من معرفة وحدانيته ، وما عليه قومه من الضلالة من عبادتهم الأصنام واتخاذهم إياها آلهة دون الله .

(**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ**) أي : تغشاه وستره .

(**رَأَى كَوْكَباً**) أي : نجماً ، أي رآه بعينه ، وعلماء التفسير يقولون : إن ذلك الكوكب الذي رآه هو الكوكب المسمى بالزهرة ، وهذا من الإسرائيليات ، وغاية ما دل عليه القرآن أنه رأى نجماً كبيراً .

(**قَالَ هَذَا رَبِّي**) قال السعدي : أي على وجه التنزيل مع الخصم ، أي : هذا ربي ، فهلم ننظر ، هل يستحق الربوبية ؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك ؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان .

(**فَلَمَّا أَفَلَ**) **أي** : غاب .

(**قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ**) أي: لا أحب عبادة من كان يتغير ويزول، لأنه لا يمكن أن يكون هو المدبر لشؤون هذا العالم، فمن يتصف بصفة الأفول والغيبوبة والسقوط لا يحب عبادته، لأنه ليس متصفاً بصفات الرب، لأن صفات الرب العظمة والقدرة الكاملة.

(**فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً**) أي : طالعاً .

(**قَالَ هَذَا رَبِّي**) تقدم .

(**فَلَمَّا أَفَلَ**) أي : غاب .

(**قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**) أي : قال إبراهيم لما غاب القمر ، لئن لم يثبتني ربي على الهدى لأكونن من القوم الضالين ، وفي هذا تعريض لقومه بأنهم على ضلال .

(**فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي**) أي : هذا المنير الطالع ربي .

(**هَذَا أَكْبَرُ**) أي : جرماً من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة .

(**فَلَمَّا أَفَلَتْ**) أي : غابت .

(**قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**) أي : أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن .

(**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ**) أي : أخلصت ديني وأفردت عبادتي .

(**لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**) أي: خلقهُما وابتدعَهُمَا على غير مثال سابق، الذي هو الخالق الرازق القادر النافع الضار .

♦ وقوله (لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) ولم يقل : لله ، لسببين :

السبب الأول : الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة ، لأنه كما أنه متفرد بالخلق ، فيجب أن ينفرد بالعبادة .

السبب الثاني : الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام ، ولأنها لم تفطركم حتى تعبدوها .

♦ فالعلامة التي يستحق بها العبادة هو الخلق والبروز من العدم إلى الوجود ، فمن يبرز من العدم إلى الوجود هو ربك الذي يستحق أن يعبد .

قال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) .

(**حَنِيفاً**) أي : في حال كوني حنيفاً : أي : مائلاً عن الشرك إلى التوحيد .

(**وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) تأكيد .

♦ وقد اختلف المفسرون في هذا المقام هل كان إبراهيم في مقام نظر أو مناظرة على قولين :

القول الأول : أنه كان في مقام نظر .

واختاره ابن جرير ونقله عن ابن عباس .

وأن إبراهيم قال ذلك قبل أن يتيقن الدليل ، يظن أن الكوكب ربه ، واستدلوا عليه بقوله (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) فهذا يدل على أنه قال هذا قبل أن يتيقن الحقيقة .

القول الثاني : أنه كان في مقام مناظرة ورجحه ابن كثير ، والشنقيطي .

قال ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ... فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه: أن النجم لا يصلح للألوهية، لأنها — أي الزهرة - مسخرة مقدرة بسير معّين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هي جرم من الأجرام خلقها مُنيرة ، لما له في ذلك من الحكم العظيمة ، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب ، حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال ، ومثل هذه لا تصلح للإلهية ، ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما تقدم في النجم ، ثم انتقل إلى الشمس كذلك ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة ، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، ثبت وبيّن لهم بالحجة والدليل أن الله هو المستحق للعبادة والطاعة .

وكيف يجوز أن يكون إبراهيم في هذا المقام ناظراً وهو الذي قال الله فيه (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ... ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ، وهذا يعتبر من أصرح الأدلة ، حيث أن الله نفى عنه الشرك في ماضي الزمن مطلقاً .

ومما يدل على ذلك أن الله ذكر أنه قال هذا في سبيل المناظرة والمحاجة لا في سبيل النظر بنفسه حيث قال (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ) وقال

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (قال هذا ربي) فيه ثلاثة أقوال.

أحدها : أنه على ظاهره ، روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال : هذا ربي، فعبده حتى غاب، وعبد القمر حتى غاب، وعبد الشمس حتى غابت .

واحتج أرباب هذا القول بقوله (لئن لم يهدني ربي) وهذا يدل على نوع تحيير .

قالوا : وإنما قال هذا في حال طفولته على ما سبق إلى وهمه ، قبل أن يثبت عنده دليل.

وهذا القول لا يرتضى ، والمتأهِلّون للنبوة محفوظون من مثل هذا على كل حال.

فأما قوله (لئن لم يهدني ربي) فما زال الأنبياء يسألون الهدى ، ويتضرعون في دفع الضلال عنهم ، كقوله (واجنبني وبَنِيَّ أن نعبد الأصنام) ولأنه قد آتاه رشده من قبل ، وأراه ملكوت السموات والأرض ليكون موقناً ، فكيف لا يعصمه عن مثل هذا التحيير؟!

والثاني : أنه قال ذلك استدراجاً للحجة ، ليعيب آلهتهم ويريهم بغضها عند أفولها ، ولا بد أن يضمر في نفسه : إما على زعمكم ، أو فيما تظنون ، فيكون كقوله (اين شركائي) ... ويكون مراده : استدراج الحجة عليهم ، كما نقل عن بعض الحكماء أنه نزل بقوم يعبدون صنماً ، فأظهر تعظيمه ، فأكرموه ، وصدروا عن رأيه ، فدهمهم عدو ، فشاورهم ملِكهم ، فقال : ندعو إلهنا ليكشف ما بنا ، فاجتمعوا يدعونه ، فلم ينفع ، فقال : هاهنا إله ندعوه ، فيستجيب ، فدعَوُا الله ، فصرف عنهم ما يحذرون ، وأسلموا .

والثالث : أنه قال مستفهما ، تقديره : أهذا ربي؟ فأضمرت ألف الاستفهام ، كقوله (أفان مت ، فهم الخالدون) .

- **صفات إبراهيم عليه السلام :**

الصفة الأولى : أمة .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ..)

قيل معناها هنا : الرجل الجامع لخصال الخير حتى يقوم مقام أمة من الناس ، وهذا هو المقصود في حق إبراهيم ، وهذه تدلنا على عظيم ما كان يتصف به إبراهيم من عبادة ودعوة وخلق .

وقيل أن المقصود بالأمة هنا : أي الإمام ، أي قدوة يقتدى به في الخير ، وممن قال به ابن جرير الطبري وابن كثير .

الصفة الثانية : قانت .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً) .

والقنوت : لزوم الطاعة مع الخضوع .

الصفة الثالثة : حنيفاً .

والحَنَف : الميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والحنيفُ : المائل والجنف : ضده .

والأحنف : مَنْ في رجله ميل سمي بذلك تفاؤلاً ، وقيل لمجرد الميل .

قال ابن كثير : الحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد .

وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عُدَّ إمام الحنفاء الموحدين ، قال تعالى : [وَلَمْ يَكُ مِنَ المشْرِكِينَ]، وقال : [وَمَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ]، وهكذا فليكن أولياء الله .

الصفة الرابعة : شاكر .

قال تعالى (**شَاكِراً لأَنْعُمِهِ**) أي قائماً بشكر نعم الله عليه .

نعمة الله على لسان عبده : ثناء واعترافاً ، وعلى قلبه : شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه : انقياداً وطاعة .

بالقلب ، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) .

وباللسان ، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

وبالجوارح ، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

الصفة الخامسة : الحلم .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ) .

والحلم : ضبط النفس والطبع عن الهيجان عند الاستثارة .

والحليم : الكثير الحلم وموقف إبراهيم من مقالة أبيه (لأَرْجُمَنَّكَ) .

ومن العتاة قوم لوط حينما مرت به الملائكة وأخبرته بما أمرت بها قال (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ) .

ولم يكن حلم إبراهيم ذريعة يتذرع للسكوت عن المنكر بل كان يعلن الحق وينكر الباطل (وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) .

الصفة السادسة : أوّاه .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ) .

والذي يتحقق من معنى الأوّاه أنه الخاشع الدعّاء المتضرع ، وكثرة تأوّه إبراهيم وتضرعه بين يدي ربه قد ذكرت في آيات كثيرة تدل على تحقيق إبراهيم (رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ) وجدير بمن سلك طريق الدعوة أن يجعل تعجيل الإنابة من أبرز سماته ليكسب عون ربه وتسديده ومحبته .

الصفة السابعة : السخاء .

قال تعالى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ) .

فذكر أن الضيف مكرمون لإكرام إبراهيم لهم ، ولم يذكر استئذانهم ليدل على أنه قد عرف بإكرام الضيفان ، مع أنهم قوم منكرون لا يعرفهم فقد ذبح لهم عجلاً واستسمنه ، ولم يعلمهم بذلك بل راح : أي ذهب خفية حتى لا يُشعر به ، تجاوباً لضيافة ، فدل على أن ذلك كان معداً عندهم مهيئاً للضيفان ، وخدمهم بنفسه، فجاء به ومرّ به إليهم ولم يقربهم إليه، وتلطف مبالغة في الإكرام فقال (أَلا تَأْكُلُونَ) .

الصفة الثامنة : الصبر .

كان إبراهيم مثلاً يحتذى في الصبر حتى استحق أن يكون من أولي العزم الذين أمر رسولنا ﷺ أن يصبر كصبرهم (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) .

وكان صبر إبراهيم شاملاً لابتلاءات كثيرة ، سيأتي بيان جملة منها بإذن الله .

الصفة التاسعة : شجاعته .

واجه إبراهيم قومه ولم يخش كيدهم وقال مقسماً (وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) وقوله لهم (أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ...) .

الصفة العاشرة : تحقيقه الكامل لعقيدة الولاء والبراء .

قال تعالى (وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وقَوْمِهِ إنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إلاَّ الَذِي فَطَرَنِي فَإنَّهُ سَيَهْدِينِ) .

فكل عدو لله وإن قربه النسب تجب البراءة منه ، وكل ولي لله وإن باعدت به الأوطان والأزمان تجب موالاته ومحبته وقد أمرنا أن نتأسى بإبراهيم في ذلك (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبْرَاهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ومِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وحْدَهُ ...) .

الصفة الحادية عشرة : سلامة القلب .

قال تعالى (وإنَّ مِن شِيعَتِهِ لإبْرَاهِيمَ * إذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) .

وسلامة القلب نوعان : كلاهما داخل في مضمون الآية ، **أحدهما** : في حق الله وهو سلامة قلبه من الشرك ، وإخلاصه العبودية لله ، وصدق التوكل عليه .

والثاني : في حق المخلوقين بالنصح لهم وإيصال الخير إليهم ، وسلامة القلب من الحقد والحسد وسوء الظن والكبر وغير ذلك .

الفوائد :

١- الإنكار على من عبد غير الله .

٢- دعوة إبراهيم عليه الصلاة إلى التوحيد ونبذ الشرك .

٣- قوة إبراهيم في الحق .

٤- أنه لا يجوز موالاة من أشرك بالله ولو كان أقرب قريب . (لا تجد قوماً ...) .

٥-أنه يجب على الداعية أن يبدأ بالتوحيد والتحذير من الشرك .

٦- عناية الله بإبراهيم .

٧-فضل منزلة اليقين . (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤) [السجدة : ٢٤]

٨- مناظرة أهل الشرك والفساد ، وإبطال دعواهم .

٩- وجوب البراءة من الشرك وأهله .

١٠- وجوب الاستسلام لله وحده .

١١- أن الذي خلق السماوات والأرض هو المستحق للعبادة . (الأحد / ٢١ / ١ / ١٤٣٤هـ)

(وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)) الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)) .

[الأنعام : ٨٠ – ٨٢] .

(**وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ**) أي : جادلوه وناظروه في شأن التوحيد ، قال ابن عباس : جادلوه في آلهتهم وخوّفوه بها ، فأجابهم إبراهيم عليه السلام منكراً عليهم :

(**قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ**) أي : في كونه لا شريك له ولا ندّ ولا ضد .

(**وَقَدْ هَدَانِ**) إلى توحيده وأنتم تريدون أن أكون مثلكم في الضلالة والجهالة وعدم الهداية .

وقد ذكرت حججهم في مواضع في القرآن ، منها قوله في سورة الأنبياء (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين إلى قوله وأنا على ذلكم من الشاهدين) .

وقوله في سورة الشعراء (قال هل يَسْمعونكم إذْ تدعون أو ينفعونكم أو يضُرّون الآيات) .

وفي سورة الصافات (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون إلى قوله فجعلناهم الأسفلين) .

وكلّها محاجّة حقيقيّة، ويدخل في المحاجّة ما ليس بحجّة ولكنّه ممّا يرونه حججاً بأن خوّفُوه غضب آلهتهم، كما يدلّ عليه قوله: ولا أخاف ما تشركون به) .

والتقدير : وحاجّه قومه فقالوا : كيت وكيت.

(**وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ**) قال لهم ذلك : لما خوّفوه من آلهتهم بأنها ستغضب عليه وتصيبه بمكروه ، أي : إني لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات الله لا يضر ولا ينفع .

◆ والضمير في قوله (به) عائد إلى الله .

(**إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً**) الاستثناء هنا منقطع : أي : لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل والمعنى : أخبرهم أنه لا يخاف من آلهتهم أن تلحق به ضرراً من موت أو ضرر ، إلا أن يشاء ربي ضرراً يقع بي فيقع ، فالأمر إليه ، وذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة .

◆ **قال الشنقيطي رحمه الله** : وذهب قوم وزعموا أن الاستثناء متصل ، وقالوا : لا أخاف من معبوداتكم إلا أن يشاء الله أن يجعل لي منها ضرراً ، كأن يُسقط عليّ قطعة من القمر الذي تعبدون ، أو من الشمس الذي تعبدون ، وأن يخلق في الحجارة عقولاً وقوة تبطش بي بها ، وهذا كله خلاف التحقيق .

(**وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً**) أي : أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية .

(**أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ**) أي : فيما بينته لكم فتعتبرون أن هذه الآلهة باطلة ، فتنزجروا عن عبادتها ؟

◆ **قال الطبري** : أي : أفلا تعتبرون ؟ أيها الجهلة ، فتعقلوا خطأ ما أنتم عليه مقيمون ، من عبادتكم صورة مصوّرة وخشبة منحوتة لا تقدر على ضر ولا على نفع ، ولا تفقه شيئاً ولا تعقله ، وتركِكم عبادة من خلقكم وخلق كله شيء ، وبيده الخير ، وله القدرة على كل شيء والعالم بكل شيء .

◆ وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد ، فيما قص عنهم في كتابه حيث يقول (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

(**وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ**) أي : كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدون من دون الله ، التي لا تضر ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق .

وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار، كيف أخاف هذه الجمادات التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم لا تخافون جبار السماوات والأرض .

قال الرازي : لأن الخوف إنما يحصل ممن يقدر على النفع والضر ، والأصنام جمادات لا تقدر ولا قدرة لها على النفع والضر ، فكيف يحصل الخوف منها ؟

(**وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً**) أي : والحال أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك بالله ، وهو الضار النافع الخالق الرازق ، بدون حجة ولا سلطان .

كما قال تعالى (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) .

وقال تعالى (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) .

- **قال أبو حيان** : استفهام معناه التعجب والإنكار كأنه تعجب من فساد عقولهم حيث خوفوه خشباً وحجارة لا تضر ولا تنفع ، وهم لا يخافون عقبى شركهم بالله وهو الذي بيده النفع والضر والأمر كله .

(**فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**) المراد بالفريقين فريق المؤمنين وفريق المشركين ، أي : أيّنا أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة أنحن وقد عرفنا الله بأدلة وخصصناه بالعبادة أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتم بالواحد الديّان ؟

- قال الله تعالى قاضياً بينهم ومبيناً لهم :

(**الَّذِينَ آمَنُوا**) أي : وحدوا الله ، وأخلصوا له العبادة ، وآمنوا أن إلههم الحق .

(**وَلَمْ يَلْبِسُوا**) لم يخلطوا ، ولبس الشيء بالشيء : تغطيته به ، وإحاطته به من جميع جهاته .

(**إِيمَانَهُمْ**) توحيدهم .

(**بِظُلْمٍ**) المراد بالظلم هنا الشرك .

ولذلك روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : (لما نزلت هذه الآية : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) .قلنا يا رسول الله ، أينا لا يظلم نفسه ، فقال ﷺ (ليس الأمر كما تظنون ، إنما المراد به الشرك ، ألم تسمعوا إلى قول الرجل الصالح : إن الشرك لظلم عظيم) متفق عليه

قال شيخ الإسلام : الذي شق عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد لنفسه ، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه ، فبين لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلمٌ في كتاب الله ، وحينئذٍ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبسوا إيمانهم بظلم .

- وقد تقدم أن الظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الشرك .

وهو أعظم الظلم وأشده .

كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) أي : من المشركين .

قال ابن رجب : فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق ، فعبده وتأله ، فوضع الأشياء في غير موضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن

من وعيد الظالمين ، إنما أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

والثاني : ظلم العبد نفسه بالمعاصي .

كما قال تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ).

والثالث : ظلم العبد لغيره .

كما في الحديث (قال الله تعالى : إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) رواه مسلم .

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) متفق عليه .

وعن ابن عمر . قال : قال ﷺ (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه .

(**أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**) أي : هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك ، له ، ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون في الدنيا والآخرة.

- قيل : (لهم الأمن) أي في الآخرة ، (وهم مهتدون) أي في الدنيا ، **وقيل** (لهم الأمن) أي الأمن الكامل إذا لم يأتوا بكبيرة (وهم مهتدون) أي في الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل وفي الآخرة إلى الجنة .
- قوله تعالى (لهم الأمن) هل أمن كامل أم لا ؟

نقول : إن كان إيمانه كاملاً وسليماً من المعاصي فله الأمن الكامل ، وأما إذا سلم من الشرك الأكبر ولم يسلم من الشرك الأصغر وبعض الذنوب ، فهدايته وأمنه ليس كاملاً .

مثال ذلك : مرتكب الكبيرة آمن من الخلود في النار ، وغير آمن من العذاب ، بل هو تحت المشيئة .

وأما من وافى الله محققاً للتوحيد ، فإنه آمن أمناً مطلقاً ، آمن من الخلود في النار ، وآمن من العذاب .

قال شيخ الإسلام : فمن سلم من أجناس الظلم الثلاث ، يعني الظلم الذي هو الشرك ، وظلم العباد ، وظلمه لنفسه بما دون الشرك ، كان له الأمن التام والاهتداء التام) .

قال السعدي : قوله تعالى (لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } الأمن من المخاوفِ والعذاب والشقاء ، والهدايةُ إلى الصراط المستقيم ، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقا ، لا بشرك ، ولا بمعاص ، حصل لهم الأمن التام ، والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ، ولكنهم يعملون السيئات ، حصل لهم أصل الهداية ، وأصل الأمن ، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة ، أن الذين لم يحصل لهم الأمران ، لم يحصل لهم هداية ، ولا أمن ، بل حظهم الضلال والشقاء.

- والقاعدة : الحكم إذا علق بوصف ، فإنه يزيد بزيادته وينقص بنقصانه ، فمن جاء بالإيمان الكامل فله الهدى والأمن الكامل ، وإذا كان ناقصاً نقص بقدر ما نقص من الإيمان .
- فضائل التوحيد :

أولاً : أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة .

لأن الموَحِّد يعمل لله سبحانه وتعالى ، وعليه فهو يعمل سراً وعلانية ، أما غير الموحد كالمرائي مثلاً ، فإنه يتصدق ويصلي ويذكر الله إذا كان عنده من يراه فقط ، ولهذا قال بعض السلف : (إني لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو) .

ثانياً : أن الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون .

كما قال تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

ثالثاً : أن التوحيد يكفر الذنوب .

عن أنس ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (قال الله تعالى : يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة) . رواه الترمذي

لأن حسنة التوحيد عظيمة تكفر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئاً .

رابعاً : التوحيد سبب لدخول الجنة .

قال ﷺ (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة) رواه مسلم .

وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسولُه، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل). متفق عليه

خامساً : أنه سبب لدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب .

لحديث ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ... فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ... ثم قال : هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) متفق عليه .

سادساً : أن الله أثنى على الأنبياء بتوحيدهم وسلامتهم من الشرك .

قال تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى (والذين هم بربهم لا يشركون) .

سابعاً : أن التوحيد سبب للنجاة من عذاب الله .

لحديث الباب في رواية (هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُم) .

ثامناً : أن الموحد حرام عليه النار .

عن عِتبان . قال : قال رسول الله ﷺ (فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).

وهذا من فضل التوحيد أنه يحرم صاحبه على النار .

تاسعاً : والتوحيد أفضل ما نطق به الناطقون .

كما قال النبي ﷺ(أفضل الذكر لا اله إلا الله).

ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضلَ الكلام وأعظمَه، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي (اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ...) .

عاشراً : الموحد أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ .

ففي الصحيح أن أبا هريرة قال له (أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة) قال: (من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه).

قال ابن تيمية: ومن تدبر أحوال العالم وجد كلَّ صلاح في الأرض سببه توحيدُ الله وعبادتُه وطاعةُ رسوله، وكلَّ شرٍ في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليطِ عدو وغيرِ ذلك سببه مخالفة الرسول، والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عموما وخصوصا، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

- وتحريم التوحيد لأهله على النار نوعان :

أحدهما : تحريم دخول ، وهذا حظ من كمُل توحيده .

والآخر : تحريم خلود ، وهذا حظ من استحق التطهير بالنار من أهل التوحيد ، فيدخلها ثم يُخرج منها ويُدخل الجنة فلا يخلد في النار أبداً .

- وتحقيق التوحيد يحصل بالسلامة مما يضاد أصله أو كماله ، ومضادات التوحيد ترجع إلى ثلاثة أصول .

الأول : الشرك .

والثاني : البدعة .

والثالث : المعصية .

فالشرك ينافي التوحيد بالكلية ، والبدعة تنافي كماله الواجب ، والمعصية تقدح فيه وتنقص ثوابَه .

فيكون تحقيق التوحيد : هو السلامة من الشرك والبدعة والمعصية .

والمراد بالسلامة من المعصية هو المبالغة في شدة اجتنابها ، لأن العبد كتب عليه حظه منها (يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ...) .

- وينقسم تحقيق التوحيد إلى قسمين باعتبار الحكم :

الأول : تحقيق واجب : وهو تخليصه من الشرك والبدع والمعاصي، وهذا يجب على المكلف أن يسعى فيه، والدليل على هذا التحقيق هو الآية الأولى، والآية الثانية في الباب .

والثاني : تحقيق مستحب : وهو تخليص القلب من التعلق بالمخلوقين وسؤال ما فيه مذلة أو منة .

وهذا دليله الحديث حديث ابن عباس (لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)، وحكم هذا التحقيق مستحب.

وضابطه : أن يترك استعطاف الناس وسؤالهم الأمور المباحة. فتترك الحاجة إلى المخلوقين .

- **قال ابن تيمية** : سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد :

الأولى : مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي نوع من الشرك .

والثانية : مفسدة إيذاء المسؤول وهي نوع من ظلم الخلق .

والثالثة : فيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس ، فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة .

الفوائد :

١- قوة إبراهيم في الحق .

٢- لا ينبغي الخوف إلا من الله .

٣- عموم علم الله تعالى بكل شيء .

٤- الإنكار على من لا يخاف من الله .

٥- فضل التوحيد وأنه سبب للأمن .

٦-كلما قوي توحيد الإنسان كلما قوي آمنه واستقراره .

٧- أن الشرك سبب للاضطراب والقلق .

(**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧)**
[الأنعام : ٨٣ – ٨٧] .

(**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ**) أي: وجهنا حجته على قومه.

قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأمْنِ) . (تفسير ابن كثير) .

وقيل : الإشارة إلى ما تقدم من الحجج الباهرة التي أيّد الله بها خليله عليه السلام ، وكان فيها قطع عذرهم وانقطاع حجتهم هي الحجة التي أتاها الله إبراهيم على قومه .

قال الطبري : (وتلك حجتنا ..) قول إبراهيم لمخاصميه من قومه المشركين (أي الفريقين أحق بالأمن) أمَنْ يعبد رباً واحداً مخلصاً له الدين والعبادة ، أم من يعبد أرباباً كثيرة ؟ وإجابتهم إياه بقولهم (بل من يعبد رباً واحداً أحق بالأمن) وقضاؤهم له على أنفسهم ، فكان في ذلك قطع عذرهم وانقطاع حجتهم .

وذهب بعض العلماء إلى أن الإشارة في قوله تعالى (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) راجعة إلى المناظرة كلها من قوله (فلما جن عليه الليل) ورجحه الشنقيطي .

وقال القرطبي :قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ) تلك إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة.

وقال مجاهد : هي قوله : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ).

وقيل : حجته عليهم أنهم لما قالوا له : أما تخاف أن تَخْبِلك آلهتُنا لسَبِّك إياها؟ قال لهم : أفلا تخافون أنتم منها إذ سوّيتم بين الصغير والكبير في العبادة والتعظيم ؛ فيغضب الكبير فيخبِلكم؟.

♦ **قال الشنقيطي** : قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ) قال مجاهد وغيره هي قوله تعالى (وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن) الآية ، وقد صدقه الله ، وحكم له بالأمن والهداية ، فقال (الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ) .

والظاهر شمولها لجميع احتجاجاته عليهم ، كما في قوله (لا أُحِبُّ الآفلين) ، لأن الأفول الواقع في الكوكب والشمس والقمر أكبر دليل وأوضح حجة على انتفاء الربوبية عنها ، وقد استدل إبراهيم عليه ، وعلى نبينا الصلاة والسلام بالأفول على انتفاء الربوبية في قوله (لا أُحِبُّ الآفلين) فعدم إدخال هذه الحجة في قوله (وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ) غير ظاهر ، وبما ذكرنا من شمول الحجة لجميع احتجاجاته المذكورة صدر القرطبي ، والعلم عند الله تعالى.

♦ **قال ابن عاشور** : فإيتاء الحجّة إلهامُه إيّاها وإلقاءُ ما يعبِّر عنها في نفسه ، وهو فضل من الله على إبراهيم إذ نصره على مناظريه.

(**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**) هذه الآية تدل على أن من علمه الله الحُجج ومناظرات الخصوم التي يثبت بها التوحيد ويدفع بها شبه

المبطلين ، فإن الله يرفع من درجاته حيث أتبع قوله (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) أتبعه بقوله (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ) أي : كما رفعنا درجة إبراهيم ، بما آتيناه من تلك الحجة التي صدع بها بالحق ، وقهر بها الخصوم .

- والدرجة المنزلة والمرتبة .
- قال ابن الجوزي : قوله تعالى (نرفع درجات من نشاء) في المعنى قولان.

أحدهما : أن الرفع بالعلم والفهم والمعرفة.

والثاني : بالاصطفاء للرسالة.

- **وقال القرطبي** : قوله تعالى (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ) أي بالعلم والفهم والإمامة والملك.

(**إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ**) في أفعاله وأقواله .

(**عَلِيمٌ**) أي : بمن يهديه ومن يضله ، وإن قامت عليه الحجج والبراهين .

- **قال السعدي** : فلا يضع العلم والحكمة إلا في المحل اللائق بهما وهو أعلم بذلك المحل ، وبما ينبغي له .
- **قال الرازي** : المعنى أنه إنما يرفع درجات من يشاء بمقتضى الحكمة والعلم ، لا بموجب الشهوة والمجازفة.

فإن أفعال الله منزهة عن العبث والفساد والباطل.

(**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا**) يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعَن في السن ، وأيس هو وامرأته (سارة) من الولد ، فجاءت الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك وقالت (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) وبشروهما مع وجوده بنبوته ، وأن له نسلاً وعقباً كما قال (فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) أي : يولد لهذا المولود ولد في حياتِكما ، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب .

وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه كما قال تعالى (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً) .

- قوله تعالى (كُلّاً هَدَيْنَا) وهذا تمام إقرار العين ، لأن الولد إذا كان غير صالح لم يكن قرة عين ، فهبته والنعمة به إنما تتم إذا كان مهدياً ، لا إن كان غير مهدي .

قال أبو حيان : قوله تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) (إسحاق) ابنه لصلبه من سارة و (يعقوب) ابن إسحاق كما قال تعالى (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) وعدد تعالى نعمه على إبراهيم فذكر إيتاءه الحجة على قومه ، وأشار إلى رفع درجاته وذكر ما منّ به عليه من هبته له هذا النبي الذي تفرعت منه أنبياء بني إسرائيل ، ومن أعظم المنن أن يكون من نسل الرجل الأنبياء والرسل ولم يذكر إسماعيل مع إسحاق.

(**وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ**) أي : من قبله ، هديناه كما هديناه ، ووهبنا له ذرية صالحة .

- **قال الخازن** :يعني من قبل إبراهيم أرشدنا نوحاً ووفقناه للحق والصواب ومنَنّا عليه بالهداية .
- وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به – وهم الذين صحبوه في السفينة – جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذرية نوح ، وكذلك الخليل إبراهيم عليه السلام ، لم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من

ذريته كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) .

(**وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ**) أي : وهدينا من ذريته داود وسليمان ..، **والضمير** يعود إلى نوح ، لأنه أقرب مذكور ، وهذا اختيار ابن جرير وابن عطية .

- **قال الخازن** : وهو اختيار جمهور المفسرين .

قال الرازي : قوله تعالى (ومن ذرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وسليمان) .

فقيل : المراد ومن ذرية نوح ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن نوحاً أقرب المذكورين وعود الضمير إلى الأقرب واجب.

الثاني : أنه تعالى ذكر في جملتهم لوطاً وهو كان ابن أخ إبراهيم وما كان من ذريته ، بل كان من ذرية نوح عليه السلام ، وكان رسولاً في زمان إبراهيم.

الثالث : أن ولد الإنسان لا يقال أنه ذريته، فعلى هذا إسماعيل عليه السلام ما كان من ذرية إبراهيم، بل هو من ذرية نوح عليه السلام.

الرابع : قيل إن يونس عليه السلام ما كان من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وكان من ذرية نوح عليه السلام.

والقول الثاني : أن الضمير عائد إلى إبراهيم عليه السلام ، والتقدير : ومن ذرية إبراهيم داود وسليمان.

واحتج القائلون بهذا القول : بأن إبراهيم هو المقصود بالذكر في هذه الآيات وإنما ذكر الله تعالى نوحاً لأن كون إبراهيم عليه السلام من أولاده أحد موجبات رفعة إبراهيم.

قال أبو حيان (**وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ**) وقرنهما لأنهما أب وابن ولأنهما ملكان نبيان ، وقدم داود لتقدمه في الزمان ولكونه صاحب كتاب ولكونه أصلاً لسليمان وهو فرعه (**وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ**) قرنهما لاشتراكهما في الامتحان ، أيوب بالبلاء في جسده ونبذ قومه له ، ويوسف بالبلاء بالسجن ولغربته عن أهله ، وفي مآلهما بالسلامة والعافية ، وقدم أيوب لأنه أعظم في الامتحان.

(**وَمُوسَى وَهَارُونَ**) قرنهما لاشتراكهما في الأخوة ، وقدّم موسى لأنه كليم الله.

(**وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**) أي : كما هدينا هؤلاء الرسل الكرام ، ووفقناهم لطريق الصواب ، كذلك نجزي المحسنين ، فنهديهم ونوفقهم إلى ما يرضينا .

- **قال الخازن** : يعني : وكما جزينا إبراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه كذلك نجزي المحسنين على إحسانهم .
- **وقال أبو حيان** : أي مثل ذلك الجزاء من إيتاء الحجة وهبة الأولاد الخيرين نجزي من كان محسناً في عبادتنا مراقباً في أعماله لنا.

وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان ، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء ، فيدخل فيه الإحسان بالمال ، ويدخل فيه الإحسان بالجاه ، وبالشفاعة ونحو ذلك ، وتعليم العلم النافع ، وقضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم ، وإزالة شدائدهم ، وعيادة مرضاهم ، وتشييع جنائزهم ، وإرشاد ضالهم .

ويدخل في ذلك الإحسان في عبادة الله ، إخلاصاً لله تعالى ، ومتابعة للرسول ﷺ ، كما قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وقال تعالى (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) .

فالإحسان في عبادة الله : أن تقوم بالعمل متقناً فيه إخلاصاً ومتابعة .

والإحسان إلى المخلوق : بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة ، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك .

فالإحسان إلى الناس أن تعاملهم كما تحب أن يعاملوك به ، من حسن الخلق ، وطلاقة الوجه ، وكف الأذى ، وغير ذلك من المعروف ، كما قال تعالى (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) .

♦ والإحسان نتيجة إحسان العبد عمله في الدنيا ينال الإحسان من الله .

كما قال تعالى (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) .

وقال تعالى (وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) .

قال السعدي : والإحسان نوعان:

الإحسان في عبادة الخالق ، والإحسان إلى المخلوق .

فالإحسان في عبادة الخالق : فسرها النبي ﷺبقوله (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

وأما الإحسان إلى المخلوق : فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده. (تفسير السعدي)

♦ وأعظم دافع للإحسان مراقبة الله تعالى، ولذلك قال النبي ﷺ في تعريفه (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تره فإنه يراك) .

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان ، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) . ولم يقل أيكم أكثر عملاً .

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

فالإحسان : أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم ، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون .

- **فضائل الإحسان** :

أولاً : أن من أحسن إلى الناس أحسن الله إليه .

قال تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) .

ثانياً : لهم في الدنيا حسنة .

قال تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) .

ثالثاً : رحمة الله قريبة من المحسنين .

قال تعالى (إن رحمت الله قريب من المحسنين) .

رابعاً : لهم الجنة ونعيمها .

قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

خامساً : تبشير المحسنين .

قال تعالى (وبشر المحسنين) .

سادساً : أن الله معهم .

قال تعالى (وإن الله لمع المحسنين) .

سابعاً : إن الله يحب المحسنين .

قال تعالى : (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) .

ثامناً : إن الله لا يضيع أجر المحسنين .

قال تعالى (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) .

تاسعاً : الإحسان سبب في دخول الجنة .

قال تعالى : (... آخذين ما أتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) .

عاشراً : الكافر إذا رأى العذاب تمنى أن لو أحسن في الدنيا .

قال تعالى (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين) .

♦ قال ابن رجب : قوله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) ، وقد ثبت في " صحيح مسلم " عنِ النَّبيِّ ﷺ تفسيرُ الزّيادةِ بالنّظرِ إلى وجهِ الله – عز وجل – في الجنة ، وهذا مناسبٌ لجعلِه جزاءً لأهلِ الإحسّانِ ؛ لأنَّ الإحسانَ هو أنْ يَعبُدَ المؤمنُ ربّه في الدُّنيا على وجهِ الحُضورِ والمراقبةِ ، كأنّه يراهُ بقلبِهِ وينظرُ إليه في حال عبادتِهِ ، فكانَ جزاءُ ذلك النَّظرَ إلى الله عياناً في الآخرة ، وعكس هذا ما أخبرَ الله تعالى به عَنْ جَزاءِ الكُفَّار في الآخرةِ (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) ، وجعلَ ذلك جزاءً لحالهم في الدُّنيا ، وهو تراكُم الرَّانِ على قُلوبِهم ، حتّى حُجِبَتْ عن معرفتِهِ ومُراقبته في الدُّنيا ، فكان جزاؤُهم على ذلك أنْ حُجِبوا عن رُؤيته في الآخرة .

(**وَزَكَرِيَّا**) أي : وهدينا زكريا ويحيي .. ، وزكريا ذكر الله قصته في سورة مريم ، وآل عمران ، والأنبياء .

(**وَيَحْيَى**) ابن زكريا عليه السلام ، وقصته معروفة في آل عمران .

(**وَعِيسَى**) ابن مريم عليه السلام ، الذي خلقه الله بقدرته من غير أب (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

(**وَإِلْيَاسَ**) عليه السلام ، وقد ذكر الله قصته في آيات من كتابه ، وبيّن أنه رسول كريم ، وبيّن في سورة الصافات محاجته لقومه في قوله (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ . أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) .

قال أبو حيان : قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا وبدأ بزكريا ويحي لسبقهما عيسى في الزمان ، وقدّم زكريا لأنه والد يحي فهو أصل ، ويحي فرع وقرن عيسى وإلياس لاشتراكهما في كونهما لم يموتا بعد وقدّم عيسى لأنه صاحب كتاب ودائرة متسعة .

(**كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ**) أي : كل من هؤلاء الأنبياء المذكورين الذين هديناهم من ذرية إبراهيم أو من ذرية نوح (مِنَ الصَّالِحِينَ) جمع صالح ، وهو من كانت أعماله لله جل وعلا .

وَإِسْمَاعِيلَ) هو نبي الله ابن إبراهيم .

(**وَالْيَسَعَ**) وهو نبي ، ذكره الله من جملة الأنبياء .

(**وَيُونُسَ**) ابن متى عليه السلام ، أرسله الله إلى مائة ألف أو يزيدون .

(**وَلُوطاً**) وهو نبي الله لوط ابن أخي إبراهيم .

(**وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ**) أي : وكلاً من أولئك الأنبياء فضلنا على العالمين ، والمراد عالمي زمانهم ، لأن النبي ﷺ بعدهم وهو أفضل منهم .

(**وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ**) أي : وهدينا أيضاً من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات كثيرة .

- قال ابن كثير : ذكر أصولهم وفروعهم وذوي طبقتهم .

(**وَاجْتَبَيْنَاهُمْ**) أي : واجتبينا هؤلاء الرسل المذكورين ، والاجتباء : الاصطفاء والاختيار ، أي : اخترناهم واصطفيناهم .

(**وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) أي : وفقناهم وأرشدناهم إلى صراط مستقيم ، والصراط في لغة العرب : الطريق الواضح ، والمستقيم : الذي لا اعوجاج فيه .

- وهذا الطريق هو طريق الإسلام ، دين الحنيفية السمحة .

الفوائد :

١- فضل إبراهيم الخليل .

٢- فضل العلم وأنه سبب لرفعة .

٣-إثبات اسمين من أسماء الله وهما : العليم والحكيم .

٤-أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه .

٥-أن الولد الصالح من نعمة الله على عبده .

٦- الحث على الإحسان ، وأن يجزي المحسنين .

٧- فضل الصلاح .

٨- الحث على الاقتداء بالأنبياء السابقين .

(**ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٨٨) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠)**)

[الأنعام : ٨٨- ٩٠] .

(**ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**) أي : ذلك الهدى الذي هدى الله به هؤلاء الأنبياء الكرام المذكورين في سورة الأنعام هو هدى الله وتوفيقه إياهم ، ولا هدى إلا هدى الله (قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ) .

- **قال ابن كثير** : أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم .
- ومفهوم الآية أن من لم يشأ الله هدايته فلا هادي له ، فالهداية والإضلال كلها بمشيئته وحده .
- النبوة منحة ربانية لا دخل لها بالعقل .
- قوله تعالى (يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ) كل أفعال الله المعلقة بالمشيئة راجعة إلى الحكمة .

(**وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) أي : ولو أشرك هؤلاء الأنبياء – وحاشاهم – وعبدوا غير الله لحبط عنهم ما كانوا يعملون ، فكل ما عملوه من خير فإنه يكون باطل حابط ، لأن الشرك محبط للعمل ، فغيرهم من باب أولى .

- **قال القاسمي** (وَلَوْ أَشْرَكُوا) هؤلاء مع عظمتهم (لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من الأعمال المرضية فكيف بمن عداهم .
- **وقال أبو السعود** : (وَلَوْ أَشْرَكُواْ) أي : هؤلاءِ المذكورون (لَحَبِطَ عَنْهُمْ) مع فضلهم وعلوِّ طبقاتِهم (مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) من الأعمال المرْضيّة الصالحة ، فكيف بمَنْ عداهم وهُم هُم وأعمالُهم أعمالُهم.
- **قال ابن كثير** : تشديد لأمر الشرك ، وتعظيم لشأنه ، وتعظيم لملابسته .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) ، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) ، وكقوله (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ) وكقوله (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) .

- الآية دليل على أن الشرك محبط للعمل .

كما قال تعالى (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) .

وقال تعالى مخاطباً لنبينا (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ، وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع ، كقوله تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) .

- وإحباط العمل مقيد بأن يموت على شركه كما قال تعالى (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

(**أُولَئِكَ**) الإشارة إلى الأنبياء المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر .

(**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ**) أي : جنس الكتب ، أي : أعطيناهم وأنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية ، كالتوراة والإنجيل والزبور .

(**وَالْحُكْمَ**) قال بعض العلماء : الحكم هو الفهم في الدين والفصل بين الخصوم ، وعليه فالمعنى : فهم الكتاب والاطلاع على دقائقه والعمل بما فيه .

(**وَالنُّبُوَّةَ**) أي : أن الله جعلهم أنبياء .

(**فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا**) قيل: بالنبوة، لأنه أقرب مذكور، وقيل: الضمير راجع إلى المذكورات الثلاث، وهي النبوة، والحكم، والكتاب .

(**هَؤُلاءِ**) يعني : أهل مكة .

(**فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا**) أي : بالنبوة ، أو بالمذكورات .

(**قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**) أي : وفقنا قوماً للإيمان بها والعمل بها وحملناهم هذه الرسالة والأمانة وقاموا بها حق قيام ودافعوا عنها وجاهدوا فيها غاية المجاهدة .

- وقد اختلف في المراد بهؤلاء القوم الذين آمنوا بها وليسوا بها بكافرين على أقوال :

فقيل : هم الأنبياء عليهم السلام المذكورين ، ويدل عليه أنه قال بعده (. أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) ، ورجح هذا القول ابن جرير .

وقيل : هم أصحاب النبي محمد ﷺ من الأنصار والمهاجرين، ورجحه القاسمي وقال: وهو الأظهر، في مقابلة كفار قريش، أي : فإن في إيمانهم غنية عن إيمان الكفرة بها .

وقيل : تشمل كل مؤمن آمن بالله ، وعليه فالمعنى : إن كفر بعض خلقي وتمردوا وكذبوا رسلي فلي بعضٌ من الناس الطيبين وفقتهم للعمل والإيمان يحصل بهم غرض التشريع .

(**أُولَئِكَ**) الإشارة إلى الأنبياء المذكورين .

(**الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ**) أي : هم أهل الهداية لا غيرهم .

(**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**) أي : بطريقتهم في الإيمان بالله ، وتوحيده ، والأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والصفات الرفيعة ، اعمل .

- الاقتداء : طلب موافقة الغير في فعله .

- استدل بهذه الآية من قال : إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يدل دليل يخالفه ، وهـــذا مذهب جماهير العلماء .

وهذه المسألة لها ثلاث حالات :

الحالة الأولى : أن يأتي موافقاً لشرعنا ، فهذا لا إشكال فيه .

الحالة الثانية : أن يكون ثبت في شرعنا خلافه ، فهذا ليس شرع لنا ولا إشكال فيه ، مثال ذلك : كالآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا ، فإنه سبحانه بيّن في كتابنا أنه رفعها عنا (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) ومن هذه الآصار : ما جاء في سورة البقرة من أن عبدة العجل لما أرادوا أن يتوبوا لم يقبل الله توبتهم إلا بقتل أنفسهم .

الحالة الثالثة : ما ثبت أنه شرع لمن قبلنا ، ولم يثبت في شرعنا أنه شرع لنا ولا غير شرع لنا ، وهذا محل خلاف بين العلماء :

القول الأول : أنه يكون شرعاً لنا ، وهو قول الجمهور من الحنفية والمالكية وجمهور الشافعية والحنابلة .

القول الثاني : انه ليس شرعاً لنا ، وهو قول بعض الشافعية .

القول الثالث : التوقف وهو يرجع من الناحية العملية إلى القول الثاني .

واستدل الجمهور بأدلة كثيرة منها :

أن الله عز وجل لما ذكر الأنبياء في سورة الأنعام ختم الآيات بقوله (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين) والهدى هنا عام لأنه مفرد مضاف فيشمل جميع الهدى ما لم يرد خلافه .

حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الصحيحين قال (لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء فسئلوا عن ذلك فقالوا هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون ونحن نصومه تعظيما له فقال رسول الله ﷺ : نحن أولى بموسى منكم ثم أمر بصومه) وروى البخاري .

(**قُلْ**) للذين أعرضوا عن دعوتك .

(**لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ**) أي : لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن .

(**أَجْراً**) أي : أجرة ، ولا أريد منكم شيئاً ، فيكون من أسباب امتناعكم .

♦ **قال ابن عاشور** : فليس المقصود من قوله : (لا أسألكم عليه أجراً) ردّ اعتقاد معتقد أو نفي تهمة قيلت ولكن المقصود به الاعتبار ولفت النّظر إلى محض نصح الرّسول ﷺ في رسالته وأنّها لنفع النّاس لا يجرّ منها نفعاً إلى نفسه .

♦ **قال الشنقيطي** : فِي قَوْلُهُ تَعَالَى عن نوح (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) .

ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ نَبِيِّهِ نُوحٍ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : أَنَّهُ أَخْبَرَ قَوْمَهُ أَنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ مَالًا فِي مُقَابَلَةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ وَالْهُدَى ، بَلْ يَبْذُلُ لَهُمْ ذَلِكَ الْخَيْرَ الْعَظِيمَ مَجَّانًا مِنْ غَيْرِ أَخْذِ أُجْرَةٍ فِي مُقَابِلِهِ .

وَبَيَّنَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ شَأْنُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ ، كَقَوْلِهِ فِي «سَبَإٍ» عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) .

وَقَوْلِهِ فِيهِ أَيْضًا فِي آخِرِ «سُورَةِ ص» (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) .

وَقَوْلِهِ فِي «الطُّورِ» ، وَ «الْقَلَمِ» (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُون) .

وَقَوْلِهِ فِي «الْفُرْقَانِ» (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا) .

وَقَوْلِهِ فِي «الْأَنْعَامِ» (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) .

وَقَوْلِهِ عَنْ هُودٍ فِي «سُورَةِ هُودٍ» (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي) .

وَقَوْلِهِ فِي «الشُّعَرَاءِ» عَنْ نُوحٍ ، وَهُودٍ ، وَصَالِحٍ ، وَلُوطٍ ، وَشُعَيْبٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ رُسُلِ الْقَرْيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي «يس» (اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا) .

وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَبْذُلُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَجَّانًا مِنْ غَيْرِ أَخْذِ عِوَضٍ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَى تَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا عَلَى تَعْلِيمِ الْعَقَائِدِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ .

♦ ومنع الله على الأنبياء أن يأخذوا جُعلاً في مقابل التبليغ ، لأنهم لو أخذوه لكانوا يتهموهم بأنهم أرادوا بما جاءوا به من أجل المال ، ولئلا يثقل الناس ، لأن النفوس مجبولة على بغض المغرم (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ) .

قال تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله ...) قال محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : فيه مسائل (منها التنبيه على الإخلاص لأن كثيراً ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه) .

قال أبو حازم –رحمه الله – لا تكون عالماً حتى تكون فيك خصال: لا تبغ على من فوقك ولا تحقر من دونك ولا تأخذ على علمك دنيا . (المداراة) .

جلس الحسن –رحمه الله – يُحدّث فأُهديَ له فردّه، وقال: إن من جلس هذا المجلس ثم قَبِل ، فليس له عند الله خلاق ، أو قال: فليس له خلاق (الزهد لأحمد) .

قال يوسف بن زكريا –رحمه الله :كان محمد بن يوسف، لا يشتري من خباز واحد، ولا من بقال واحد، وقال: لعلهم يعرفوني فيحابوني، فأكون ممن أعيش بديني ؟ (حلية الأولياء) .

(**إِنْ هُوَ**) أي : القرآن .

(**إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ**) أي : عظة وذكرى لهم ، ليرشدوا من العمى إلى الهدى للخلق كافة الموجودين عند نزوله ومن سيوجد من بعد .

ومن أسماء القرآن الذكر ، كما قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ، وقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر) .

قال ابن جرير في وجه تسميته بالذكر : إنه محتمل معنيين :

أحدهما : أنه ذكر من الله جل ذكره ، ذكّر به عباده ، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه ، وسائر ما أودعه من حكمه .

والآخر : أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه ، كما قال جل ثناؤه (وإنه لذكر لك ولقومك ، يعني أنه شرف به شرف له ولقومه .

- وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : وسمي القرآن ذكراً :

أولاً : لما فيه من التذكير والموعظة .

ثانياً : لما فيه من الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ).

ثالثاً : لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة ، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير .

رابعاً : لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم ، كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) .

خامساً : ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي .

الفوائد :

١- أن الهداية بيد الله .

٢- سؤال الله الهداية .

٣- حكمة الله في هداية من يشاء بفضله .

٤- خطر الشرك وأنه محبط للعمل .

٥- أن الشرك أعظم الذنوب .

٦- وجوب التوحيد .

٧-من نعمة الله على العبد جعل الهداية في ذريته .

٨- أن من ترك طاعة الله ونصرة دينه استبدله الله بخير منه .

٩-الاقتداء بمن سبق من الأنبياء والصالحين .

١٠- على الداعية أن يخلص في دعوته ولا يأخذ على ذلك أجراً .

١١-من علامات قبول الداعية عدم طلب أجرة على علمه سواء بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر .

١٢-الثناء على القرآن العظيم ، وأن فيه التذكير والهداية للناس .

(وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)) .

[الأنعام : ٩١] .

(**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ**) يقول تعالى : وما عظموا الله حق تعظيمه ، إذ كذبوا رسله إليهم ، وأنكروا الوحي وبعثة الرسل .

- والمراد : وأنت أيضاً يا محمد من جملة البشر لم ينزل عليك شيء ، فأرادوا تكذيبه .
- فإن قيل : لماذا قولهم يدل على عدم تعظيم الله ؟

فالجواب : لأنهم بهذا القول نسبوا لله السفه حيث يخلق الخلق والكون من غير حكمة ، وهو سبحانه الحكيم العليم ، فهؤلاء الذين نفوا إنزال الكتب على الرسل وتكليف الخلائق ومجازاتهم ، هؤلاء ظنوا بالله أنه خلق الخلق عبثاً ، ولم يخلقه للحكم البالغة ، والله يقول (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) وقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) ثم نزه نفسه عن هذا فقال (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) .

قال القرطبي : وشرحُ هذا أنهم لما قالوا (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) نَسَبُوا الله عز وجل إلى أنه لا يقيم الحجة على عباده ، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح ؛ فلم يعظِّموه حقَّ عظمته ولا عرفوه حقَّ معرفته.

وقال أبو عبيدة : أي ما عرفوا الله حقّ معرفته.

قال النحاس : وهذا معنى حسن ؛ لأن معنى قدرت الشيء وقدّرته عرفت مقداره.

ويدلّ عليه قوله تعالى : (إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) أي لم يعرفوه حق معرفته ؛ إذ أنكروا أن يرسل رسولاً.

والمعنيان متقاربان. (تفسير القرطبي) .

- **قال في التسهيل** : قوله تعالى (وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ) أي : ما عرفوه حق معرفته ، في اللطف بعباده والرحمة لهم ؛ إذ أنكروا بعثه للرسل وإنزاله للكتب ، والقائلون هم : اليهود بدليل ما بعده ، وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار نبوة محمد ﷺ .
- اختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية :

فقيل: نزلت في قريش، واختاره ابن جرير وابن كثير، لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش – والعرب قاطبة – كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر كما قال تعالى (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) وقال تعالى (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً).

وقيل: نزلت في طائفة من اليهود .

ويؤيده سبب النزول الذي جاء عن ابن عباس (أن اليهود قالوا ذلك : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فأنزل الله الآية) . لكن يشكل على هذا القول أن السورة مكية .

(**قُلْ**) أي : قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله .

(**مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى**) أي : من أنزل التوراة الذي أنزل على موسى ، وموسى بشر ، وأنتم أيها اليهود تُسلّمون بشرية موسى ونزول الكتاب عليه .

- ففي هذه الآية رد عليهم وتكذيب لهم بقوله (ما أنزل الله على بشر من شيء) .

(**نُوراً**) يستضاء بها في كشف المشكلات .

(**وَهُدىً لِلنَّاسِ**) يهتدي بها بني إسرائيل .

♦ **قال الرازي** : اعلم أنه تعالى سماه نوراً تشبيهاً له بالنور الذي به يبين الطريق.

فإن قالوا : فعلى هذا التفسير لا يبقى بين كونه نوراً وبين كونه هدى للناس فرق ، وعطف أحدهما على الآخر يوجب التغاير.

قلنا : النور له صفتان : إحداهما : كونه في نفسه ظاهراً جلياً ، والثانية : كونه بحيث يكون سبباً لظهور غيره ، فالمراد من كونه نوراً وهدى هذان الأمران.

واعلم أنه تعالى وصف القرآن أيضاً بهذين الوصفين في آية أخرى ، فقال (ولكن جعلناه نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا) .

(**تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ**) أي : تجعلونه أيها اليهود قراطيس ، أي : في قراطيس مقطعة وورقات مفرقة .

♦ القراطيس جمع قرطاس وهو الورقة .

♦ ويجعلونها في قراطيس ليستعينوا بها على إخفاء ما يحبون وإبداء ما يحبون ، لأنه لو جاءت نسخة الكتاب كاملة لعُرف الحقيقة فيه كما قال تعالى (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً). وقال تعالى (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

♦ **وقال القرطبي** : (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ) أي في قراطيس (تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً) هذا لليهود الذين أخفَوْا صفة النبيّ ﷺ وغيرها من الأحكام.

(**تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً**) قال الطبري : ومما كانوا يكتمونه إياهم ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوته .

♦ وفي هذا دليل على أن اليهود كتموا العلم ولذلك غضب عليهم ولعنوا ، وحرفوا كتابهم مما فيه الإخبار بنبوة النبي ﷺ .

♦ وقد اختلف العلماء هل التحريف وقع في أصل كتابهم أو تلك القراطيس التي كانوا يبدونها للناس ، والراجح : أن التحريف وقع في أصل كتابهم ، ويدل لهذا تلك النسخ الموجودة في الآفاق التي تتناقض غاية التناقض .

(**وَعُلِّمْتُمْ**) على لسان محمد ﷺ .

(**ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ**) من المعارف التي لا يرتاب في أنها تنزيل رباني .

♦ **قال ابن كثير** : ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك أنتم ولا آباؤك .

♦ **قال الشنقيطي** : أظهر الأقوال فيها : أن المراد بهم اليهود الذين أنزل عليهم التوراة ، أن الله علمهم بواسطة القرآن من غرائب ما في التوراة وعجائبه ما كانوا جاهلين به ، لأن القرآن مهيمن على الكتب كما قال تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) . وقال تعالى (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) .

وقيل : هي خطاب للمسلمين ، أي علّموا على لسان محمد ﷺ .

(**قُلِ اللَّهُ**) أي : قل : الله أنزله .

قال القاسمي : أَمَره بأن يجيب عنهم ، إشعاراً بأن الجواب متعين لا يمكن غيره ، وتنبيهاً على أنهم بُهتوا بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب .

(**ثُمَّ**) بعد التبليغ وإلزام الحجة .

(**ذَرْهُمْ**) اتركهم .

(**فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**) أي : في جهلهم وضلالهم وكفرهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون ألهم العاقبة ، أم لعباد الله المتقين ؟

قال الرازي : المعنى أنك إذا أقمت الحجة عليهم وبلغت في الأعذار والإنذار وهذا المبلغ العظيم فحينئذ لم يبق عليك من أمرهم شيء ألبتة ، ونظيره قوله تعالى (إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ) .

♦ **قال القرطبي** : ومعنى الكلام التهديد.

قال الرازي : قال بعضهم هذه الآية منسوخة بآية السيف وهذا بعيد لأن قوله (ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) مذكور لأجل التهديد ، وذلك لا ينافي حصول المقاتلة، فلم يكن ورود الآية الدالة على وجوب المقاتلة، رافعاً لشيء من مدلولات هذه الآية ، فلم يحصل النسخ فيه. والله أعلم .

الفوائد :

١-وجوب تعظيم الله .

٢- تنزيه الله أن يخلق لغير حكمة .

٣- أن من كذب بالرسل لم يقدر الله حق قدره .

٤-إثبات رسالة موسى .

٥- أن كتب الله كتب هداية وإرشاد وسعادة .

٦-تحريم كتم العلم .

٧- الحذر من كتم العلم لأنه من صفات اليهود .

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)) .

[الأنعام : ٩٢] .

(**وَهَذَا كِتَابٌ**) القرآن .

♦ وسمي القرآن كتاباً : لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال تعالى (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون) أي اللوح المحفوظ ، وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة قال تعالى (فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة) ، وهو كتاب في الصحف التي بأيدينا ، فهو مكتوب بأيدينا ونقرؤه من هذه الكتب .

(**أَنْزَلْنَاهُ**) دليل على أن القرآن منزل ، أنزله الله على محمد كما قال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وقال تعالى (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقال تعالى (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً) وقال تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) .

(**مُبَارَكٌ**) أي : أن هذا القرآن مبارك ، أي كثير البركات ، لأنه فيه خير الدنيا والآخرة ، ومن بركته :

أولاً : في الثواب الحاصل بتلاوته ، فإن من قرأ حرفاً واحداً منه ، فله بكل حرف عشر حسنات .

ثانياً : ما يحصل من الأثر المترتب على تلاوته من انشراح الصدر ، ونور القلب وطمأنينه .

ثالثاً : ما يحصل بهذا القرآن من اجتماع الكلمة ، وحفظ اللغة الأصيلة للقوم الذين نزل بلغتهم ، فمن المعلوم أن الناس إذا كانوا على لغة واحدة صاروا إلى الاجتماع أقرب .

ولهذا بيّن الله أن أعظم نعمة أنزلها على خلقه هو إنزال هذا القرآن كما قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) .

وبيّن أن إيراثه علامة الاصطفاء ، وبيّن أن ذلك فضل كبير من الله حيث قال (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) فبيّن أن إيراث هذا الكتاب لا يكون إلا لمن اصطفاه الله .

(**مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**) أي: أن هذا القرآن العظيم مصدق للكتب السماوية التي قبله، وتصديقه لها من جهات متعددة منها :

أولاً : أنه شاهد لها بالصدق ، وقد شهد القرآن أن التوراة والإنجيل كليهما من عند الله .

ثانياً : أنه جاء مطابقاً لما أخبرت به .

ثالثاً : أن ما تدعوا إليه الكتب السماوية من التوحيد وطاعة الله ومكارم الأخلاق جاء القرآن آمراً به .

(**وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى**) أي :وأنزلنا إليك هذا الكتاب لتنذر أم القرى وهي مكة .

- والإنذار : الإعلام المقرون بالتخويف .

(**وَمَنْ حَوْلَهَا**) من أحياء العرب ، ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم .

كما قال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) .

وقال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) .

وقال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) .

وثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال (.. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) .

(**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ**) أي: كل من آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن .

- والآخرة : هي الدار التي لا دار بعدها ولذلك سميت آخرة .
- والإنسان يمر بخمس مراحل :

الأولى : مرحلة العدم .

قال تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) .

الثانية : مرحلة الحمل .

قال تعالى (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ) .

الثالثة : مرحلة الدنيا .

قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً) .

وهذه المراحل هي التي عليها مدار السعادة والشقاء ، وهي دار الامتحان والابتلاء .

الرابعة : مرحلة البرزخ .

قال تعالى (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) .

الخامسة : مرحلة الآخرة .

قال تعالى (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) .

(**وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**) أي : يقومون بما افترض عليهم ، من أداء الصلوات في أوقاتها .

- وخص الصلاة لعظم مكانتها ، ومما يدل على عظم مكانتها :

أولاً : أنها فرضت في أعلى مكان ، **ثانياً** : أنها أول ما فرضت فرضت خمسين صلاة ، **ثالثاً** : أنها عمود الإسلام ، **رابعاً** : أنها الفارقة بين الكافر والمسلم .

- قوله تعالى (وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) مما أمرنا بالمحافظة عليه :

أولاً : حدود الله .

قال تعالى (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

ثانياً : الصلوات الخمس .

قال تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) .

وقال النبي ﷺ (من حافظ عليها كانت له عند الله عهداً أن يدخله الجنة) رواه أحمد .

ثالثاً : الطهارة .

قال ﷺ (لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) رواه أحمد .

رابعاً : حفظ الإيمان .

قال تعالى (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ) أي : لا تكثروا الحلف بالله ، وقيل : البدار إلى ما لزمكم من الكفارة إذا حنثتم .

خامساً : حفظ اللسان والفرج .

قال ﷺ (من حفظ ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة) رواه الحاكم وهو عند البخاري بلفظ (من يضمن لي ما بين لحييه ورجليه أضمن له الجنة) .

سادساً : حفظ الفرج .

قال تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ) ومدح من الحافظين فقال (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) .

الفوائد :

١- الثناء على القرآن العظيم .

٢- أن القرآن منزل غير مخلوق .

٣- أن هذا القرآن مبارك ، مبارك في تلاوته ، وفي تدبره ، وفي العمل به .

٤- أن هذا القرآن مصدق للكتب السابقة .

٥- أن الرسول منذر لجميع الناس ، فدعوته عامة .

٦- فضل الإيمان بالآخرة ، وأنه سبب للاستجابة للحق .

٧-فضل المحافظة على الصلاة .   الأحد/٢٦/٢/١٤٣٥هـ

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)) .

[الأنعام : ٩٣] .

(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً**) استفهام معناه النفي ، أي : لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فجعل له شريكاً أو ولداً ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله ولهذا قال :

(**أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ**) أي : زعم أن الله بعثه نبياً كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي مع أن الله لم يرسله .

(**وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ**) أي : ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتريه من القول ، كما قال تعالى (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) .

(**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ**) أي: ولو ترى يا محمد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده، وجواب (لو) محذوف للتهويل ، أي : لرأيت أمراً عظيماً .

♦ **قال القرطبي** : والغَمْرة الشدّة ؛ وأصلها الشيء الذي يغمُر الأشياء فيُغطّيها.

ومنه غَمَرَه الماء ، ثم وُضعت في معنى الشدائد والمكاره ، ومنه غَمَرات الحرب.

♦ **وقال ابن عاشور** : والغمرة بفتح الغين ما يغمُر ، أي يَغُمّ من الماء فلا يترك للمغمور مخلصاً.

وشاعت استعارتها للشدّة تشبيهاً بالشدّة الحاصلة للغريق حين يغمره الوادي أو السّيل حتّى صارت الغمرة حقيقة عرفيّة في الشدّة الشّديدة.

♦ **قال ابن عطية** : قوله عز وجل (ولو ترى إذ الظالمون) الآية ، جواب (لو) محذوف تقديره لرأيت عجباً أو هولاً ونحو هذا وحذف هذا الجواب أبلغ من نصه لأن السامع إذا لم ينص له الجواب يترك مع غاية تخيله و(الظالمون) لفظ عام لمن واقع ما تقدم ذكره وغير ذلك من أنواع الظلم الذي هو كفر و" الغمرات " جمع غمرة وهي المصيبة المبهمة المذهلة ، وهي مشبهة بغمرة الماء .

(**وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ**) أي : باسطوها إليهم بالضرب الوجع ، والأذى الفظيع

♦ وهذا عند الموت ، كما قال تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) ، وقال تعالى (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) .

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (**وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ**) وفي الوقت الذي يكون هذا فيه ثلاثة أقوال.

أحدها : عند الموت ، قال ابن عباس هذا عند الموت ، الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وملك الموت يتوفاهم.

والثاني : يوم القيامة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث : في النار ، قاله الحسن.

(**أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ**) أي : أخرجوا أرواحكم لنقبضها ، وهذا عبارة عن العنف في السياق والإلحاح الشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال .

◆ **قيل** : إن روح الكافر إذا علمت بما لها عند الله من العذاب الشديد تفرقت في جسده وامتنعت من الخروج ، فهم يقولون (أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ) قدموا أرواحكم وأخرجوها من أبدانكم لنأخذها .

قال القرطبي : قوله تعالى (أخرجوا أَنْفُسَكُمُ) أي : خلصوها من العذاب إن أمكنكم ، وهو توبيخ.

وقيل : أخرجوها كرهاً ؛ لأن روح المؤمن تَنْشَط للخروج للقاء ربه ، وروح الكافر تُنْتَزع انتزاعا شديداً ، ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله وَهَوانه ؛ كذا جاء في حديث أبي هريرة وغيره.

وقيل : هو بمنزلة قول القائل لمن يعذبه : لأذيقنّك العذاب ولأخرجنّ نفسك ؛ وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها مَلَك الموت وأعوانه.

(**الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ**) أي : اليوم تهانون غاية الإهانة .

قال الزجاج : عذاب الهون أي العذاب الذي يقع به الهوان الشديد.

(**بِمَا كُنْتُمْ**) أي : في الدار الدنيا .

(**تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ**) أي : بافترائكم على الله ونسبتكم إليه الشريك والولد .

(**وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**) أي : تستكبرون عن اتباع آياته التي أنزلها الله على رسله ، فتأنفون من اتباعها .

أولاً : من صفات أهل النار .

قال ﷺ (ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر) رواه مسلم .

وقال ﷺ (احتجت الجنة والنار ، فقالت النار : يدخلني الجبارون والمتكبرون) رواه مسلم .

◆ **درجات التكبر :**

الأول : التكبر على الله .

وهو أفحش أنواع الكبر ، مثل فرعون حين استكبر وقال : أنا ربكم الأعلى ولذلك قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) .

ثانياً : التكبر على الرسل .

كما فعلت الأقوام المكذبة مع رسلها ، فترفعت عن الانقياد لهم كما حكى الله عنهم (أنؤمن لبشرين مثلنا) وقال تعالى عنهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا) .

وهذا الكبر قريب من الأول ، وإن كان دونه .

الثالث : التكبر على العباد .

وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » . قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ

يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَنَةً . قَالَ « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ) .
وهذا دون الأول والثاني بكثير ، لكنه عظيم لأمرين :
أ- أن الكبر والعز والعظمة لا تليق إلا بالملك القادر ، فأما العبد الضعيف المملوك العاجز لا يليق به إلا الذل لله والانكسار .
ب- أنه يدعو إلى مخالفة الله في أوامره ، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عباد الله استنكف عن قبوله .

الفوائد :

١- أنه لا أظلم ممن كذب على الله .

٢- أن الكذب على الله أعظم الكذب .

٣-شدة سكرات الموت على المشركين .

٤- إثبات الملائكة .

٥- إثبات أن الملائكة لها وظائف .

٦-تحريم الكبر وأنه سبب للصد عن الحق .

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)) .
[الأنعام : ٩٤] .

(**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**) أي : يقال لهم يوم معادهم هذا : جئتمونا للحساب منفردين عن الأهل والمال والولد حفاة عراة غرلاً كما خلقناكم أول مرة ، لأن الإنسان يخرج من بطن أمه وحيداً فريداً ، لا مال له ، حافياً ، عارياً ، لا نعال له ولا لباس غير مختون .
كما قال تعالى (لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أي يقال لهم يوم القيامة : أي والله لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، أي حفاة عراة غرلاً بهماً ، بلا مال ، ولا ولد ، ولا أهل ، ولا عشيرة ، ما معهم إلا الأعمال .
قال ابن كثير : هذا تقريع للمنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد .
وقال تعالى كما في هذه الآية (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ)
وقال تعالى (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً) .
وقال تعالى (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .
وقال تعالى (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) .
فالآية فيها قولان :
قيل : كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث.
وقيل : أن الإنسان يأتي يوم القيامة كما خلقه الله عز وجل حين خلقه (حفاة عراة غرلاً) رجحه ابن جرير والشنقيطي .
وقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أَيْ مُنْفَرِدِينَ لَا مَالَ ، وَلَا أَثَاثَ ، وَلَا رَقِيقَ ، وَلَا خَوَلَ عِنْدَكُمْ ، حُفَاةً ، عُرَاةً ، غُرْلًا ، أَيْ : غَيْرَ مَخْتُونِينَ (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .

(**وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ**) أي : وتركتم ما أعطيناكم من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا .

(**وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ**) أي : في الدار الدنيا فلم تنفعكم في هذا اليوم العصيب .

قال ابن الجوزي (وراء ظهوركم) أي : في الدنيا ، والمعنى : أن ما دأبتم في تحصيله في الدنيا فني ، وبقي الندم على سوء الاختيار.

- فليس للإنسان إلا ما قدم .

عن عبدِ الله بن الشِّخِّيرِ – بكسر الشينِ والخاء المعجمتين – رضي الله عنه ، أنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ ، وَهُوَ يَقْرَأُ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ قَالَ: « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي ، مالي ، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ؟! » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود .قَالَ : قَالَ رسولُ الله ﷺ : « **أيُّكُم مَالُ وَارِثِهِ أحبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ** ؟ » قالوا : يَا رسول اللهِ ، مَا مِنَّا أحَدٌ إلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ . قَالَ : « **فإنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وارِثِهِ مَا أَخَّرَ** » رواه البخاري .

قال تعالى (ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَملاً) .

سميت باقيات لأنها تبقى للإنسان .

عن عائشة رضي الله عنها : أنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ : « **مَا بَقِيَ مِنْهَا** ؟ » قالت : مَا بَقِيَ مِنْهَا إلاَّ كَتِفُها . قَالَ : « **بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا** » رواه الترمذي ، وقال : « حديث صحيح » .

ومعناه : تَصَدَّقُوا بِهَا إلاَّ كَتِفَها . فَقَالَ : بَقِيَتْ لَنَا في الآخِرَةِ إلاَّ كَتِفَهَا .

وقال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَج فيقول الله، عَزَّ وجل، [له] أين ما جمعت؟ فيقول يا رب، جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول: فأين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدم شيئا، وتلا هذه الآية وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) . بذج : هو ولد الضأن أي يؤتي به وهو في غاية الضعف والذل .

والناس رأوا بأم أعينهم من يملك الملايين ، ومن يملك أموال لا يحصيها إلا رب العالمين ، ومع ذلك ماتوا وراحوا .

(**وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ**) تقريع وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدار الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثَمّ معاد .

(**لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ**) أي : لقد انقطع ما بينكم من الوُصُلات والأسباب والوسائل .

قال ابن كثير : قُرئ بالرفع، أي شملكم، وقُرئ بالنصب، أي: لقد انقطع ما بينكم من الوُصُلات والأسباب والوسائل .

(**وَضَلَّ عَنْكُمْ**) أي : وغاب عنكم وذهب .

(**مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**) من رجاء الأصنام ، كما قال تعالى (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) .

وقال تعالى (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ) .

وقال تعالى (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) .

قال الشنقيطي : ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْأَنْدَادَ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا فِي الدُّنْيَا تَضِلُّ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَنْقَطِعُ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا مِنَ الصِّلَاتِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَوْضَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا ،.

كَقَوْلِهِ (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) .

وَقَوْلِهِ (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) .

وَقَوْلِهِ (إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) .

وَقَوْلِهِ (أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ) .

الفوائد :

١-إثبات الحشر .

٢- أن الإنسان يحشر حفاة عراة .

٣- أن الإنسان لا ينفعه في ذلك اليوم إلا عمله الصالح .

٤-يوم القيامة يظهر كذب من عبد غير الله .

٥-أن الصلاة والقرابات تنقطع يوم القيامة .

٦- يوم القيامة لا ينفع أهل الشرك معبوداتهم ونذهب عنهم وتتركهم . **الاثنين/٢٧/٢/١٤٣٥هـ**

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦))

[الأنعام : ٩٥- ٩٦] .

(**إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى**) يبيّن تعالى في هذه الآيات عجائب قدرته وعظيم صنعه الدالة على أنه المعبود وحده ، القادر على كل شيء فقال (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) أي : يفلق الحب يعني يشقها تحت الأرض لخروج النبات منها ، ويفلق ويشق النوى ، ويخرج منها الشجرة .

- والنوى : نواة جميع الأشجار ، مثل نواة المشمش ، ونواة الخوخ ونحو ذلك .
- **قال الرازي** : قوله تعالى (فَالِقُ الحب والنوى) قولان :

القول الأول : وهو مروي عن ابن عباس وقول الضحاك ومقاتل (فَالِقُ الحب والنوى) أي خالق الحب والنوى.

والقول الثاني : وهو قول الأكثرين : أن الفلق هو الشق .

(**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**) أي : يخرج النبات الحي من الحب النوى ، الذي هو كالجماد الميت ولهذا قال تعالى (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ..) ، ويخرج الإنسان من النطفة وهي ميتة، ويخرج الدجاجة من البيضة وهي ميتة، والنبات يخرج من الحبة وهي ميتة ، والشجرة تخرج من النواة وهي ميتة.

ويمكن نحمل الحياة على المجاز فنقول : يخرج الابن المؤمن من الأب الكافر ، والمؤمن من الضال .

(**وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ**) يخرج النطفة وهي ميتة من الحي وهو الإنسان ، والبيضة وهي ميتة تخرج من الحي وهي الدجاجة .

وبالمجاز : نقول : يخرج الابن الكافر من الأب المؤمن ، والضال من المهتدي .

قيل : يخرج الدجاج من البيضة ، وقيل : يخرج الولد الصالح من الكافر والكافر من الصالح .

(**ذَلِكُمُ اللَّهُ**) أي : فاعل هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له .

(**فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**) أي : فكيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون مع الله غيره .

(**فَالِقُ الْإِصْبَاحِ**) قال الطبري : شق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده .

- **قال ابن كثير** : فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح ، فيضيء الوجود ، ويستنير الأفق ، ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه ، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه .

(**وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً**) أي : يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون .

كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ).

وقال تعالى (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

وقال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ) .

وقال تعالى (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

(**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً**) أي : يجريان بحساب مقنّن مقدر لا يتغير ولا يضطرب ، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء ، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) .

- **قال السعدي** : بهما تعرف الأزمنة والأوقات ، فتنضبط بذلك أوقات العبادات ، وآجال المعاملات ، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر وتناوبهما واختلافهما لما عرف ذلك عامة الناس .

وقال تعالى (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) .

وقال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) .

ذَلِكَ) المذكور من فلْق الحب عن السنبل ، والنوى عن النخل ، وفلق الصبح عن ضوء النهار ، وجعْل الليل ساجياً مظلماً ملائماً للسكون ، وتسيير الشمس والقمر بحسبان متقن .

(**ذلك تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ**) أي : الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف ، العليم بكل شيء ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

العزيز : اسم من أسماء الله وهو : العزيز ، وهو متضمن لصفة العزة الكاملة لله ، **وهي ثلاثة أنواع** :

- **عزة القدْر** : بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم ، كما قال النبي ﷺ (السيد الله) .
- **وعزة القهر** : بمعنى أن الله القاهر لكل شيء ، لا يُغلب ، كما قال تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) .
- **وعزة الامتناع** : بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص .

- **قال السعدي** : (العزيز) الذي له العزة كلها : عزة القوة ، وعزة الغلبة ، وعزة الامتناع ، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات ، وقهر جميع الموجودات ، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته .

- **الآثار المترتبة على معرفة هذا الاسم :**

أولاً : أن اسمه سبحانه (العزيز) يستلزم توحيده وعبادته وحده لا شريك له ، إذ الشركة تنافي كمال العزة .

ثانياً : ومن كمال العزة تبرئته سبحانه من كل سوء وتنزيهه من كل شر ونقص ، قال ابن القيم : ومن تمام عزته : براءته عن كل سوء وشر وعيب ، فإن ذلك ينافي العزة التامة .

ثالثاً : من كمال عزته سبحانه نفاذ حكمه وأمره في عباده وتصريف قلوبهم على ما يشاء ، وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله ، وهذا يجعل العبد خائفاً من ربه سبحانه ، لائذاً بجنابه معتصماً به متبرئاً من الحول والقوة ذليلاً حقيراً بين يدي ربه سبحانه .

رابعاً : أن الإيمان بهذا الاسم الكريم يثمر العزة في قلب المؤمن ، ومهما ابتغى العبد العزة عند غير الله وفي غير دينه فلن يجدها ولن يجد إلا الذل والضعف والهوان كما قال تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً) . والشعور بهذه العزة تثمر التعالي على الباطل وأهله وعدم الاستكانة لهم مهما تسلطوا على العبد .

خامساً : أن الإيمان بهذا الاسم يثمر عدم الركون إلى شيء من هذه الدنيا الفانية وجعلها مصدر العزة والقوة ، فكم رأينا وسمعنا من كثير من الناس اغتر بعضهم بماله أو جاهه أو ولده أو سلطانه ومنصبه فكانت كلها سبباً في إذلاله وشقائه .

سادساً : من أسباب العزة : العفو والتواضع والذلة للمؤمنين ، قال تعالى في وصف عباده الذين يحبهم ويحبونه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقال ﷺ (... وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً) رواه مسلم .

(**الْعَلِيم**) الذي وسع علمه كل شيء ، العالم بالسرائر والضمائر ، لا تخفى عليه خافية .

– **قال ابن كثير**: وكثيرًا ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم، كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن في أول سورة (حم) السجدة، قال (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ).

وقال في التسهيل : قوله تعالى (ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم) ما أحسن ذكر هذين الاسمين هنا لأن العزيز يقلب كل شيء ويقهره ، وهو قد قهر الشمس والقمر وسخرهما كيف شاء ، والعليم لما في تقدير الشمس والقمر والليل والنهار من العلوم والحكمة العظيمة وإتقان الصنعة.

فائدة :

الله عز وجل يستدل على ألوهيته بتوحيد الربوبية .

قال تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ . ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ) .

(قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ) .

الفوائد :

١- عظم قدرة الله .

٢- أن المستحق للعبادة هو الخالق البارئ ، وهو الله .

٣- من لا يخلق لا يستحق العبادة .

٤- قدرة الله في إخراج الحي من الميت والميت من الحي .

٥- أن كل شيء بالكون مقدر منظم من العزيز العليم .

٦- إثبات العزة الكاملة لله .

٧- عموم علم الله تعالى .

(وَهُوَ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَـدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَـدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)) .
[الأنعام : ٩٧] .

(**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**) أي : خلق لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات الليل في البر والبحر .

- والنجوم : هي الكواكب التي ترى في السماء ، قيل : سمي النجم نجماً لأنه يطلع

قال البخاري في صحيحه ، قال قتادة : (خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به) .

- خلق الله هذه النجوم لحكم :

الأولى : زينة للسماء .

قال تعالى (وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِير) .

وفي هذه الآية إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا .

وقال تعالى (إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِب).
(وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ) .

الثانية : **رجوماً للشياطين** ، أي لشياطين الجن الذين يسترقون السمع .

كما في الآية السابقة (وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ) .

قال تعالى (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) .

الثالثة : **علامات يهتدى بها** .

قال تعالى (وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡـــمِ هُمۡ يَهۡتَدُون) .

فقوله (علامات) أي دلالات على الجهات والبلدان ونحو ذلك ، كما قال تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) .

(**قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ**) أي : قد بيّنا ووضحنا الدلالات الواضحة على قدرتنا وكمالنا ، وأنه ليس لأحد يعبد غيرنا .

(**لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**) أي : يعقلون ويعرفون الحق ويجتنبون الباطل .

- وإنما خصّ القوم الذين يعلمون لأنهم هم المنتفعون بها، ومن أساليب القرآن العظيم: أن يُخصص بالكلام المنتفع به كقوله (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) وهو مذكر للأسود والأحمر ، وكقوله (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ...) وهو منذر لجميع الناس .

الفوائد :

١- حكمة الله في خلق النجوم .

٢- رحمة الله بعباده وتيسيره لهم أمورهم .

٣- أن لكل شيء خلقه الله حكمة .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)) .
[الأنعام : ٩٨] .

(**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**) يبين الله فيه هذه الآيات بعض البراهين الدالة على أنه الرب المعبود وحده ، ومن ذلك أنه خلق جميع الآدميين من نفس واحدة وهو : أبوهم آدم عليه السلام / وأمهم امرأة واحدة ، مع اختلاف أشكالهم وألوانهم وألسنتهم .

- وفي ذلك إبداع عظيم .
- وأصل الإنشاء : الإبراز من العدم إلى الوجود .
- والبشر منهم من خلق من دون ذكر ولا أنثى وهو آدم ، ومنهم من خلق من ذكر دون أنثى وهي حواء ، ومنهم من خلق من أنثى دون ذكر وهو عيسى ، ومنهم من خلق من ذكر وأنثى وهو سائر البشر .

(**فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ**) قيل : (فمستقر) أي : فالأرحام ، (ومستودع) أي : في الأصلاب ، وهذا قول أكثر المفسرين ، كما نسبه القرطبي ، ورجحه ابن كثير . ، يعني أول نشأتكم من نفس واحدة ، ثم صار بعد ذلك النُطف يقرها الله في الأصلاب ، ثم ينقلها فتستقر في الأرحام ، فيخرج منها بشراً سوياً .

وقيل : المستقر : الاستقرار على وجه الأرض ، والمستودع : الاستيداع في بطن الارض في القبور كما قال تعالى (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً . أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً) .والكفات محل الكفت ، والكفت لغة الضم ، أي : محلاً يضمهم أحياء على ظهرها ويضمهم أمواتاً في بطنها .

(**قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**) التفصيل : البيان والإيضاح وإزالة الإجمال ، والمراد بالآيات هنا ، آيات هذا القرآن مع ما تضمنته من آياته الكونية الدالة على كمال قدرته .

- وهذه الآيات تشير إلى براهين البعث الثلاثة الكثيرة في القرآن :
- منها : إيجادنا أولاً .

ومن قدر على هذا الإيجاد الأول فلا شك في أنه قادر على البعث مرة أخرى بعد الموت ، لأن عامة العقلاء متفقون على إعادة الفعل اسهل من ابتدائه .

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وقال تعالى (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) وقال تعالى (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) .

ومنها : خلقه للسماوات وتزيينها بالنجوم .وخلقه الأرض .

ومن خلق هذا العالم العلوي والسفلي فهو قادر على بعث الإنسان الصغير المسكين ، لأن من خلق الأكبر الأعظم فهو قادر على خلق الأصغر من باب أولى ، ولهذا كثر في القرآن الاستدلال على البعث بإيجاد السماوات والأرض .

قال تعالى (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) .

الفوائد :

١- حكمة الله في خلق جميع الناس من نفس واحدة .

٢- أن الأرض للقرار لوقت معين ثم موت في الأرض .

٣- رحمة الله بعباده حيث فصل لهم ما يحتاجون إليه ، ولكي يؤمنوا به تعالى .   الخميس/١/٣/١٤٣٥هـ

(وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

[الأنعام : ٩٩] .

(**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**) أي : بقدر مباركًا، رزقًا للعباد وغياثًا للخلائق، رحمة من الله لخلقه .

- في هذا تذكير لنعمة أخرى من نعمه سبحانه الجليلة المنبئة عن كمال قدرته عز وجل وسعة رحمته ،

(**فَأَخْرَجْنَا بِهِ**) الباء سببية ، أي : بسبب هذا الماء وهو المطر النازل ، كَمَا قَالَ (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) .

(**نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ**) أي : جميع أصناف النباتات مما يأكله الناس والأنعام كما قال تعالى (كلوا وارعوا أنعامك) فينبت للناس أنواع النبات مما هو قوت كالقمح والشعير ونحوهما ، ومما هو فاكهة ، وينبت ما هو مرعى لحيواناتهم .

- **قال السعدي** : وهذا من أعظم مننه العظيمة، التي يضطر إليها الخلق، من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعا وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شيء، مما يأكل الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله، وانبسطوا برزقه،وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجدب واليأس والقحط، ففرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون وبه يرتعون، مما يوجب لهم، أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم، وعبادته والإنابة إليه، والمحبة له.

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى : (نبات كل شيء) قولان.

أحدهما : نبات كل شيء من الثمار ، لأن كل ما ينبت فنباته بالماء.

والثاني : رزق كل شيء وغذاؤه.

- كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ) .

وقال تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) .

وقال تعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) .

- والمراد بالسماء هنا العلو ، وذلك أن السماء يُطلق على معنيين : المعنى الأول : العلو ، كقوله تعالى (أنزل من السماء ماء) المراد بالسماء هنا العلو ، لأن المطر ليس ينزل من السماء السقف ، بل ينزل من العلو ، المعنى الثاني : المراد بالسماء السقف كما في قوله تعالى (وجعلنا السماء سقفاً) .والسماء بناء) .

(**فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ**) أي : من نبات كل شيء .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى : (فأخرجنا منه) قولان.

أحدهما : من الماء ، أي : به.

والثاني : من النبات.

(**خَضِراً**) المراد به : الذي ينبت أخضر كالبقول

(**نُخْرِجُ مِنْهُ**) أي : من ذلك الخضر النابت .

(**حَبّاً مُتَرَاكِباً**) يعلو بعضه بعضاً كالسنبل ، فإنك تجد السنبلة يتراكب فيها الحب ويعلو بعضه بعضاً .

● **قال السعدي** : بعضه فوق بعض، من بر، وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك، من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حبوبه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

وَمِنَ النَّخْلِ) **أطلع الله** .

مِنْ طَلْعِهَا) وهو الكفرى، والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء .

قِنْوَانٌ) أي: جمع قِنو وهي عُذُوق الرّطب .

(**دَانِيَةٌ**) أي: قريبة من المتناول .

● **قال السعدي** : أي: قريبة سهلة التناول، متدلية على من أرادها، بحيث لا يعسر التناول من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كرب ومراقي، يسهل صعودها.

(**وَ**) أخرج تعالى بالماء .

(**جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ**) أي: ونخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا، كما امتن تعالى بهما على عباده، في قوله (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) وكان ذلك قبل تحريم الخمر ، وقال (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ) .

(**وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**) قال قتادة وغيره: يتشابه في الورق، قريب الشكل بعضه من بعض، ويتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً .

● **قال السعدي** : يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبها في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك، إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه،يشبه بعضه بعضاً ، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد، ويتفكهون، ويقتاتون، ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به .

(**انْظُرُوا**) نظر اعتبار وتفكر .

(**إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ**) أي: نضجه، قاله البراء بن عازب، وابن عباس، والضحاك، وعطاء الخراساني، والسُّدِّي، وقتادة، وغيرهم.

أي: فكروا في قُدْرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حَطَبًا صار عِنبًا ورطبًا وغير ذلك، مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح، كما قال تعالى (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ) .

● **قال السعدي** : أي: انظروا إليه، وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبرا وآيات، يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده، وكمال اقتداره وعنايته بعباده.

ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر وليس كل من تفكر، أدرك المعنى المقصود ، ولهذا قال :

(**إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ**) أي: دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته .

(**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) أي: يصدقون به، ويتبعون رسله.

الفوائد :

١- إثبات علو الله تعالى المطلق .

٢- رحمة الله بعباده بإنزال الماء من السماء .

٣- مصداق قوله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) .

٤-الحث على الاعتبار والنظر والتفكر في آيات الله ومخلوقاته الدالة على عظمة خلقه ، واستحقاقه للعباده .

٥-فضل الإيمان ، وأنه سبب للتفكر والتدبر .

(**وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)**) .

[الأنعام : ١٠٠- ١٠١] .

(**وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ**) هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا في عبادة الله أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم.

فإن قيل: فكيف عُبدت الجن وإنما كانوا يعبدون الأصنام؟

فالجواب: أنهم إنما عبدوا الأصنام عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك .

كما قال تعالى (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا) .

وقال تعالى (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي [وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً) .

وقال إبراهيم لأبيه (يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) .

وقال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيم) .

وتقول الملائكة يوم القيامة (سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) .

ولهذا قال تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ) أي: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره، كما قال إبراهيم (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) .

ومعنى الآية: أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده ، فلهذا يجب أن يُفرَد بالعبادة وحده لا شريك له.

- قوله تعالى (وخلقهم) الله - عز وجل - ينبه كثيراً على هذا المعنى، ويذكر المشركين بذلك، وأن الخالق هو المستحق للعبادة:

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) .

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

وقال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

وكما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) ولم يقل إلا الله لفائدتين :

الأولى : الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة ، لأنه كما أنه متفرد بالخلق ، فيجب أن ينفرد بالعبادة .

والثانية : الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام ، ولأنها لم تفطركم حتى تعبدوها ، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات .

- قال بعض العلماء : إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات ، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم ، كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) .

وقيل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم .

(**وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ**) ينبه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولدا، كما يزعم من قاله من اليهود في العزيز، ومن قال من النصارى في المسيح وكما قال المشركون من العرب في الملائكة: إنها بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

ومعنى قوله تعالى (وَخَرَقُوا) أي: واختلقوا وائتفكوا، وتخرّصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وَخَرَقُوا) يعني: أنهم تخرصوا.

كما قال تعالى (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) .

وقال تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ) .

- فادعاء لله الولد أمر خطير وكبير .

كما قال تعالى (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً) .

وقال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً) .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (قَالَ اللَّهُ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً) رواه البخاري .

وقال ﷺ (لا أحد أصبر على اذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم) متفق عليه

(**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ**) أي: تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد، والنظراء والشركاء.

- وما تضمنته هذه الآية الكريمة : من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به ، نزه نفسه عن ذلك ، معلماً خلقه في كتابه أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به ، جاء موضحاً في آيات كثيرة :

كقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ) .

وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) .

وقوله تعالى (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ) .

وقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) .

وقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ) .

وقوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً) .

وقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

وقوله تعالى (سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ) .

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أي: مبدع السموات والأرض وخالقهما ومنشئهما و[محدثها] على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسُّدِّي .

أَنَّى يَكُـــونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَــةٌ) أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي: والولد إنما يكون متولداً عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد .

- والله منزه عن الولد لأمور متعددة :

أولاً : لأنه مالك كل شيء ، والمالك لا بد أن يكون المملوك مبايناً له في كل الأحوال .

ثانياً : أنه ليس له زوجة ، والابن إنما يكون غالباً ممن له زوجة ، كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ) .

ثالثاً : أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء ، أي : بقاء النوع باستمرار النسل ، والرب عز وجل ليس بحاجة إلى ذلك ، لأنه الحي الذي لا يموت .

رابعاً : أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره، والله سبحانه وتعالى غني، وقد أشار إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني) .   [قاله الشيخ ابن عثيمين] .

قال الرازي: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له ، وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم (ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق الذي فِيهِ يَمْتَرُون مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سبحانه إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون)وقال أيضاً في آخر هذه السورة (وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إِن كُلُّ مَن فِي السموات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً) .

(**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُــوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**) فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه؟ وهو الذي لا نظير له فأنى يكون له ولد؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

الفوائد :

١- تحريم جعْل شريك لله تعالى .

٢-أن عبادة غير الله من الأصنام والأوثان والكواكب وغيرها من طاعة الشيطان .

٣- أن الله خالق كل شيء ، فكيف يعبد معه غيره ؟

٤- عظم ادعاء أن لله الولد .

٥-وجوب تنزيه الله عن كل عيب ونقص وعن مشابهة المخلوقين .

٦- عظمة السماوات والأرض وأنها من أعظم مخلوقات الله .

٧-أن الله غني له الغناء الكامل .

٨-عموم علم الله بكل شيء . **الثلاثاء/١١/٤/١٤٣٥هـ**

(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢))
[الأنعام : ١٠٢] .

(**ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ**) أي: الذي خلق كلّ شيء ولا ولد له ولا صاحبة .

(**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**) أي : لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى .

(**خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**) فهو المستحق للعبادة .

مراتب القدر أربعة :

الركن الأول : العلم الشامل لله تعالى ، فالله تعالى عالم بالعباد بآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم ، ومن منهم للجنة ، ومن منهم للنار .

قال تعالى (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) .

وقال تعالى (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) .

وقال تعالى (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) .

وقال تعالى (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) .

الركن الثاني : الإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء .

قال تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) .

وقال ﷺ (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء). رواه مسلم

الركن الثالث : الإيمان بمشيئة الله الكاملة ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

قال تعالى (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون) .

الركن الرابع : الإيمان بأن الله خالق كل شيء .

قال تعالى (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) .

وقال تعالى (الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ) .

(**فَاعْبُدُوهُ**) أي : فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا

نظير ولا عديل .

قال ابن عاشور : وجملة (فاعبدوه) مفرّعة على قوله : (ربّكم لا إله إلاّ هو) وقد جعل الأمر بعبادته مفرّعاً على وصفه بالرّبوبيّة والوحدانيّة لأنّ الربوبيّة مقتضية استحقاق العبادة، والانفرادُ بالربوبيّة يقتضي تخصيصه بالعبادة، وقدْ فهم هذا التّخصيص من التّفريع .

فالذي يخلق هو المستحق للعبادة .

كما قال تعالى (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) .

وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) .

(**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**) أي: حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار.

الفوائد :

١-وجوب عبادة الله تعالى .

٢-أن الخالق هو المستحق للعبادة .

٣-أنه لا إله بحق إلا الله تعالى .

(**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)**) .

[الأنعام : ١٠٣] .

(**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**) أي : لا تحيط به .

- **قال ابن الجوزي** : وفي (الأبصار) قولان.

أحدهما : أنها العيون ، قاله الجمهور.

والثاني : أنها العقول ، رواه عبد الرحمن ابن مهدي عن أبي حصين القارئ. (زاد المسير) .

قال ابن كثير : فيه أقوال للأئمة من السلف:

أحدها: لا تدركه في الدنيا، وإن كانت تراه في الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب. [وفي رواية: على الله] فإن الله يقول (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ) .

قال الشنقيطي : قوله تعالى (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ) هذه الآية الكريمة توهم أن الله تعالى لا يرى بالأبصار، وقد جاءت آيات أخر تدل على أنه يرى بالأبصار :

كقوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ، وكقوله (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) ، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم .

وكذلك قوله (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) على أحد القولين .

وكقوله تعالى في الكفار (كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)، يفهم من دليل خطابه أن المؤمنين ليسوا محجوبين عن ربهم والجواب من ثلاثة أوجه :

الأول : أن المعنى: لا تدركه الأبصار أي في الدنيا فلا ينافي الرؤية في الآخرة.

الثاني : أنه عام مخصوص برؤية المؤمنين له في الآخرة، وهذا قريب في المعنى من الأول.

الثالث : وهو الحق: أن المنفي في هذه الآية الإدراك المشعر بالإحاطة بالكنه، أما مطلق الرؤية فلا تدل الآية على نفيه بل هو ثابت بهذه الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة واتفاق أهل السنة والجماعة على ذلك.

وحاصل هذا الجواب أن الإدراك أخص من مطلق الرؤية ، لأن الإدراك المراد به الإحاطة، والعرب تقول: رأيت الشيء وما أدركته ، فمعنى لا تدركه الأبصار: لا تحيط به كما أنه تعالى يعلمه الخلق ولا يحيطون به علماً ، وقد اتفق العقلاء على أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، فانتفاء الإدراك لا يلزم منه انتفاء مطلق الرؤية ، مع أن الله تعالى لا يدرك كنهه على الحقيقة أحد من الخلق، والدليل على صحة هذا الوجه ما أخرجه الشيخان من حديث أبي موسى مرفوعاً (حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) ، فالحديث صريح في عدم الرؤية في الدنيا ويفهم منه عدم إمكان الإحاطة مطلقاً .

والحاصل أن رؤيته تعالى بالأبصار جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة ؛ لأن كل موجود يجوز أن يرى عقلاً ، وأما في الشرع فهي جائزة وواقعة في الآخرة ممتنعة في الدنيا ، ومن أصرح الأدلة في ذلك ما رواه مسلم وابن خزيمة مرفوعاً : إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا ، والأحاديث برؤية المؤمنين له يوم القيامة متواترة والعلم عند الله تعالى.

قال السعدي : قوله تعالى (لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ) لعظمته، وجلاله وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه، وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم. فإنه إذا نفى الإدراك، الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دل على أن الرؤية ثابتة.

فإنه لو أراد نفي الرؤية، لقال (لا تراه الأبصار)ونحو ذلك، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم.

(**وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**) أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه ، لأنه خلقها كما قال تعالى (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .

وقد يكون عبر بالأبصار عن المبصرين، كما قال السُّدِّي في قوله (لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَار) لا يراه شيء وهو يرى الخلائق.

وَهُوَ اللَّطِيفُ) اسم من أسماء الله تعالى .

ينتظم هذا الاسم في ثلاثة معاني :

أولاً : اللطيف: بعباده الرفيق بهم الذي يوصل إليهم مصالحهم بالطرق الخفية، التي لا يشعر بها العبد ، ولا يسعى فيها كقوله – سبحانه (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيز) .

ثانياً : اللطيف: الذي لطف علمه ودق حتى أحاط بالخفيات من الأمور ، فمن دقة علمه وعظيم إحاطته بخفي ودقيق المعلومات أنه يرى النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء.

ثالثاً : الذي لطف عن أن يحاط به أو يدرك بالكُنه(بالحقيقة) والكيفية، يقول تعالى: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ . وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) فقد أحاط سبحانه بجميع الموجودات، ولم يحط به علماً أحد من خلقه، وإن علموا شيئاً من أسمائه وصفاته، مما تفضل عليهم بتعليمهم إياه، إلا أنهم لم يعلموا حقائقها، ولا كنه ذاته العلية تعالى وتعاظم سبحانه.

- **قال السعدي** : اللطيف : الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى "الخبير" وبمعنى "الرؤوف .

- لم يقترن اسم الله اللطيف إلا باسمه الخبير ، ويرجع السبب ، لأن الاسمين يتلاقيان في المعنى ... فالله تعالى يطلّع على بواطن الأمور ويلطف بعباده، فلا يُقدِّر لهم إلا ما فيه الخير .. وقد يخفى على العبد هذا الخير، فيُقابل قضاء الله بالاعتراض ، والله تعالى يقول (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) فلا يلطف بك إلا من عرفك وكان خبيراً بمواطن ضعفك وقوتك وبكل أحوالك.

- **الآثار المترتبة على الإيمان بهذا الاسم :**

أولاً : محبة الله .

ثانياً : التوكل على الله تعالى .

ثالثاً : حسن الظن بالله تعالى .

رابعاً : الطمأنينة والسكينة التي يسكبها هذا الاسم الكريم في قلب المؤمن .

خامساً : الرضا بما يختاره سبحانه وتعالى .

(**الْخَبِيرُ**) بواطن الأمور .

الفوائد :

١-أن الله سبحانه وتعالى لا يحاط به لعظمته وجلاله .

٢- أن الله يرى في الآخرة .

٣- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : اللطيف والخبير .

(قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) .

[الأنعام : ١٠٤- ١٠٥] .

(**قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ**) البصائر: هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول ﷺ .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ) أي آيات وبراهين يُبْصَر بها ويُستدَلّ ؛ جمع بصيرة وهي الدّلالة.

ووصف الدلالة بالمجيء لتفخيم شأنها ؛ إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس ؛ كما يقال : جاءت العافية وقد انصرف المرض ، وأقبل السعود وأدبر النحوس.

- البصيرة نور القلب الذي يستبصر به كما أن البصر نور العين الذي به تبصر .

(**فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ**) يعني فمن عرف الآيات واهتدى بها إلى الحق (فلنفسه) يعني فلنفسه أبصر ولها عمل لأنه يعود نفع ذلك عليه .

كقوله تعالى (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) .

(**وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا**) يعني ومن جهل ولم يعرف الآيات ولم يستدل بها إلى الطريق ، وزجر فلم ينزجر ، وبيّن له الحق فما انقاد له ولا تواضع (فعليها) يعني فعلى نفسه عمى ولها ضر ،وكان وبال ذلك العمى عليه لأن الله تعالى غني عن خلقه .

قال تعالى (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور) .

(**وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ**) أي : بحافظ ولا رقيب ، بل أنا مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

(**وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ**) أي : ننوعها ونوضحها للناس .

(**وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ**) أي : وليقول المشركون درست يا محمد في الكتب وقرأت فيها وجئت بهذا القرآن ، واللام لام العاقبة .

● **قال الشنقيطي** : يعني ليزعموا إن النّبي ﷺ إنما تعلم هذه القرآن بالدرس والتعليم من غيره من أهل الكتاب، كما زعم كفار مكة أنه ﷺ تعلم هذا القرآن من جبر ويسار، وكانا غلامين نصرانيين بمكة، وقد أوضح الله تعالى بطلان افترائهم هذا في آيات كثيرة كقوله (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)، وقوله (فَقَالَ إِنْ هذآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هذآ إِلاَّ قَوْلُ البشر سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)، ومعنى يؤثر: يرويه محمد ﷺ عن غيره في زعمهم الباطل، وقوله (وَقَالَ الذين كفروا إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افتراه وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض) الآية. إلى غير ذلك من الآيات. وفي قوله (دَرَسْتَ) ثلاث قراءات سبعيات.

قرأه ابن كثير ، وأبو عمر " دارست " بألف بعد الدال مع إسكان السين وفتح التاء من المفاعلة بمعنى : دارست أهل الكتاب ودارسوك حتى حصلت هذا العلم.

وقرأه بقية السبعة غير ابن عامر " درست " بإسقاط الألف ، مع إسكان السين وفتح التاء أيضاً ، بمعنى درست هذا على أهل الكتاب حتى تعلمته منهم.

وقرأه ابن عامر " دَرَسَتْ " بفتح الدال والراء والسين وإسكان التاء على أنها تاء التأنيث ، والفاعل ضمير عائد إلى الآيات المذكورة في قوله ٠ وكذلك نُصَرِّفُ الآيات) .

قال القرطبي : وأحسن ما قيل في قراءة ابن عامر أن المعنى : ولئلا يقولوا انقطعت وانمحت ، وليس يأتي محمد ﷺ بغيرها. ا.هـ

وقال القرطبي (وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ) الواو للعطف على مضمر أي نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست وقيل (وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ) صرفناها.

قال مقيده : عفا الله عنه ومعناهما آيل إلى شيء واحد ويشهد له القرآن في آيات كثيرة دالة على أنه يبين الحق واضحاً في هذا الكتاب ليهدي به قوماً ، ويجعله حجة على آخرين كقوله (لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً) .

وقوله (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) .

وقوله (لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب وَيَزْدَادَ الذين آمنوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُوتُواْ الكتاب والمؤمنون وَلِيَقُولَ الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والكافرون مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ) .

وكما قال هنا (وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) فالأشقياء يقولون : تعلمته من البشر بالدراسة وأهل العلم ، والسعادة يعلمون أنه الحق الذي لا شك فيه.

(**وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**) أي: ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه. فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء. كما قال تعالى (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ) وقال تعالى (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) .

وقال تعالى (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ

آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ) .

وقال تعالى (وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا) .

وقال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأنه يضل به من يشاء ويهدي به من يشاء: ولهذا قال هاهنا (وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون) . (تفسير ابن كثير) .

الفوائد :

١-أن الله أقام الحجة على عبادة بإرسال الرسل والآيات .

٢-رحمة الله بخلقه ، حيث جاء بالآيات التي تدل على صدق الأنبياء .

٣-أن من اهتدى فلنفسه .

٤- أن الله غني عن العالمين .

٥-أن مهمة الرسل التبليغ وليس الهداية .

٦- حكمة الله في تصريف الآيات وتنويعها .

٧- ليس كل أحد ينتفع بالآيات .

٨- فضل العلم . الأحد : ١٤ / ٥ / ١٤٣٥هـ

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦)) .

[الأنعام : ١٠٦] .

(**اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**) يقول تعالى آمرا لرسوله ﷺ ولمن اتَّبع طريقته (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) أي: اقتد به، واقتف أثره، واعمل به؛ فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مِرْية فيه ، لأنه لا إله إلا هو .

● **قال الخازن** : الخطاب للنبي ﷺ يعني اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك وهو القرآن فاعمل به وبلغه إلى البادي ولا تلتفت إلى قول من يقول : دارست أو درست.

وفي قوله اتبع ما أوحي إليك من ربك تعزية لقلب النبي ﷺ وإزالة الحزن الذي حصل له بسبب قولهم درست .

● **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (اتبع مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) استئناف في خطاب النّبي عليه الصّلاة والسّلام لأمره بالإعراض عن بهتان المشركين وأن لا يكترث بأقوالهم ، فابتداؤه بالأمر باتّباع ما أوحي إليه يتنزّل منزلة المقدّمة للأمر بالإعراض عن المشركين ، وليس هو المقصد الأصلي من الغرض المسوق له الكلام ، لأنّ اتّباع الرّسول ﷺ ما أوحي إليه أمر واقع بجميع معانيه ؛ فالمقصود من الأمر الدّوام على اتّباعه.

والمعنى : أعرض عن المشركين اتّباعاً لما أنزل إليك من ربّك ، والمراد بما أوحي إليه القرآن. (تفسير ابن عاشور) .

(**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**) لا إله بحق إلا هو سبحانه .

(**وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**) أي: اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم.

قال ابن عاشور : والمراد بالإعراض عن المشركين الإعراض عن مكابرتهم وأذاهم لا الإعراض عن دعوتهم ، فإنّ الله لم يأمر رسوله ﷺ بقطع الدّعوة لأي صنف من النّاس ، وكلّ آية فيها الأمر بالإعراض عن المشركين فإنّما هو إعراض عن أقوالهم وأذاهم ، ألا ترى كلّ آية من هذه الآيات قد تلتْها آيات كثيرة تدعو المشركين إلى الإسلام والإقلاع عن الشّرك كقوله تعالى في سورة النساء (فأعرض عنهم وعِظْهُم) .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين) فقيل : المراد ترك المقابلة ، فلذلك قالوا إنه منسوخ ، وهذا ضعيف لأن الأمر بترك المقابلة في الحال لا يفيد الأمر بتركها دائماً ، وإذا كان الأمر كذلك لم يجب التزام النسخ.

وقيل المراد ترك مقابلتهم فيما يأتونه من سفه ، وأن يعدل صلوات الله عليه إلى الطريق الذي يكون أقرب إلى القبول وأبعد عن التنفير والتغليظ .

الفوائد :

١- وجوب متابعة الوحي والعمل به .

٢- أن الرسول ﷺ عبد يؤمر وينهى .

٣-وجوب توحيد الله .

٤- الإعراض عن المشركين وعدم الانشغال بهم .

(**وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧)**) .

[الأنعام : ١٠٧] .

(**وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ**) أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

(**وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً**) أي: حافظا تحفظ أعمالهم وأقوالهم .

(**وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ**) أي: موكل على أرزاقهم وأمورهم (إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ) كما قال تعالى (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ) ، وقال (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) .

الفوائد :

١- أن الله له الحكمة الكاملة ، في هدية من يشاء وإضلال من يشاء .

٢- أن الهداية والإضلال بيد الله .

٣-أن الرسول ليس بيده هداية أحد من الخلق ، وإنما هو مبلغ ونذير .

(**وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٠٨)**) .

[الأنعام : ١٠٨] .

(**وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ**) يقول تعالى ناهيا لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين،

وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو.

- **قال ابن عاشور** : والمخاطب بهذا النّهي المسلمون لا الرّسول صلى الله عليه وسلم لأنّ الرّسول لم يكن فحّاشاً ولا سبّاباً لأنّ خُلقه العظيم حائل بينه وبين ذلك ، ولأنّه يدعوهم بما ينزل عليه من القرآن فإذا شاء الله تركه من وحيه الّذي ينزله ، وإنّما كان المسلمون لغيرتهم على الإسلام ربّما تجاوزوا الحدّ ففرطت منهم فرطات سبّوا فيها أصنام المشركين.

روى الطّبري عن قتادة قال : كان المسلمون يسبّون أوثان الكفّار فيردّون ذلك عليهم فنهاهم الله أن يستَسبّوا لربّهم .

وهذا أصحّ ما روي في سبب نزول هذه الآية وأوفَقُه بنظم الآية.

- **قال ابن كثير** : ومن هذا القبيل –وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها –ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: ملعون من سب والديه ، قالوا يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: "يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه". أو كما قال، عليه السلام .

- **قال القرطبي** : قال العلماء : حكمها باق في هذه الأمّة على كلّ حال ، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أنّه إنْ سبّ المسلمون أصنامه أو أمور شريعَته أن يَسُبّ هو الإسلام أو النّبي عليه الصّلاة والسّلام أو الله عزّ وجلّ لم يحلّ للمسلم أن يسبّ صُلبانهم ولا كنائسهم لأنّه بمنزلة البعث على المعصيّة أ . هـ ، أي على زيادة الكفر.

وليس من السبّ إبطال ما يخالف الإسلام من عقائدهم في مقام المجادلة ولكنّ السبّ أن نباشرهم في غير مقام المناظرة بذلك .

- **قال الشوكاني** : وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق ، والناهي عن الباطل ، إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم ، ومخالفة حق ، ووقوع في باطل أشد كان الترك أولى به ، بل كان واجباً عليه ، وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله ، المتصدين لبيانها للناس ، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه ، وتركوا غيره من المعروف.

- **قال ابن القيم** : وإذا تدبرت الشريعة وجدتها قد أتت بسد الذرائع إلى المحرمات وذلك عكس باب الحيل الموصلة إليها ، فالحيل وسائل وأبواب إلى المحرمات وسد الذرائع عكس ذلك فبين البابين أعظم تناقض والشارع حرم الذرائع وإن لم يقصد بها المحرم لإفضائها إليه فكيف إذا قصد بها المحرم نفسه .

فنهى الله تعالى عن سبع آلهة المشركين لكونه ذريعة إلى أن يسبوا الله سبحانه وتعالى عدوا وكفرا على وجه المقابلة .

وأخبر النبي ﷺ أن من أكبر الكبائر شتم الرجل والديه قالوا : وهل يشتم الرجل والديه قال : نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه .

ولما جاءت صفية رضي الله تعالى عنها تزوره ﷺ وهو معتكف قام معها ليوصلها إلى بيتها فرآهما رجلان من الأنصار فقال : على رسلكما إنها صفية بنت حيي فقالا : سبحان الله ! يا رسول الله فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً ، فسد الذريعة إلى ظنهما السوء بإعلامهما أنها صفية .

وأمسك ﷺ عن قتل المنافقين مع ما فيه من المصلحة لكونه ذريعة إلى التنفير وقول الناس : إن محمداً يقتل أصحابه .

وحرم القطرة من الخمر وإن لم تحصل بها مفسدة الكثير لكون قليلها ذريعة إلى شرب كثيرها .

ونهى الله سبحانه النساء أن : يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، فلما كان الضرب بالرجل ذريعة إلى ظهور صوت الخلخال الذي هو ذريعة إلى ميل الرجال إليهن نهاهن عنه .

وأمر الله سبحانه الرجال والنساء بغض أبصارهم لما كان النظر ذريعة إلى الميل والمحبة التي هي ذريعة إلى مواقعة المحظور .

(**كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**) أي: وكما زينا لهؤلاء القوم حبّ أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، ولله الحجة البالغة، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره.

- جاء في آية أخرى (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) فأضاف التزيين للشيطان ، وذلك من باب إضافة الشيء إلى سببه .

(**ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ**) أي : معادهم ومصيرهم .

(**فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) أي: يجازيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم) يتضمن وعداً جميلاً للمحسنين ووعيداً ثقيلاً للمسيئين.

قال ابن عاشور : قوله تعالى (إِلَى رَبِّهِم) والعدول عن اسم الجلالة إلى لفظ (ربّهم) لقصد تهويل الوعيد وتعليل استحقاقه بأنّهم يرجعون إلى مالكهم الذي خلقهم فكفروا نعمه وأشركوا به فكانوا كالعبيد الآبقين يطوِّفون ما يطوّفوّن ثمّ يقعون في يد مالكهم.

والإنباء : الإعلام ، وهو توقيفهم على سوء أعمالهم.

الفوائد :

١- تحريم سب الله .

٢- سد الذرائع .

٣-من عقوبة الله للإنسان أن يزين له سوء عمله .

٤- إثبات البعث .

٥-إثبات الحساب والجزاء .

٦- تهديد الكفار بيوم المعاد .

(**وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَمَا يُشْعِـرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٩)**)

[الأنعام : ١٠٩] .

(**وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**) يقول تعالى إخبارًا عن المشركين: إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيمانًا مؤكدة .

- الجَهد بالفتح هو المشقة ، والجُهد : الوسع ، تقول : بذلت جُهدي : أي وسعي ، وبلغ مني الجَهد : أي المشقة .

(**لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ**) أي: معجزة وخارق .

(**لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا**) أي: ليُصدقُنها .

قال الماوردي : هؤلاء قوم من مشركي أهل مكة حلفوا بالله لرسوله ﷺ لئن جاءتهم آية اقترحوها ليؤمنن بها ، قال ابن جريج : هم المستهزئون.

واختلف في الآية التي اقترحوها على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن تجعل لنا الصفا ذهباً.

الثاني : ما ذكره الله في آخر (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً) إلى قوله (كِتَاباً نَقْرَؤُهُ) فأمر الله نبيه حين أقسموا له أن يقول لهم (قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ) .

والثالث : أنه لما نزل قوله تعالى في الشعراء (إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُم لَهَا خَاضِعِينَ) قال المشركون : أنزلها علينا حتى نؤمن بها إن كنت من الصادقين ، فقال المؤمنون : يا رسول الله أنزلها عليهم ليؤمنوا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

(**قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ**) أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتًا وكفرًا وعنادًا، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجابكم، وإن شاء ترككم .

(**وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ**) قيل: المخاطب ب (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) المشركون، وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول لهم: وما يدريكم بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها ، وعلى هذا فالقراءة: "إنها إذا جاءت لا يؤمنون" بكسر "إنها" على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها .

وقيل: المخاطب بقوله (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) المؤمنون، أي: وما يدريكم أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز في (أَنَّهَا) الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم، وعلى هذا فتكون "لا" في قوله (أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ) صلة كما في قوله (مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ)، وقوله (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ) أي: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك وحرام أنهم يرجعون. وتقديره في هذه الآية: وما يدريكم -أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصا على إيمانهم -أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون .

الفوائد :

١- شدة عناد وتمرد المشركين .

٢-ذم الحلف كذباً .

٣-كذب هؤلاء المشركين ، فلقد جاءتهم الآيات والحجج البينات ولم يؤمنوا .

٤-أن الرسول مبلغ عن الله ، فليس بيده مجيء الآيات أو عدمها .

٥- حكمة الله في مجيء الآيات أو عدمها .

(**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)**) .

[الأنعام : ١٠٦] .

(**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ**) أي ونحوّل قلوبهم عن الايمان كما لم يؤمنوا بما أنزل من القرآن أول مرة.

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (ونقلِّب أفئدتهم وأبصارهم) .

التقليب : تحويل الشيء عن وجهه.

وفي معنى الكلام أربعة أقوال.

أحدها : لو أتيناهم بآية كما سألوا ، لقلبنا أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها ، وحُلْنا بينهم وبين الهدى ، فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما

رأوا قبلها ، عقوبة لهم على ذلك.

وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد.

والثاني : أنه جواب لسؤالهم في الآخرة الرجوع إلى الدنيا ؛ فالمعنى : لو رُدُّوا لحُلْنا بينهم وبين الهدى كما حُلْنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا ، روى هذا المعنى ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

● **وقال القرطبي** : (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

هذه آية مُشْكِلة ، ولا سِيّما وفيها (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) .

قيل : المعنى ونقلب أفئدتهم وأنظارهم يوم القيامة على لهب النار وحرِّ الجمر ؛ كما لم يؤمنوا في الدنيا.

(وَنَذَرُهُمْ) في الدنيا ، أي نمهلهم ولا نعاقبهم ؛ فبعض الآية في الآخرة ، وبعضها في الدنيا.

ونظيرها (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) فهذا في الآخرة ، (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) في الدنيا.

وقيل : ونقلب في الدنيا ؛ أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية ، كما حُلنا بينهم وبين الإيمان أوّل مرة ؛ لما دعوتَهم وأظهرتَ المعجزة.

وفي التنزيل (وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المرءِ وَقَلْبِهِ) ، والمعنى: كان ينبغي أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم؛ فإذا لم يؤمنوا كان ذلك بتقليب الله قلوبَهم وأبصارهم.

● **وقال ابن القيم** : واختلف في قوله (كما لم يؤمنوا به أول مرة) .

فقال كثير من المفسرين : المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة .

قال ابن عباس في رواية عطاء عنه : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي قال وهذا كقوله (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) .

وقال آخرون المعنى : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم .

وهذا معنى حسن ، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل كقوله (وأحسن كما أحسن الله إليك) .

وقوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم) والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه : الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر ، والتقليب تحويل الشيء من وجه إلى وجه ، وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية ، ووصولهم إليها كما سألوا أن يؤمنوا إذا جاءتهم ، لأنهم رأوها عياناً ، وعرفوا أدلتها ، وتحققوا صدقها ، فإذا لم يؤمنوا كان تقليباً لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه

(**وَنَذَرُهُمْ**) أي : نتركهم .

(**فِي طُغْيَانِهِمْ**) في كفرهم وضلالهم .

(**يَعْمَهُون**) يتخبطون ويترددون .

الفوائد :

١- خطر رد الحق .

٢- خطر عقوبة الذنوب والمعاصي .

٣- من عقوبات الله للعبد أن يقلب قلبه عن الحق .

٤- سؤال الله أن يثبت القلب وأن لا يزيغه .

٥-الحذر من الذنوب القلبية .

٦- من عقوبة الله للعبد أن يجعله مقيماً على المعاصي ويعطيه من الدنيا استدراجاً . الأحد/١٥/٥/١٤٣٥هـ

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)) .

[الأنعام : ١١١] .

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ) يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم (لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا) فنزلنا عليهم الملائكة، أي: تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، كما سألوا فقالوا (أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا) (قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) .

(وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا) .

(**وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى**) بأن أحييناهم وشهدوا بحقية الإيمان حسبما اقترحوه بقولهم (فَأْتُواْ بِئَابَائِنَا) .

- **قال ابن كثير** : أي فأخبروهم بصدق ما جاءهم به الرسل .

(**وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا**) أي : وجمعنا لهم كل شيء من الخلائق عياناً ومشاهدة .

- وقُبُلًا - بضم القاف والباء - حال من « كل شيء » وفيه أوجه :

الأول : أنه جمع قبيل بمعنى كفيل مثل قليب وقلب ، أى : وحشرنا عليهم كل شيء من المخلوقات ليكونوا كفلاء بصدقك.

والثاني : أنه مفرد كقبل الإنسان ودبره فيكون معناه المواجهة والمعاينة ومنه آتيك قبلاً لا دبراً ؛ أى آتيك من قبل وجهك ، والمعنى. وحشرنا عليهم كل شيء مواجهة وعياناً ليشهدوا بأنك على الحق.

والثالث : أن يكون قبلا جمع قبيل لكن بمعنى جماعة جماعة أو صنفاً صنفاً ، والمعنى : وحشرنا عليهم كل شيء فوجاً فوجاً ونوعاً نوعاً من سائر المخلوقات ليشهدوا بصدقك. (التفسير الوسيط) .

(**مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**) أي: إن الهداية إليه، لا إليهم. بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، لعلمه وحكمته ، وسلطانه وقهره وغلبته. وهذه الآية كقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) .

- **قال السمرقندي** : قوله تعالى (ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة) كما سألوا حتى يشهدوا بأنك رسول الله (وَكَلَّمَهُمُ الموتى) بأنك رسول الله (وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْء قُبُلاً) قرأ نافع وابن عامر (قُبُلاً) بكسر القاف ونصب الباء.

وقرأ الباقون بالضم ، فمن قرأ بالضم فمعناه جماعة القبيل. والقبيل الكفيل.

ويقال قبلاً : أي أصنافاً من الآدميين ومن الملائكة ومن الوحش.

ومن قرأ (قُبُلاً) بالكسر معناه : وحشرنا عليهم كل شيء معاينة فعاينوه.

- **وقال ابن الجوزي** : ومعنى الآية ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة كما سألوا، وكلمهم الموتى، فشهدوا لك بالنبوة (وحشرنا) أي: جمعنا

(عليهم كل شيء) في الدنيا (قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) ، فأخبر أن وقوع الإيمان بمشيئته ، لا كما ظنوا أنهم متى شاؤوا آمنوا ، ومتى شاؤوا لم يؤمنوا.

(**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ**) قال الطبري : أي يجهلون أن الأمر بمشيئة الله تعالى ، يحسبون أن الإيمان إليهم ، والكفر بأيديهم ، متى شاءوا آمنوا ، ومتى شاءوا كفروا ، وليس الأمر كذلك ، ذلك بيدي لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته ، ولا يكفر إلا من خذلته فأضللته . (تفسير الطبري) .

وقيل الضمير يعود على المؤمنين فيكون المعنى. ولكن أكثر المؤمنين يجهلون عدم إيمان أولئك المشركين عند مجيء الآيات لجهلهم عدم مشيئة الله – تعالى – لإيمانهم ، فيتمنون مجيء الآيات طمعاً في إيمانهم.

الفوائد :

١-إثبات علو الله تعالى .

٢-أن الهداية بيد الله تعالى .

٣- أن من لم يشأ الله أن يهديه فلن يهتدي .

٤- تعنت هؤلاء الكفار .

٥-فضل العلم بحكمة الله وأوامره وذم الجهل .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ)(١١٣) .

[الأنعام : ١١٢ – ١١٣] .

(**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ**) يقول تعالى: وكما جعلنا لك -يا محمد -أعداءً يخالفونك، ويعادونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء فلا يَحزنك ذلك .

كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) .

وقال تعالى (مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) .

وقال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) .

وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ : إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي .

- والمراد بشياطين الإنس والجن ، والمردة من النوعين. والشيطان : كل عات متمرد من الإنس والجن.
- **قال القرطبي** :قوله تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ) يُعَزّي نبيّه ويسلّيه ، أي كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبي قَبْلَك (عَدُوّاً) أي : أعداء.
- **قال الشنقيطي** : هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ، وَبَيَّنَ هُنَا أَنَّ أَعْدَاءَ الْأَنْبِيَاءِ هُمْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَصَرَّحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ أَعْدَاءَ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمُجْرِمِينَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُجْرِمِينَ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مِنَ الْإِنْسِ شَيَاطِينَ ، وَصَرَّحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا

إِنَّا مَعَكُمْ الْآيَةَ) ، وَقَدْ جَاءَ الْخَبَرُ بِذَلِكَ مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ مُتَمَرِّدٍ شَيْطَانًا ، سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الْجِنِّ أَوْ مِنَ الْإِنْسِ كَمَا ذَكَرْنَا ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِمَا ، وَفِي الْحَدِيثِ : «الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ» ، وَقَوْلُهُ : شَيَاطِينُ ، بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : عَدُوًّا ، أَوْ مَفْعُولٌ أَوَّلُ لِـ «جَعَلْنَا» ، وَالثَّانِي : «عَدُوًّا» ، أَيْ : جَعَلْنَا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَدُوًّا .

- **قال السعدي** : ومن حكمة الله تعالى، في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته : أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه ، فإنه –حينئذ- يتبين من أدلة الحق، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب، التي يتنافس فيها المتنافسون . (تفسير السعدي) .

- ومن الحكم : رفعة درجات الأنبياء ، وحصول أجر مجاهدة الأعداء التي تدل على قوة الإيمان ورسوخه .

(**يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً**) أي: يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره.

- **قال السعدي** : أي يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلاً والباطل حقاً .

(**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ**) أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نَبيّ عدوّ من هؤلاء.

(**فَذَرْهُمْ**) أي : اتركهـم .

(**وَمَا يَفْتَرُونَ**) أي: يكذبون، أي: دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم.

(**وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ**) أي: ولتميل إليه .

(**أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**) أي: قلوبهم وعقولهم وأسماعهم.

- **قال السعدي** : لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك .

- وخص عدم إيمانهم بالآخرة بالذكر – مع أنهم لا يؤمنون بأمور أخرى يجب الإيمان بها – لأن من لم يؤمن بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب يمشى دائماً وراء شهواته وأهوائه ولا يتبع إلا زخرف القول وباطله. (التفسير الوسيط) .

(**وَلِيَرْضَوْهُ**) أي: يحبوه ويريدوه ، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى (فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) ، وقال تعالى (إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) .

(**وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُــونَ**) من الكذب والافتراء .

- **قال السعدي** : (وَلِيَرْضَوْهُ) بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولاً ، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة،وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم،وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات ، بل همتهم

مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقاً قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً ردوها على من قالها، كائناً من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير.

الفوائد :

١- سنة من سنن الله ، وهي وجود الأعداء للأنبياء وأتباعهم .

٢- كثرة الأنبياء .

٣- التسلية للنبي ﷺ بما أصابه من أذى قومه .

٤- التسلية لكل داع إلى الحق فيما يصيبه من أذى .

٥-أهل الباطل يزخرفون باطلهم بالعبارات الأنيقة ليروج على أصحاب القلوب الضعيفة .

٦-خطر السماع لأهل الباطل والإنصات لهم .

٧- أن الإيمان بالآخرة سبب للثبات .

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤)) .

[الأنعام : ١١٤] .

(**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا**) أي : قل لهم يا محمد أفغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم ؟

قال أبو حيان : قال مشركوا قريش لرسول الله ﷺ اجعل بيننا وبينك حكماً إن شئتَ من أحبار اليهود أو النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت .

(**وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً**) أي : أنزل إليكم القرآن بأوضح بيان ، مفصّلاً فيه الحق والباطل ، موضحاً الهدى من الضلال .

● المراد بالكتاب القرآن ، والضمير في (إليكم) خطاب للمشركين ، فإنّ القرآن أُنزل إلى النّاس كلّهم للاهتداء به ، فكما قال الله (بما أنزل إليك أنزله بعلمه) قال (يأيُّها النّاس قد جاءكم بُرْهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) وفي قوله (إليكم) هنا تسجيل عليهم بأنَّه قد بلّغهم فلا يستطيعون تجاهلاً.

(**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ**) من علماء اليهود والنصارى .

● **قال أبو حيان**: أي والذين أعطيناهم علم التوراة والإنجيل والزبور والصحف، والمراد علماء أهل الكتاب فهو عام بمعنى الخصوص.

● **وقال ابن عاشور** : والمراد بالّذين آتاهم الله الكتابَ : أحبار اليهود ، لأنّ الكتاب هو التّوراة المعروف عند عامّة العرب ، وخاصّة أهلُ مكَّة ، لتردّد اليهود عليها في التّجارة ، ولتردّد أهل مكّة على منازل اليهود بيَثرب وقُراها ولكون المقصود بهذا الحكم أحبارَ اليهود خاصّة قال (آتيناهم الكتاب) ولم يقل : أهلُ الكتاب.

ومعنى علم الّذين أوتوا الكتاب بأنّ القرآن منزّل من الله : أنَّهم يجدونه مصدّقاً لما في كتابهم ، وهم يعلمون أنّ محمّداً ﷺ لم يَدرس كتابهم على أحد منهم ، إذ لو درسه لشاع أمْرُه بينهم ، ولأعلنوا ذلك بين النّاس حين ظهور دعوته.

وهم أحرص على ذلك ، ولم يَدّعوه.

وعلمُهم بذلك لا يقتضي إسلامهم لأنّ العناد والحسد يصدّاهم عن ذلك.

وقيل : المراد بالّذين آتاهم الله الكتاب : مَن أسلموا من أحبار اليهود ، مثل عبدا لله بن سلاَم.

(**يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**) أي : أنّ كلّ ما فيه من الوعد والوعيد لحَق .

(**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِين**) **قيل** : الخطاب للرسول خطاب لأمته.

وقيل : لكل سامع أي إذا ظهرت الدلالة فلا ينبغي أن يمتري فيه.

وقيل : هو من باب التهييج والإلهاب كقوله (ولا تكونن من المشركين) .

وقيل : (فلا تكونن من الممترين) في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم.

● **قال ابن عاشور** : ويحتمل أن يكون المخاطب الرّسول عليه الصلاة والسلام ، والمقصود من الكلام المشركون الممترون ، على طريقة التّعريض ، كما يقال : (إياكَ أعني واسمعي يا جارهْ).

ومنه قوله تعالى (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك) وهذا الوجه هو أحسن الوجوه ، والتفريع فيه كما في الوجه الثّاني.

الفوائد :

١- ذم من طلب حكماً غير الله .

٢- وجوب التحاكم إلى الله في كل شيء .

٣- أن القرآن منزل غير مخلوق .

٤-أن القرآن ناسخ لكل الكتب .

٥- إثبات علو الله تعالى .

٦- أن القرآن فيه بيان طريق الحق والهدى .

٧- أن علماء اليهود والنصارى يعرفون صدق القرآن بما عندهم من علم .

(**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)**) .

[الأنعام : ١١٥] .

(**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ**) يعني القرآن .

● **قال ابن عاشور** : قوله : (كَلِمَةُ رَبِّكَ) قرأه الجمهور بصيغة الجمع وقرأه عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب ، وخلف : كَلمة بالإفراد فقيل : المراد بالكلمات أو الكلمة القرآن ، وهو قول جمهور المفسّرين ، ونقل عن قتادة ، وهو الأظهر ، المناسب لجعْل الجملة معطوفة على جملة (والذين آتيناهم الكتاب) فأمّا على قراءة الإفراد فإطلاق الكلمة على القرآن باعتبار أنّه كتاب من عند الله ، فهو من كلامه وقوله ، ... وأمّا على قراءة الكلمات بالجمع فإطلاقها على القرآن باعتبار ما يشتمل عليه من الجمل والآيات ، أو باعتبار أنواع أغراضه من أمر ، ونهي ، وتبشير ، وإنذار ، ومواعظ ، وإخبار ، واحتجاج ، وإرشاد ، وغير ذلك.

ومعنى تمامها أنّ كلّ غرض جاء في القرآن فقد جاء وافياً بما يتطلّبه القاصد منه.

• **قال الماوردي** : وفي تمامه أربعة أوجه محتملة :

أحدها : تمام حُجَجِهِ ودلائله.

والثاني : تمام أحكامه وأوامره.

والثالث : تمام إنذاره بالوعد والوعيد.

والرابع : تمام كلامه واستكمال صوره.

(**صِدْقًا وَعَدْلاً**) أي : صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام ، فكله حق وصدق وعدل وهدى ، ... لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء .

• **قال السعدي** : قوله تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا) أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه .

• **قال ابن كثير** : قال قتادة: صدقاً فيما قال وعدلاً فيما حكم .

يقول: صدقاً في الأخبار وعدلا في الطلب ، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مَفْسَدة، كما قال (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) .

• **قال البيضاوي** : قوله تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ) بلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده. (صِدْقاً) في الأخبار والمواعيد (وَعَدْلاً) في الأقضية والأحكام .

• **قال ابن عاشور** : الصّدق : المطابقة للواقع في الإخبار : وتحقيق الخبر في الوعد والوعيد ، والنّفوذ في الأمر والنّهي ، فيشمل الصّدقُ كلّ ما في كلمات الله من نوع الإخبار عن شؤون الله وشؤون الخلائق ، والعدل : إعطاء من يستحقّ ما يستحقّ ، ودفع الاعتداء والظلمِ على المظلوم ، وتدبير أمور النّاس بما فيه صلاحهم.

(**لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ**) يقول : لا مغيّر لوعده كقوله (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءَامَنُواْ فِى الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الاشهاد) ويقال (لاَ مُبَدّلَ لكلماته) يعني : لا ينقض بعضها بعضاً ولا يشبه كلام البشر.

• **قال ابن الجوزي** : وفي قوله (لا مبدِّل لكلماته) قولان :

أحدهما : لا يقدر المفترون على الزيادة فيها والنقصان منها.

والثاني : لا خُلف لمواعيده ، ولا مغير لحكمه.

• **قال القرطبي** : ودلّت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن ؛ لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه ، لأنه من عند حكيم لا يخفى عليه شيء من الأمور كلها.

(**وَهُوَ السَّمِيعُ**) لسائر الأصوات ، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات .

(**الْعَلِيمُ**) الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن ، والماضي والمستقبل .

الفوائد :

١- إعجاز القرآن العظيم وعظمته .

٢- مصداق لقوله تعالى (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً) .

٣-صدق القرآن فيما أخبر ، وعدل أحكامه .

٤- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : السميع والعليم .

(وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)) .

[الأنعام : ١١٦- ١١٧] .

(وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) يقول تعالى، لنبيه محمد ﷺ، محذراً عن طاعة أكثر الناس (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم، وعلومهم. فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق.

بل غايتهم أنهم يتبعون الظن، الذي لا يغني من الحق شيئاً ، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون ، ومن كان بهذه المثابة ، فحري أن يحذّر الله منه عبادَه ، ويصف لهم أحوالهم ، لأن هذا -وإن كان خطاباً للنبي ﷺ فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام، التي ليست من خصائصه. (تفسير السعدي) .

- ودلت هذه الآية ، على أنه لا يستدل على الحق، بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك ، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً ، الأعظمون -عند الله- قدراً وأجراً ، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه . (السعدي) .

- في هذه الآية أن أكثر الناس على غير الحق .

كما قال تعالى (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ) .

وقال تعالى (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) .

وقال تعالى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ) .

وقال تعالى (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) .

وقال تعالى (وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) .

وقال تعالى (وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) .

وقال ﷺ (عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ) متفق عليه .

فما أكثر ما ذم الله عز وجل الكثرة في كتابه ، ومدح القلة :

فقال : (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

وقال عز وجل : (... وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) .

وقال أيضاً تبارك وتعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) .

قال الإمام الشاطبي : وهذه سنة الله في الخلق : أن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل لقوله تعالى : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقوله (وقليل من عبادي الشكور) ولينجز الله ما وعد به نبيه ﷺ من عود وصف الغربة إليه فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم وذلك حين يصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً وتصير السنة بدعة والبدعة سنة .

وقال ابن القيم : ولما رأى المنافقون ومَن فى قلبه مرض قِلَّة حزبِ الله وكثرةَ أعدائه، ظنُّوا أن الغلبة إنما هى بالكثرة، وقالوا (غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ) ، فأخبر سبحانه أن النصر بالتوكل عليه لا بالكثرة، ولا بالعدد، والله عزيز لا يُغالَب، حكيم ينصر مَن يستحق النصر، وإن كان ضعيفاً، فعزتُه وحكمتُه أوجبت نصرَ الفئةِ المتوكِّلَةِ عليه" .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريباً. فطوبى للغرباء) أخرجه مسلم .

وسئل عنهم فقال ﷺ (ناس صالحون قليل في ناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم) .

وعن معاوية ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمَّة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلاّ واحدة وهي الجماعة) .

فقد جعل ﷺ الطائفة المنصورة الناجية في مقابل الفرق الهالكة قليل.

قال ابن مسعود : الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك .

وعن الفضيل بن عياض : اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين واياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين .

قال أبو شامة : وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة؛ فالمراد به لزوم الحق وإتباعه وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف كثيراً؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابه ﷺ ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : وفي السنن : إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها). والتجديد إنما يكون بعد الدروس، وذاك هو غربة الإسلام.

وهذا الحديث يفيد المسلم أنه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الإسلام، ولا يضيق صدره بذلك، ولا يكون في شك من دين الإسلام، كما كان الأمر حين بدأ. قال تعالى: (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إليكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ) إلى غير ذلك من الآيات والبراهين الدالة على صحة الإسلام .

قال الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (كتاب التوحيد : باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب بعدما ذكر حديث ابن عباس السابق) : فيه مسائل: الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة .

وقال الإمام الشوكاني : عند قوله تعالى (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) أخبره الله سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من في الأرض أضلوه، لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين، ومنهم الطائفة التي تزال على الحق ولا يضرها خلاف من يخالفها، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ .

قال العلامة ابن باز : وليحذر كل مسلم أن يغتر بالأكثرين ، ويقول : إن الناس قد ساروا إلى كذا ، واعتادوا كذا ، فأنا معهم ، فإن هذه مصيبة عظمى ، قد هلك بها أكثر الماضين ، ولكن أيها العاقل ، عليك بالنظر لنفسك ومحاسبتها والتمسك بالحق وإن تركه الناس ، والحذر مما نهى الله عنه وإن فعله الناس ، فالحق أحق بالاتباع ، كما قال تعالى (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وقال تعالى (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) وقال بعض السلف رحمهم الله : (لا تزهد في الحق لقلة السالكين ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين .

قال العلامة الألباني : فالمؤمن لا يستوحش من قلة السالكين على طريق الهدى ولا يضره كثرة المخالفين .

(**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**) هذه الآية تقرير للآية السابقة ، وتأكيد لما يفيده مضمونها ، أي : إن ربك الذي لا تخفى عليه خافية هو أعلم منك ومن سائر خلقه بمن يضل عن طريق الحق وهو أعلم منك ومن سائر الخلق أيضاً بالمهتدين السالكين صراطه المستقيم ، فعليك – أيها العاقل – أن تكون من فريق المهتدين لتسعد كما سعدوا واحذر أن تركن إلى فريق الضالين ، فتشقى كما شقوا.

الفوائد :

١- أن أكثر أهل الأرض على غير الحق .

٢- على الإنسان أن لا يغتر بما هي الكثرة .

٣- أن العبرة بالحق ، فيجب اتباعه ولو أهله قلة .

٤-سمة الله وحكمته في أهل الشر والضلال أكثر من أهل الخير .

٥-أن قلة السالكين قد يكون دليلاً على الحق .

٦-علم الله الكامل ، بمن يستحق الهداية ، وبمن يستحق الغواية .

٧- سؤال الله الهداية والثبات على الحق .   **الثلاثاء : ١٧/٥/١٤٣٥هـ**

(فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)) .

[الأنعام : ١١٨- ١١٩] .

(**فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ**) هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه: أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار المشركين من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها .

● **قال ابن جزى** : قوله تعالى (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) القصد بهذا الأمر إباحة ما ذكر اسم الله عليه، والنهي عما ذبح للنصب وغيرها ، وعن الميتة وهذا النهي يقتضيه دليل الخطاب من الأمر ثم صرح به في قوله الآتي (أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ) .

● روى أبو داود بسنده عن ابن عباس قال : أتى ناس إلى النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله إنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله – فأنزل الله – فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ. إلى قوله وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُون .

وذكر الواحدي أن المشركين قالوا : يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها فقال الله قتلها. قالوا. فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتل الصقر أو الكلاب حلال وما قتله الله حرام فأنزل الله تعالى قوله : فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ الآية .

والخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين الذين ضايقهم جدال المشركين لهم في شأن الذبائح.

والمعنى كلوا أيها المؤمنون مما ذكر اسم الله عليه عند ذبحه واتركوا ما ذكر عليه اسم غيره كالأوثان أو ما ذبح على النصب ، أو ما ذكر اسم مع اسمه – تعالى – أو ما مات حتف أنفه ، ولا تضرنكم مخالفتكم للمشركين في ذلك فإنهم ما يتبعون في عقائدهم ومآكلهم وأعمالهم إلا تقاليد الجاهلية وأوهامها التي لا ترتكز على شيء من الحق. (التفسير الوسيط) .

(**إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ**) أي : بأحكامه وأوامره آخذين ؛ فإن الإيمان بها يتضمّن ويقتضي الأخذ بها والانقياد لها.

(**وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ**) أى : أى مانع يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وأى فائدة تعود عليكم من ذلك؟ فالاستفهام لإنكار أن يكون هناك شيء يدعوهم إلى اجتناب الأكل من الذبائح التي ذكر اسم الله عليها سواء أكانت تلك الذبائح من البحائر أو السوائب أو غيرها مما حرمه المشركون على أنفسهم بدون علم.

● **قال القرطبي** : المعنى : ما المانع لكم من أكل ما سمّيتم عليه ربّكم وإن قتلتموه بأيديكم.

● **قال ابن عاشور** : والوجه عندي أنّ سبب نزول هذه الآية ما تقدّم آنفاً من أنّ المشركين قالوا للنّبي ﷺ وللمسلمين ، لما حَرّم الله أكل الميتة : " أنأكل ما نَقتل ولا نَأكل ما يقتلُ اللَّه " يعنون الميتة ، فوقع في أنفس بعض المسلمين شيء ، فأنزل الله (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) أي فأنبأهم الله بإبطال قياس المشركين المموّه بأنّ الميتة أولى بالأكل ممّا قتله الذّابح بيده ، فأبدى الله للنّاس الفرق بين الميتة والمذكّى ، بأنّ المذكّى ذُكر اسم الله عليه ، والميتة لا يذكر اسم الله عليها ، وهو فارق مؤثّر.

وأعرض عن محاجة المشركين لأنّ الخطاب مسوق إلى المسلمين لإبطال محاجّة المشركين فآل إلى الرد على المشركين بطريق التعريض.

(**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ**) أى : والحال أن الله تعالى قد فصل لكم على لسان رسولكم ﷺ ما حرمه عليكم من المطعومات ، وبين لكم ذلك في كتابه كما في قوله تعالى (قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

إذا فمن الواجب عليكم أيها المسلمون أن تأكلوا وأنتم مطمئنون من جميع المطاعم التي أحلها الله لكم وذكر اسمه عليها ولو خالفتم في ذلك المشركين وأن تتجنبوا أكل ما حرمه الله عليكم ولو كان مما يستبيحه المشركون.

● **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) أكثر المفسرين قالوا : المراد منه قوله تعالى في أول سورة المائدة : (حُرّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير) وفيه إشكال : وهو أن سورة الأنعام مكية وسورة المائدة مدنية ، وهي آخر ما أنزل الله بالمدينة ، وقوله (وَقَدْ فَصَّلَ) يقتضي أن يكون ذلك المفصل مقدماً على هذا المجمل ، والمدني متأخر عن المكي ، والمتأخر يمتنع كونه متقدماً ، بل الأولى أن يقال المراد قوله بعد هذه الآية (قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِىَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يطعمه) وهذه الآية وإن كانت

مذكورة بعد هذه الآية بقليل إلا أن هذا القدر من التأخير لا يمنع أن يكون هو المراد والله أعلم.

- **وقال القرطبي** : وقيل (فصل) أي بيّن ، وهو ما ذكره في سورة "المائدة" من قوله (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير)

قلت هذا فيه نظر ؛ فإن (الأنعام) مكية والمائدة مدنية فكيف يحيل بالبيان على ما لم ينزل بعد ، إلا أن يكون فصّل بمعنى يفصّل. والله أعلم.

- **قال الشنقيطي** : قَوْلُهُ تَعَالَى (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْآيَةَ ، التَّحْقِيقُ أَنَّهُ فَصَّلَهُ لَهُمْ بِقَوْلِهِ : قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً ...) ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مَا ذَكَّيْتُمْ ، وَذَكَرْتُمْ عَلَيْهِ اسْمَ اللَّهِ ؟ ، وَالْحَالُ أَنَّ اللَّهَ فَصَّلَ لَكُمُ الْمُحَرَّمَ أَكْلُهُ عَلَيْكُمْ فِي قَوْلِهِ : قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ الْآيَةَ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْهُ .

وَمَا يَزْعُمُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ أَنَّهُ فَصَّلَهُ لَهُمْ بِقَوْلِهِ : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ الْآيَةَ ، فَهُوَ غَلَطٌ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، وَهِيَ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ بِالْمَدِينَةِ ، وَقَوْلُهُ : (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، فَالْحَقُّ هُوَ مَا ذَكَرْنَا ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى .

(**إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ**) إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات بسبب شدة الجوع ففي هذه الحالة يباح لكم أن تأكلوا من هذه المحرمات ما يحفظ عليكم حياتكم. هذا هو حكم الله الذي يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر فعليكم أن تتبعوه ، وألا تلقوا بالا إلى أوهام المتخرصين وأصحاب الظنون الباطلة .

قال تعالى (فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

(**وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ**) قرأ الجمهور « ليضلون » بضم الياء ، والمعنى عليه : وإن كثيرا من الكفار ليضلون غيرهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام بسبب أهوائهم الزائفة وشهواتهم الباطلة ، دون أن يكون عندهم أى علم مقتبس من وحى الله ومستنبط من عقل سليم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب « ليضلون » بفتح الياء ، والمعنى عليه : وإن كثيرا من الكفار لينحرفون عن الحق ويقعون في الضلال بسبب اتباعهم لأهوائهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وقراءة الجمهور أبلغ في الذم لأنها تتضمن قبح فعلهم حيث ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم .

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ ..) وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب (لَيَضِلُّون) بفتح الياء على أنّهم ضالّون في أنفسهم، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: بضمّ الياء على معنى أنّهم يُضلّلون النّاس، والمعنى واحد، لأنّ الضالّ من شأنه أن يُضلّ غيره ، ولأنّ المضلّ لا يكون في الغالب إلاّ ضالاً، إلاّ إذا قصد التّغرير بغيره.

والمقصود التّحذير منهم وذلك حاصل على القراءتين.

- في هذا التحذير من الهوى ، وسمى هوى لأنه يهوي بصاحبه .

قال تعالى (ولوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) .

وقال تعالى (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) .

وقال تعالى (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ) .

وقال ﷺ (ثلاث مهلكات : ... وهوى متبع) .

(**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِين**) أى : أعلم منك يا محمد ومن كل مخلوق بالمتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل والحلال والحرام.

ففي الجملة الكريمة التفات عن خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول ﷺ .

قال الإمام الرازي : وقد دلت هذا الآية على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلت على أن ذلك حرام .

وقال : والمقصود من هذه الكلمة التهديد والتخويف.

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (إن ربك هو أعلم بالمعتدين) تذييل ، وفيه إعلام للرّسول ﷺ بتوعّد الله هؤلاء الضالّين المضلين ، فالإخبار بعلم الله بهم كناية عن أخذه إيَّاهم بالعقوبة وأنَّه لا يفلتهم ، لأنّ كونه عالماً بهم لا يُحتاج إلى الإخبار به.

وهو وعيد لهم أيضاً ، لأنَّهم يسمعون القرآن ويُقرَأ عليهم حين الدّعوة .

الفوائد :

١- إباحة الأكل مما ذكر عليه اسم الله .

٢- تحريم الأكل مما لم يذكر عليه اسم الله .

٣- أن الإيمان دافع لتطبيق أوامر الله .

٤-أن الله تعالى فصل فيما يحرم علينا ويحل .

٥-جواز الأكل من الميتة عند الضرورة .

٦-خطر الهوى ، وأنه سبب صاد عن سبيل الله .

٧- تهديد ووعيد للمعتدين الظالمين .

(**وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ (١٢٠)**) .

[الأنعام : ١٢٠] .

(**وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ**) اختلف في المراد بذلك :

قيل : ظاهره علانيته ، وباطنه سره ، أي : علانيته وسرّه .

- **قال ابن الجوزي** : وهذا مذهب أبي العالية ، ومجاهد ، وقتادة ، والزجاج.

وقيل : (ظاهر الإثم) الإعلان بالزنا (وَبَاطِنَهُ) الاستسرار به.

وقيل : (ظاهر الإثم) أفعال الجوارح (وَبَاطِنَهُ) أفعال القلوب من الكبر والحسد والعجب وإرادة السوء للمسلمين .

- **قال الرازي** : الثاني : أن هذا النهي عام في جميع المحرمات وهو الأصح ، لأن تخصيص اللفظ العام بصورة معينة من غير دليل غير جائز ، ثم قيل : المراد ما أعلنتم وما أسررتم ، وقيل : ما عملتم وما نويتم.

- **وقال ابن عطية** : قال قوم : الظاهر الأعمال والباطن المعتقد ، وهذا حسن لأنه عاد ثم توعد تعالى كسبة الإثم بالمجازاة على ما

اكتسبوه من ذلك وتحملوا ثقله .

- **قال السعدي** : ولا يتم للعبد، ترك المعاصي الظاهرة والباطنة، إلا بعد معرفتها، والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن،والعلمُ بذلك واجبا متعينا على المكلف.

وكثير من الناس، تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصا معاصي القلب،كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلَّت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة،وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

(**إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ**) يقول : يعملون الفواحش ويتكلمون بها .

(**سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُون**) أي : سيعاقبون بما كانوا يكسبون من الإثم.

- ترك الذنوب حياة القلوب .

في الحديث قال ﷺ (إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء ...) .

وقال الحسن: الذنب على الذنب، ثم الذنب على الذنب حتى يغمر القلب فيموت .

فإذا مات قلب الإنسان لم ينتفع به صاحبه. قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

والأحسن من هذا قول الله عز وجل (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُون) .

وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليذنب الذنب فيصبح وعليه مذلته.

قال الشاعر : خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

قال بلال بن سعد : لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت.

قال الفضيل بن عياض: ما عملت ذنباً إلا وجدته في خلق زوجتي ودابتي.

ونظر أحد العباد إلى صبي فتأمل محاسنه، فأُتي في منامه وقيل له: لتجدن غبها بعد أربعين سنة.

وقال ابن سيرين حين ركبه الدين واغتم لذلك: إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة. وقال أحد السلف: نسيت القرآن بذنب عملته منذ أربعين سنة.

وقال الثوري : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته.

وقال بعض السلف: كم من أكلة – يعني من حرام – منعت قيام ليلة، وكم من نظرة – يعني حرام – منعت قراءة سورة.

وقال أبو سليمان الداراني: لا تفوت أحد صلاة الجماعة إلا بذنب.

قال حكيم : صحة الجسم فى قلة الطعام , وصحة القلب فى قلة الذنوب والآثام , وصحة النفس فى قلة الكلام.

قال الحسن : يا ابن آدم : ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة .

● رفعت ليلة القدر بسبب أنه تلاحى فلان وفلان ، فرفع علمها .

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم .

وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم .

قال الشافعي :

شكوت الى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي .

وقال : اعلم بأن العلم نورٌ ونور الله لا يؤتاه عاصي .

الفوائد :

١- وجوب ترك الذنوب جميعها .

٢- من ترك الذنوب ، الابتعاد عن مواطنها والاقتراب منها .

٣- وجوب التوبة فوراً لمن ارتكب ذنباً أو معصية .

٤- تهديد للذين يكسبون الذنوب الظاهرة أو الخفية ولا يتوبون .

(وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)) .

[الأنعام : ١٢١] .

(**وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ**) أى : لا تأكلوا أيها المسلمون من أى حيوان لم يذكر عليه اسم الله عند ذبحه ، بأن ذكر عليه اسم غيره ، أو ذكر اسم مع اسمه تعالى، أو غير ذلك مما سبق بيانه من المحرمات.

(**وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**) جملة حالية والضمير يعود على الأكل من الذي لم يذكر اسم الله عليه ، أى : وإن الأكل من ذلك الحيوان المذبوح الذي لم يذكر اسم الله عليه لخروج عن طاعة الله تعالى وابتعاد عن الفعل الحسن إلى الفعل القبيح ، وفي ذلك ما فيه من تنفيرهم من أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

(**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ**) أى : وإن إبليس وجنوده ليوسوسون إلى أوليائهم الذين اتبعوهم من المشركين ليجادلوكم في تحليل الميتة وفي غير ذلك من الشبهات الباطلة .

● اختلف في المراد بالشياطين هنا :

فقيل : المراد بالشياطين هنا شياطين الإنس، كالمجوس الذين يرون جواز أكل الميتة، وكذا اليهود الذين يفسدون على الناس دينهم .

وقيل : المراد بالشياطين شياطين الجن الذين يقذفون في صدور أهل الشرك صنوف الباطل، وأساليب الكلام التي يجادلون بها غيرهم. والظاهر العموم .

قال الطبري : وَأَوْلَى الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ ، أَنْ يُقَالَ : إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوا الْمُؤْمِنِينَ فِي تَحْرِيمِهِمْ أَكْلَ الْمَيْتَةِ بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ جِدَالِهِمْ إِيَّاهُمْ . وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُوحُونَ كَانُوا شَيَاطِينَ الإِنْسِ يُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنْهُمْ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا شَيَاطِينَ الْجِنِّ أَوْحَوْا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإِنْسِ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْجِنْسَانِ كِلاَهُمَا تَعَاوَنَا عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي

الآيَةِ الأُخْرَى الَّتِي يَقُولُ فِيهَا : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) ، بَلْ ذَلِكَ الأَغْلَبُ مِنْ تَأْوِيلِهِ عِنْدِي ، لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ أَنَّهُ جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ، كَمَا جَعَلَ لِأَنْبِيَائِهِ مِنْ قَبْلِهِ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْمُزَيَّنَ مِنَ الأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ ، ثُمَّ أَعْلَمَهُ أَنَّ أُولَئِكَ الشَّيَاطِينَ يُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإِنْسِ لِيُجَادِلُوهُ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الْمَيْتَةِ عَلَيْهِمْ.

(**وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ**) في استحلال ما حرمه الله عليكم .

قال السعدي (**وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ**) في شركهم ، وتحليلهم الحرام ، وتحريمهم الحلال .

إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) قال ابن كثير : أى : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره .

● **وقال السعدي** : لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله ، ووافقتموهم على ما به فارقـوا المسلمين ، فلذلك كان طريقكم طريقهم .

الفوائد :

١-تحريم الأكل مما لم يذكر عليه اسم الله .

٢-أن الأكل من الميتة حرام وفسق لأنه خروج عن أوامر الله .

٣-أن الشياطين يزينون للناس المجادلة والدفاع عن الباطل .

٤- وجوب طاعة الله .

٥- تحريم طاعة غير الله في تحريم الحلال أو تحليل الحرام .

(أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٢٢)) .

[الأنعام : ١٢٢] .

(**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**) هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً، أي: في الضلالة هالكًا حائرًا ، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله.

(**وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**) أي: يهتدي كيف يسلك، وكيف يتصرف به.

قال السعدي : قول تعالى (أَوَمَنْ كَانَ) من قبل هداية الله له (مَيْتًا) في ظلمات الكفر،والجهل، والمعاصي، (فَأَحْيَيْنَاهُ) بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرا في أموره، مهتديا لسبيله، عارفا للخير مؤثرا له، مجتهدا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفا بالشر مبغضا له، مجتهدا فيتركه وإزالته عن نفسه وعن غيره. أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات،ظلمات الجهل والغي، والكفر والمعاصي (لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضرها لهم والغم والحزن والشقاء. فنبه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات.

● **قال الشوكاني**: المراد بالميت هنا الكافر، أحياه الله بالإسلام، وقيل معناه: كان ميتاً حين كان نطفة، فأحييناه بنفخ الروح فيه، والأوّل أولى، لأن السياق يشعر بذلك لكونه في تنفير المسلمين عن اتباع المشركين، وكثيراً ما تستعار الحياة للهداية وللعلم، ومنه قول القائل :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله... فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امـرأ لم يحيي بالعـــلم ميــت... فليس له حتى النشور نشور

والنور : عبارة عن الهداية والإيمان ، وقيل هو القرآن ، وقيل الحكمة. (فتح القدير) .

- **قال ابن كثير** : والنور هو: القرآن، كما رواه العَوْفي وابن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقال السُّدِّي: الإسلام. والكل صحيح.
- **قال الرازي** : اختلفوا في هذين المثلين المذكورين هل هما مخصوصان بإنسانين معينين أو عامان في كل مؤمن وكافر.

فيه قولان : الأول : أنه خاص بإنسانين على التعيين .

والقول الثاني : أن هذه الآية عامة في حق جميع المؤمنين والكافرين ، وهذا هو الحق ، لأن المعنى إذا كان حاصلاً في الكل ، كان التخصيص محض التحكم .

- **قال الرازي** : قال أهل المعاني : قد وصف الكفار بأنهم أموات في قوله (أموات غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) وأيضاً في قوله (لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً) وفي قوله (إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى) وفي قوله (وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير. .وَمَا يَسْتَوِى الأحياء وَلاَ الأموات) فلما جعل الكفر موتاً والكافر ميتاً ، جعل الهدى حياة والمهتدي حياً ،
- **قال ابن عاشور** : ولقد جاء التّشبيه بديعاً: إذ جعل حال المسلم، بعد أن صار إلى الإسلام، بحال من كان عديم الخير، عديم الإفادة كالميّت، فإنّ الشرك يحول دون التّمييز بين الحقّ والباطل، ويصرف صاحبه عن السّعي إلى ما فيه خيره ونجاته، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أين ينصرف، فإذا هداه الله إلى الإسلام تغيرّ حاله فصار يميّز بين الحقّ والباطل، ويعلم الصّالح من الفاسد، فصار كالحي وصار يسعى إلى ما فيه الصّلاح، ويتنكّب عن سبيل الفساد، فصار في نور يمشي به في النّاس.

وقد تبيّن بهذا التّمثيل تفضيل أهل استقامة العقول على أضدادِهم.

(**كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) أي: حسنا لهم ما هم فيه من الجهالة والضلالة، قدرا من الله وحكمة بالغة، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

الفوائد :

١- أن المشرك ميت .

٢- أن الإنسان بإيمانه يحيى .

٣- لا يستوى الحي والميت .

٤- عداوة الشيطان للإنسان .

٥- خطر أن يزيّن للإنسان عمله ، فيرى القبيح حسناً ، والحسن قبيحاً .

(**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)**)
[الأنعام : ١٢٣] .

(**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا**) يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك -يا محمد -أكابر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يُبْتَلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة .

- فهذه تسلية للرسول ﷺ .
- ويمكروا فيها بالكفر بالله تعالى .

قال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً)

وقال تعالى (وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً . وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً) .

- **قال ابن الجوزي** : وإنما جعل الأكابر فُسَّاقَ كلِّ قرية ، لأنهم أقرب إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة .

وقال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأَرْضِ) .

- أهل الترف هم أعداء الرسل غالباً ، وقد جاء ذلك في القرآن ، حيث لم يذكر الترف إلا في مقام الذم .

قال تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) .

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) .

وقال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَـرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّـةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) .

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ . لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ) .

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) .

وقال تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) .

فائدة : اختلف العلماء في معنى الآية حيث أن الله تعالى (لا يأمر بالفحشاء) على أقوال :

قيل : أمرناهم بالطاعة ففسقوا فيها بمعصية الله تعالى .

وقيل : المراد أكثرنا مترفيها .

وقيل : (أمَرنا) أي أمَّرنا ، أي : جعلناهم أمراء ففسقوا فيها ، واحتجوا بقراءة (أمّرنا) بالتشديد .

وقيل : المراد بقوله (أمرنا ...) الأمر الكوني القدري ، بمعنى : قضينا ذلك وقدرناه .

واختار هذا القول : ابن تيمية ، وابن القيم ، وابن كثير .

- (جعلنا في كل قرية) أي : صيرنا ، وتأتي بمعى (خلق) كقوله تعالى (وجعل منها زوجها) أي : خلق منها زوجها (وجعل الظلمات والنور) أي : وخلق الظلمات والنور .
- **قال ابن كثير** : والمراد بالمكر هاهنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال .

كما قال تعالى إخبارًا عن قوم نوح (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا) ، وقال تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا) .

- خطر الترف .

يكفي في الترف : أن أهل الترف هم أعداء الرسل ، وهم الذين وقفوا في وجه الأنبياء والرسل والدعاة .

ولذلك لم يأت الترف في القرآن إلا في مقام الذم كما تقدم في الآيات السابقة .
فمنذ عهد نوحٍ – عليه السَّلام – نجد هذه الطَّبقة المتْرَفة المستكبِرة تقف في وجه دعوته، مستصغِرةً شأن الذين اتَّبعوه من الفقراء الذين لا مال لَهم ولا جاه، ويطلبون منه أن يطرد هؤلاء الأراذِلَ في رأيهم (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِين) .
فيردُّ نوحٌ على تعنُّتِهم، قائلاً (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُون) .
واستمرَّ موقف المترفين بعد قوم نوح – الذين أهلكهم الله – لَم يتغيَّر (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) .
واستمر هذا الموقف من العناد والصدِّ إلى بعثة النبيِّ محمد ﷺ فكانوا أوَّلَ المكذِّبين المعارضين، فوجَّه القرآنُ لهم وعيدَه في عددٍ من السُّور المكية (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً) (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُون) .
ويقرِّر القرآن موقف المترفين من الرِّسالات الإلهية بصفة عامَّة، فيقول :
(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِين) .
هؤلاء قد ضلَّ تفكيرهم عندما ربطوا مَجْدَ الدنيا وسعادة الآخرة بكثرةِ الأموال والأولاد، والقرآنُ يَردُّ عليهم شارحًا الطريق الصَّحيح للعظَمة الإنسانيَّة، وهو العمل الصَّالح، والخلق الرَّضِي، لا البطر الذي أتيح لهم بسبب ما عندهم من قوة (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُون) .
إن التَّرَف مُفسِدٌ للفرد؛ لأنَّه يشغله بشهواتِ بطنه وفرْجِه، ويلهيه عن معالي الأمور ومكارم الأخلاق، لأنَّه يقتل فيه روحَ الجهاد والجد والخشونة، ويجعله عبدًا لحياة الدَّعة والرفاهية .
وفي هذا يقول الرسول ﷺ (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدِّرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة) .
الترف سبب للانحلال والهلاك ودمار الدول .
قال تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) .
قال ابن عاشور : وتعليق الأمر بِخُصوص المترفين مع أنَّ الرُّسل يُخاطِبون جميع الناس؛ لأنَّ عصيانَهم الأمرَ الموجَّه إليهم هو سبب فسقِهم، وفسق بقيَّة قومهم؛ إذْ هم قادة العامَّة، وزعماء الكُفر، فالخِطاب في الأكثر يتوجَّه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر اتَّبعهم الدَّهماء؛ فعمَّ الفسق أو غلب على القرية، فاستحقَّت الهلاك.
كما أنَّ الإغراق في التنعُّم والتَّرف سبب لِنُزول بلاء الله وعقابه، والحرمان من النَّصر (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُون) (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُون) .
(**وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**) أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم، كم قال تعالى (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِم) ، وقال (وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) .
وقال تعالى (وَلاَ يَحِيقُ المكر السيئ إِلاَّ بِأَهْلِهِ) .
في الدّنيا : بعذاب القتل والأسر ، وفي الآخرة : بعذاب النّار ، إنْ لم يؤمنوا .

الفوائد :

١- سنة الله في العداء بين الحق والباطل .

٢- تسلية للنبي ﷺ ولكل داعية إلى الحق .

٣- الحكمة من وجود أعداء للرسل ولدعوتهم .

٤-تقوية نفوس أهل الإيمان ، حيث أن الله تعالى يمكر بالماكرين .

(وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ (١٢٤))

[الأنعام : ١٢٤] .

(**وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ**) أي: إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة على صدق محمد ﷺ .

(**قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ**) أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، كقوله، جل وعلا (وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا) .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ) بيّن شيئاً آخر من جهلهم ، وهو أنهم قالوا لن نؤمن حتى نكون أنبياء ، فنؤتَى مثل ما أوتي موسى وعيسى من الآيات ؛ ونظيره (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً) .

والكناية في "جاءتهم" ترجع إلى الأكابر الذين جرى ذكرهم.

قال الوليد بن المغيرة : لو كانت النبوّة حقّاً لكنت أوْلَى بها منك ؛ لأني أكبر منك سِنًّا ، وأكثر منك مالاً.

وقال أبو جهل : والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً ، إلا أن يأتينا وَحْيٌ كما يأتيه ؛ فنزلت الآية.

وقيل : لم يطلبوا النبوّة ولكن قالوا لا نصدّقك حتى يأتينا جبريل والملائكة يخبروننا بصدقك.

والأوّل أصح ؛ لأن الله تعالى قال (الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) أي بمن هو مأمون عليها وموضع لها. (تفسير القرطبي) .

(**اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**) أي : هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى (وَقَالُوا لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ) يعنون: لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم (مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ) أي: مكة والطائف. وذلك لأنهم -قبحهم الله -كانوا يزدرون بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بغيًا وحسدًا ، وعنادًا واستكبارًا ، كما قال تعالى مخبرًا عنهم (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ)، وقال تعالى (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا)، وقال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

هذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه. وطهارة بيته ومرباه ومنشئه، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه (الأمين) ، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان" حين سأله (هرقل) ملك الروم: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا الحديث بطوله الذي استدل به ملك الروم بطهارة صفاته، عليه السلام، على صدقه ونبوته وصحة ما جاء به.

(**سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ**) هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن

اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله (صَغَارٌ) وهو الذلة الدائمة، لما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذُلا كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

وقوله (وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ) لما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقاً (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) ، كما قال تعالى (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) أي: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر. وجاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال (يُنْصَب لكل غادر لواء عند اسْتِه يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرة فلان ابن فلان) .

والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خَفِياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير عَلَمًا منشورًا على صاحبه بما فعل.

قال ابن عاشور : والصّغار بفتح الصّاد الذلّ ، وهو مشتقّ من الصِّغَر ، وهو القماءة ونقصان الشيء عن مقدار أمثاله.

وقد جعل الله عقابهم ذلاّ وعذاباً : ليناسب كِبْرهم وعُتُوّهم وعصيانهم الله تعالى.

والصّغار والعذاب يحصلان لهم في الدّنيا بالهزيمة وزوال السّيادة وعذاب القتل والأسر والخوف .

الفوائد :

١- شدة عناد كفار قريش .

٢- أن الاعتراض على أفعال الله من صفات المشركين .

٣- شرف للنبي ﷺ حيث اختاره للرسالة .

٤- حكمة الله الكاملة ، حيث يعلم من يستحق الرسالة ومن لا يستحق .

٥- وجوب الإيمان بقضاء الله وقدره ، لأن لله الحكمة العظيمة في يفعل ويترك .

٦- تهديد للمجرمين في الدنيا والآخرة .

(فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٢٥))

[الأنعام : ١٢٥] .

(فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ) أي: ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامة على الخير .

كقوله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) .

وقال تعالى (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) .

قال ابن عباس(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ) يقول: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به .

(وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا) أي : في حال شديدة من الانقباض عن قبول الهدى .

(كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء) قال ابن عباس (كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله في قلبه.

- **قال ابن القيم** : أعظم أسباب شرح الصدر: التوحيدُ وعلى حسب كماله ، وقوته ، وزيادته يكونُ انشراحُ صدر صاحبه.

قال الله تعالى (أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّه) .

وقال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ)

فالهُدى والتوحيدُ مِن أعظم أسبابِ شرح الصدر ، والشِّركُ والضَّلال مِن أعظم أسبابِ ضيقِ الصَّدرِ وانحراجِه .

ومنها: النورُ الذى يقذِفُه الله فى قلب العبد ، وهو نورُ الإيمان ، فإنه يشرَحُ الصدر ويُوسِّعه ، ويُفْرِحُ القلبَ. فإذا فُقِدَ هذا النور من قلب العبد ، ضاقَ وحَرِجَ ، وصار فى أضيق سجنٍ وأصعبه.

ومنها: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى ، ومحبتُه بكلِّ القلب ، والإقبالُ عليه ، والتنعُّم بعبادته ، فلا شيء أشرحُ لصدر العبد من ذلك. حتى إنه ليقولُ أحياناً: إن كنتُ فى الجنة فى مثل هذه الحالة ، فإنى إذاً فى عيش طيب .

ومِنْ أعظم أَسباب ضيق الصدر: الإعراضُ عن الله تعالى ، وتعلُّقُ القلب بغيره ، والغفلةُ عن ذِكره ، ومحبةُ سواه ، فإن مَن أحبَّ شيئاً غيرَ الله عُذِّبَ به ، وسُجِنَ قلبُه فى محبة ذلك الغير ، فما فى الأرض أشقى منه ، ولا أكسف بالاً ، ولا أنكد عيشاً .

ومن أسباب شرح الصدر : دوامُ ذِكره على كُلِّ حال، وفى كُلِّ موطن، فللذِّكْر تأثير عجيب فى انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثيرٌ عجيب فى ضِيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسانُ إلى الخَلْق ونفعُهم بما يمكنه من المال ، والجاهِ ، والنفع بالبدن ، وأنواع الإحسان ، فإن الكريم المحسنَ أشرحُ الناس صدراً ، وأطيبُهم نفساً ، وأنعمُهم قلباً ، والبخيلُ الذى ليس فيه إحسان أضيقُ الناسِ .

ومنها: الشجاعة ، فإن الشجاع منشرح الصدر ، واسع البطان ، متَّسِعُ القلب ، والجبانُ: أضيق الناس صدراً ، وأحصرُهم قلباً ، لا فرحة له ولا سرور ، ولا لذَّة له ، ولا نعيم إلا منْ جنس ما للحيوان البهيمى .

ومنها: تركُ فضولِ النظر ، والكلام ، والاستماع ، والمخالطةِ ، والأكل ، والنوم ، فإن هذه الفضولَ تستحيلُ آلاماً وغموماً ، وهموماً فى القلب ، تحصُرُه ، وتحبِسه ، وتضيِّقهُ ، ويتعذَّبُ بها ، بل غالِبُ عذابِ الدنيا والآخرة منها ، فلا إله إلا الله ما أضيقُ صدْرَ مَن ضرب فى كل آفةٍ من هذه الآفات بسهم ، وما أنكَدَ عيشَه ، وما أسوأ حاله ، وما أشدَّ حصرَ قلبه . (زاد المعاد) .

(**كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُون**) كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً ، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصده عن سبيل الله .

- **قال الرازي** : اختلفوا في تفسير (الرجس) فقال ابن عباس : هو الشيطان يسلطه الله عليهم .

وقال مجاهد (الرجس) ما لا خير فيه .

وقال عطاء (الرجس) العذاب .

وقال الزجاج (الرجس) اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة .

الفوائد :

١- سؤال الله الهداية .

٢- من علامات التوفيق انشراح الصدر للحق وقبوله والانقياد له .

٣- فضل انشراح الصدر .

٤- من علامات الضلال عدم قبول الحق والإعراض عنه .

٥- أن عدم الإيمان سبب لتسليط الشيطان على العبد عقوبة لإعراضه .

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦))

[الأنعام : ١٢٦] .

(**وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا**) أي: هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هـذا القرآن، وهو صراط الله المستقيم .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (وهذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً) هذا إشارة إلى القرآن والشرع الذي جاء به محمد ﷺ .
- **وقال القرطبي** : قوله تعالى (وهذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً) أي : هذا الذي أنت عليه يا محمد والمؤمنون دين ربك لا اعوجاج فيه.

(**قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ**) أي: قد وضحناها وبيناها وفسرناها .

(**لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُون**) أي: لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله.

الفوائد :

١-أن دين الله الذي بعث به محمد ﷺ هو الصراط المستقيم .

٢-رحمة الله بعباده حيث فصل لهم الآيات ووضحها لتقوم عليهم الحجة .

٣- الحث على التذكر بآيات الله تعالى .

(**لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٢٧)**) .

[الأنعام : ١٢٧] .

(**لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ**) وهي الجنة .

(**عِندَ رَبِّهِمْ**) أي : يوم القيامة .

- سميت بذلك : لأنها الدار التي سلمت من كل آفة وبلية ومكروه وكدر وهم وغم .
- **قال ابن الجوزي** : وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال:

أحدها : أن السلام ، هو الله ، وهي داره ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي.

والثاني : أنها دار السلامة التي لا تنقطع ، قاله الزجاج.

والثالث : أن تحية أهلها فيها السلام ، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

والرابع : أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، ففي ابتداء دخولهم (ادخلوها بسلام) وبعد استقرارهم (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) وقوله (إلا قيلاً سلاماً سلاماً) وعند لقاء الله (سلام قولاً من رب رحيم) وقوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام) .

وقال ابن القيم : ... فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه ، وهي دار الله ، واسمه سبحانه وتعالى السلام ، الذي سلمها وسلم أهلها ، وتحيتهم فيها سلام ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ، والرب تعالى يسلم عليكم من فوقهم كما قال تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم) .

وللجنة أسماء :

أولاً : الجنة .

وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار ، وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور .

قال تعالى (سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

وقال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) .

ثانياً : دار السلام .

فهي السالمة من كل بلية وآفة ومكروه .

قال تعالى (لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُون) .

وقال تعالى (وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

ثالثاً : دار الخلد .

وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبداً كما قال تعالى (عطاء غير مجذوذ) .

قال تعالى (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء ومصيراً) .

رابعاً : دار المقامة .

لأنهم مقيمون بها أبداً ، لا يموتون ولا يتحولون منها أبداً .

قال تعالى حكاية عن أهلها (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) .

خامساً : جنة المأوى .

قال تعالى (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) .

سادساً : جنات عدن .

أي جنات إقامة ، يقال عَدَنَ بالمكان أي أقام به .

قال تعالى (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً) .

وقال تعالى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

سابعاً : دار الحيوان .

أي هي الدار التي لا تنغيص فيها ولا نفاد ، ولا تفنى ولا تنقطع .

قال تعالى (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .

ثامناً : الفردوس .

والفردوس : اسم من أسماء الجنة ومعناه : البستان الذي يجمع كل ما فيه البساتين .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) .

وقال تعالى (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

(**وَهُوَ وَلِيُّهُمْ**) أي: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم .

(**بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) من الأعمال الصالحات والقربات الطيبات .

الفوائد :

١-أن مأوى المؤمنين الجنة .

٢- أن الجنة دار السلام من كل مكروه .

٣-أن الجنة دار الكمال والسرور الكامل .

٤-إثبات ولاية الله لأوليائه المتقين .

٥-الحث على العمل الصالح في هذه الدنيا وأنه سبب دخول الجنة .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)) .

[الأنعام : ١٢٨] .

(**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا**) أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزَّوهم إلى المعاصي .

- **قال الرازي** : الضمير في قوله (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ) إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان : الأول : يعود إلى المعلوم ، لا إلى المذكور ، وهو الثقلان ، وجميع المكلفين الذين علم أن الله يبعثهم.

والثاني : أنه عائد إلى الشياطين الذين تقدم ذكرهم في قوله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شياطين الإنس والجن يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً) .

(**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ**) أي: من إضلالهم، وصدهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجرأتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاربين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

فاليوم حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم. وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجأون، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع، فلا تسأل حينئذ عما يحل بهم من النكال، والخزي والوبال، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذاراً ، وأما أولياؤهم من الإنس، فأبدوا عذراً غير مقبول فقالوا:

(**وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ**) أي: تمتع كل من الجنِّي والإنسي بصاحبه، وانتفع به، فالجنّي يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته، وتعظيمه، واستعاذته به. والإنسي يستمتع بنيل أغراضه، وبلوغه بسبب خدمة الجنِّي له بعض شهواته، فإن الإنسي يعبد الجنِّي، فيخدمه الجنِّي، ويحصل له منه بعض الحوائج الدنيوية،أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك .

قال البيضاوي : انتفع الإنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها ، وانتفع الجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصّلوا مرادهم .

الانس يتحقق لهم بعض ما يطلبون كالسحر ، وما يحصل للكهان من الأخبار الغيبية التي تأتي عن استراق السمع .

وغيرها من الانتفاعات المحرمة كالسرقة وغيرها .

استمتاع الجن بالإنس : يعظمونهم .

(**وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا**) أي: وقد وصلنا المحل الذي نجازى فيه بالأعمال، فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، فقد انقطعت حجتنا ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك. وكأن في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق، ولكن في غير

أوانه.

- **قال ابن عاشور** : وقد أفادت الآية : أنّ الجنّ المخاطبين قد أُفحموا ، فلم يجدوا جواباً ، فتركوا أولياءهم يناضلون عنهم ، وذلك مظهر من مظاهر عدم إغناء المتبوعين عن أتباعهم يومئذٍ (إذ تَبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا) .

ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه، فقال :

(**قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ**) أي : مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم .

(**خَالِدِينَ فِيهَا**) أي : ماكثين مكثاً مخلداً .

(**إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ**) اختلف في الاستثناء ، فقيل : هي المدة التي بين حشرهم إلى دخولهم النار ، وقيل : يُخلدون في عذاب النار الأبد كله إلا ما شاء الله ، أي : الأوقات التي يُنقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير ، وقيل : هي ما بين الموت إلى دخول النار ، إلى غير ذلك ، وسيأتي الكلام على ذلك عند قوله تعالى (...خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) .

(**إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**) فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمّها، فحكمته الغائية شملت الأشياء وعمتها ووسعتها .

الفوائد :

١- إثبات الحشر لجميع الأمم .

٢- توبيخ الجن ومن والاهم .

٣-اعتراف المجرم بجريمته يوم القيامة ، لكن حيث لا ينفع الندم .

٤-يوم القيامة والحشر موعد للجميع حيث يحاسب الناس ويعاقب الظلمة .

٥- أن النار مأوى للكافرين .

٦- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الحكيم ، والعليم .

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (١٢٩)) .

[الأنعام : ١٢٩] .

(**وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**) أي : كما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض نسلط بعض الظالمين على بعض بسبب كسبهم للمعاصي والذنوب .

قال القرطبي : وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالما آخر. ويدخل في الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الرعية ، أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم.

وقال فضيل بن عياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف ، وانظر فيه متعجباً .

نسلط بعضهم على بعض جزاء وفاقاً ، عقوبة لهم .

- قال الفخر : إنْ أراد الرّعيّةُ أن يتخلّصوا من أمير ظالم ؛ فليتركوا الظّلم.

وقد قيل :ومَا ظَالمٌ إلاّ سَيُبْلَى بظَالِمِ .

وقيل : من الولاية ، أي يكونون أولياء بعض ، (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ...) وقال تعالى (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ

بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ...) ، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله .

قال ابن جرير : وأولى هذه الاقوال في تأويل ذلك بالصواب ، قول من قال معناه : وكذلك نجعل بعض الظالمين لبعض أولياء .

وقيل في معنى الآية (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) أي: وكما ولَّيْنَا الجن المردة وسلطناهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة ، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك.

كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالماً مثله ، يؤزه إلى الشر ويحثه عليه ، ويزهده في الخير وينفره عنه ، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها ، البليغ خطرها ، والذنب ذنب الظالم ، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه ، وعلى نفسه جنى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ) .

الفوائد :

١- خطر الذنوب والمعاصي ومحاربة الله ورسوله ، فإنها سبب لعدم توفيق الله للعبد ، حيث يجعل له قرناء سيئين يقودونه للمعاصي والمنكرات .

٢- خطر الظلم .

٣-أن عاقبة الظلم وخيمة .

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ (١٣٠)) .

[الأنعام : ١٣٠] .

(**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ**) وهذا أيضا مما يُقرع الله به سبحانه وتعالى كافري الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم – وهو أعلم – : هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهامُ تقرير (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) أي: من جملتكم. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد، وابن جُرَيْج، وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف.

وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نُذُر.

وحكى ابن جرير، عن الضحاك بن مُزاحم: أنه زعم أن في الجن رسلا واحتج بهذه الآية الكريمة وفي الاستدلال بها على ذلك نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة .

(**يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي**) الواضحات البينات ، التي فيها تفاصيل الأمر والنهي ، والخير والشر ، والوعد والوعيد .

(**وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا**) أي : يحذرونكم يوم القيامة ، وأن النجاة والفوز فيه إنما هي بامتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وأن الشقاء والخسران في تضييع ذلك .

(**قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا**) أي: أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة.

(**وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**) بزينتها ، وزخرفها ، ونعيمها ، فأطمأنوا بها ، ورضوا بها ، وألهتهم عن الآخرة .

(**وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ**) أي : يوم القيامة .

(**أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ**) أي : في الدنيا ، بما جاءتهم به الرسل .

الفوائد :

١- قال الرازي : اعلم أن هذه الآية من بقية ما يذكره الله تعالى في توبيخ الكفار يوم القيامة ، وبين تعالى أنه لا يكون لهم إلى الجحود سبيل ، فيشهدون على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين ، وأنهم لم يعذبوا إلا بالحجة.

٢- هل من الجن رسل ؟ قولان :

القول الأول : ليس في الجن أنبياء ورسل، وإنما قد يكون منهم نذر، وهذا قول جمهور أهل العلم ، واستدلوا على ذلك بأدلة عدة :

قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) يوسف/١٠٩.

وقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأسْوَاقِ) الفرقان/٢٠.

وقوله تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) العنكبوت/٢٧.

ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) .

وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذُرٌ ، وليس فيهم رسل ، ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولاً – ثم استدل لذلك بالآيات السابقة . (تفسير ابن كثير) .

وهذا القول هو الذي قرره جمهور المفسرين في كتبهم .

القول الثاني : في الجن من الأنبياء والرسل من جنسهم .

وهذا رأي مقاتل ، والضحاك – كما رواه عنهما ابن جرير الطبري رحمه الله في " جامع البيان " (١٢١/١٢) ، وذكر الخلاف في المسألة – وهو قول ابن حزم رحمه الله في " المحلى " (٤٩٤/٧) حيث يقول : " صح يقينا أنهم بعث إليهم أنبياء منهم " انتهى.

واستدلوا لذلك بقول الله تعالى :(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ) .

وقد أجاب عن هذا الاستدلال الحافظ ابن كثير رحمه الله بقوله :

فأما قوله تعالى في سورة الأنعام (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) الأنعام/١٣٠، فالمراد من مجموع الجنسين ، فيصدق على أحدهما وهو الإنس " انتهى باختصار.

- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (يَا مَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ) قال بعض العلماء : المراد بالرسل من الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل ، فيبلغونه إلى قومهم ، ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم منذرون لقومهم في قوله (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالوا أنصتوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) .

٣- أن الجن مخاطبون بفروع الشريعة .

٤- حكم الجني الكافر والمؤمن في الآخرة .

قال السيوطي في الأشباه والنظائر: لا خلاف في أن كفار الجن في النار، واختلف هل يدخل مؤمنهم الجنة ويثابون على الطاعة؟ على أقوال أحسنها نعم، وينسب للجمهور.

ومن أدلته قوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) .

والخطاب للجن والإنس، فامتن عليهم بجزاء الجنة ووصفها لهم وشوقهم إليها، فدل على أنهم ينالون ما امتن به عليهم إذا آمنوا، وقيل: لا يدخلونها وثوابهم النجاة من النار، وقيل: يكونون في الأعراف .

قال ابن كثير – رحمه الله – عند قوله تعالى (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ) .

وَقَدْ اِسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَة مَنْ ذَهَبَ مِنْ الْعُلَمَاء إِلَى أَنَّ الْجِنّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّة , وَإِنَّمَا جَزَاء صَالِحِيهِمْ أَنْ يُجَارُوا مِنْ عَذَاب النَّار يَوْم الْقِيَامَة وَلِهَذَا قَالُوا هَذَا فِي هَذَا الْمَقَام وَهُوَ مَقَام تَبَجُّح وَمُبَالَغَة فَلَوْ كَانَ لَهُمْ جَزَاء عَلَى الْإِيمَان أَعْلَى مِنْ هَذَا لَأَوْشَكَ أَنْ يَذْكُرُوهُ .... وَالْحَقّ أَنَّ مُؤْمِنِيهِمْ كَمُؤْمِنِي الْإِنْسِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّة كَمَا هُوَ مَذْهَب جَمَاعَة مِنْ السَّلَف وَقَدْ اِسْتَدَلَّ بَعْضهمْ لِهَذَا بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَل (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْس قَبْلهمْ وَلَا جَانّ) وَفِي هَذَا الِاسْتِدْلَال نَظَر وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَوْله جَلَّ وَعَلَا (وَلِمَنْ خَافَ مَقَام رَبّه جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاء رَبّكُمَا تُكَذِّبَان) فَقَدْ اِمْتَنَّ تَعَالَى عَلَى الثَّقَلَيْنِ بِأَنْ جَعَلَ جَزَاء مُحْسِنهمْ الْجَنَّة وَقَدْ قَابَلَتْ الْجِنّ هَذِهِ الْآيَة بِالشُّكْرِ الْقَوْلِيّ أَبْلَغ مِنْ الْإِنْس ، فَقَالُوا : " وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِك رَبّنَا نُكَذِّب فَلَك الْحَمْد " ، فَلَمْ يَكُنْ تَعَالَى لِيَمْتَنّ عَلَيْهِمْ بِجَزَاءٍ لَا يَحْصُل لَهُمْ ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يُجَازِي كَافِرهمْ بِالنَّارِ – وَهُوَ مَقَام عَدْل – فَلَأَنْ يُجَازِيَ مُؤْمِنَهُمْ بِالْجَنَّةِ – وَهُوَ مَقَام فَضْل – بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى .

وَمِمَّا يَدُلّ أَيْضًا عَلَى ذَلِكَ عُمُوم قَوْله تَعَالَى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات كَانَتْ لَهُمْ جَنَّات الْفِرْدَوْس نُزُلاً) ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ الْآيَات . (تفسير ابن كثير) .

٥- الحكمة من إرسال الرسل وهي إقامة الحجة .

٦- تحذير الكفار من يوم القيامة .

٧-الحذر من فتنة الدنيا وزينتها والاطمئنان لها .

٨- أن الندم والاعتراف يوم القيامة لا ينفع الكافر .

(**ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (٣١)**) .

[الأنعام : ٣١] .

(**ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ**) أي : إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يعاقب أحد بظلمه ، وهو لم تبلغه دعوة ، ولكن أعذرنا إلى الأمم ، وما عذبنا أحدًا إلا بعد إرسال الرسل إليهم .

كما قال تعالى (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) .

وقال تعالى (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا) .

- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) النفي في هذه الآية الكريمة منصب على الجملة الحالية ، والمعنى أنه لا يهلك قوماً في حال غفلتهم ، أي عدم إنذارهم ، بل لا يهلك أحداً إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، كما بين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً) ، وقوله (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل) ، وقوله (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِير) ، وقوله (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) إلى غير ذلك من الآيات .

● **قال ابن عاشور** : والإهلاك : إعدام ذات الموجود وإماتةُ الحيّ ، فإهلاك القرى إبادة أهلها وتخريبها ، وإحياؤها إعادةُ عُمرانها بالسكّان والبناء ، قال تعالى (أنَّ يحيي هذه (أي القريةَ) الله بعد موتها) .

وقال : الباء في (بِظلم) للسّببيّة ، والظلم : الشّرك ، أي مهلكهم بسبب شرك يَقع فيها فيهلكها ويهلك أهلها الّذين أوقعوه ، ولذلك لم يقل : بظلم أهلها ، لأنَّه أريد أن وجود الظلم فيها سببُ هلاكها ، وهلاكُ أهلها بالأحرى لأنّهم المقصود بالهلاك.

وجملة (وأهلها غافلون) حال من (القرى) ، وصرح هنا بـ (أهلها) تنبيها على أنّ هلاك القُرى من جراء أفعال سكّانها (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) .

الفوائد :

١- أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة .

٢-أن الظلم – وهو الشرك – سبب لهلاك الأمم .

٣-التحذير من الظلم ، وأنه سبب للهلاك .

(**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** (**١٣٢**)) .

[الأنعام : ١٣٢] .

((**وَلِكُلٍّ**) أي : ولكل الناس من كافرين ومؤمنين .

(**دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا**) أي : مراتب ومنازل ، فلكل واحد من المطيعين والعاصين درجات ، أي : منازل ومراتب يستحقونها بأعمالهم ، فمنهم من هو بدرجته في أعلى الجنان ، ومنهم من هو بأعماله في دركات النار ، وقد بين تعالى أن الآخرة يتفاوت أهلها بدرجاتهم كما في قوله (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً) ، وبيّن أن أهل النار يتفاوتون في دركاتهم فقال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً) .

● **قال السعدي** : (وَلِكُلٍّ) منهم (دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا) بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره، ولا التابع كالمتبوع، ولا المرءوس كالرئيس، كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتركوا في الربح والفلاح ودخول الجنة، فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم، قد رضوا بما آتاهم مولاهم، وقنعوا بما حباهم.

فنسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى، التي أعدها الله للمقربين من عباده، والمصطفين من خلقه، وأهل الصفوة من أهل وداده.

(**وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**) فيجازي كلا بحسب علمه، وبما يعلمه من مقصده، وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة، ونهاهم عن الأعمال السيئة، رحمة بهم، وقصدا لمصالحهم. وإلا فهو الغني بذاته، عن جميع مخلوقاته، فلا تنفعه طاعة الطائعين، كما لا تضره معصية العاصين.

الفوائد :

١-أن الله لا يظلم أحداً .

٢- أن كل إنسان منزلته حسب عمله وإيمانه .

٣- كمال علم الله تعالى .

٤- أن الله لا يغيب عنه شيء لكمال علمه . الأحد/٦/٦/١٤٣٥هـ

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣)) .

[الأنعام : ١٣٣] .

(**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ**) يقول تعالى (وَرَبُّكَ) يا محمد (الْغَنِيُّ) أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم.

- **قال البيضاوى** : (وَرَبُّكَ الغنى) عن العباد والعبادة.

- فالله غني عن كل ما سواه ، غني في نفسه لكثرة ما عنده ، غني عن خلقه ، كما قال تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) له ملك السموات والأرض ، وخزائن السموات والأرض كلها بيده ، كما قال تعالى (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) ، فخزائنه عز وجل ملأ ، لا يغيضها كثرة الإنفاق ، وليس بحاجة إلى خلقه ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وكل شيء فقير إليه .

- **قال ابن القيم** : هو الغني بذاته الذي كل ما سواه محتاج إليه ، وليس به حاجة إلى أحد .

- **وقال السعدي** : هو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً قادراً رازقاً محسناً فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عاماً .

قال : ومن كمال غناه : أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً في الملك ، ولا ولياً من الذل .

وقال الخطابي : الغني: هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرتهم وتأييدهم لملكه، فليست به حاجة إليهم، وهم إليه فقراء محتاجون .

- فغنى الله يتضمن شيئين : الأول : الغنى الذاتي ، لكثرة ما يملكه ، إذ كل شيء ملكه ، والثاني : الغنى عن الغير ، فلا يحتاج إلى أحد وغيره محتاج إليه .

- **الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم** :

أولاً : إفراد الله تعالى بالعبادة ، لأنه سبحانه هو الغني الغنى المطلق ، والغنى وصف له سبحانه ذاتي وما سواه من الخلائق مفتقر إليه ، فالأمر كله له والملك كله له ، وجميع الخلق مربوبون مملوكون ، فكيف يتخذ منهم معبوداً مع الله تعالى ؟

ثانياً : الافتقار التام إلى الله عز وجل ، لأن الفقر صفة ذاتية ملازمة للعبد في جميع أحيانه ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى ، ولا يستغني عن ربه سبحانه طرفة عين ، لأنه سبحانه الغني ذو الغنى المطلق الذي لا يحتاج إلى أحد ، وكل أحد محتاج إليه .

ثالثاً : أن هذا الاسم يثمر في قلب المؤمن الغنى القلبي كما في الحديث (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى القلب) وهذا يثمر الاستغناء بالله تعالى وحده عن الناس وعزة النفس ، والتعفف والزهد بما في أيدي الناس ، وعدم التذلل لهم وعدم التعلق بأعطياتهم وإعانتهم ، بل يجرد العبد تعلقه وقضاء حوائجه وطلب رزقه بالله الغني الحميد الكريم الوهاب الذي لا تفنى خزائنه .

رابعاً : أن الله غني عن عباده ، ومع ذلك فهو محسن إليهم ، رحيم بهم ، وهذا من كمال غناه وكرمه ورحمته .

أما العباد فإنهم يحسنون إلى بعضهم البعض لتعلق مصالحهم بذلك إما عاجلاً وإما آجلاً .

- ومن غنى الله أنه منزه عن الولد ، لأن الولد إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره ، والله سبحانه وتعالى غني ، وقد أشار إلى ذلك بقوله (قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ) .

(**ذُو الرَّحْمَةِ**) أي: وهو مع ذلك رحيم بهم رؤوف، كما قال تعالى (إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) .

- **قال أبو حيان** : لما ذكر تعالى من أطاع ومن عصى والثواب والعقاب ذكر أنه هو الغني من جميع الجهات لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ، ومع كونه غنياً هو ذو الرحمة أي التفضل التام.
- **قال الشوكاني** : قوله (وَرَبُّكَ الغنى) أي : عن خلقه لا يحتاج إليهم ولا إلى عبادتهم لا ينفعه إيمانهم ، ولا يضرّه كفرهم ، ومع كونه غنياً عنهم ، فهو ذو رحمة بهم لا يكون غناه عنهم مانعاً من رحمته لهم ، وما أحسن هذا الكلام الرباني وأبلغه ، وما أقوى الاقتران بين الغنى والرحمة في هذا المقام ، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هي غاية التفضل والتطوّل.
- ومن أعظم آثار رحمة الله تعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للناس وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وقال تعالى (ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) .
- ومن رحمته : سبحانه مغفرته لذنوب عباده بالصفح عنهم ، وتكفير سيئاتهم ، وفتح باب التوب لهم ، كما قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .
- ينبغي على العبد أن يتصف بصفة الرحمة ، فقد مدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ، ومن أسمائه ﷺ (نبي الرحمة) ومدح الصحابة بقوله (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ، وخص أبو بكر من بينهم بقوله (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر) .
- **الآثار المرتبة على معرفتنا بهذا الاسم** :

أولاً : محبة الله المحبة العظيمة ، وذلك حينما يفكر العبد وينظر في آثار رحمة الله في الآفاق وفي النفس والتي لا تعد ولا تحصى ، وهذا يثمر تجريد المحبة لله والعبودية الصادقة له سبحانه وتقديم محبته على النفس والأهل والمال والناس جميعاً .

ثانياً : عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله وعدم اليأس من رحمة الله تعالى ، فإن الله قد وسعت رحمته كل شيء ، وحسن الظن بالله وانتظار الفرج بعد الشدة من أجل العبادات .

ثالثاً : اتصاف العبد بالرحمة وبذلها لعباد الله تبارك وتعالى، وقد حض الله عباده على التخلق بها، ومدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ومن أسمائه ﷺ أنه نبي الرحمة، ومدح الصحابة بقوله (رحماء بينهم) وخُص أبو بكر بينهم بالكمال البشري في الرحمة بعد الرسل حيث قال ﷺ فيه (أرحم أمتي أبو بكر). رواه أحمد

رابعاً : التعرض لرحمة الله بفعل أسبابها ، ومن أسبابها :

أولاً : رحمة الناس .

قال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) .

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) .

ثانياً : الإحسان .

قال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) .

ثالثاً : طاعة الرسول ﷺ .

قال تعالى (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

رابعاً : السماحة في البيع والشراء .

قال رسول الله ﷺ (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) . رواه البخاري .

خامساً : عيادة المريض .

قال رسول الله ﷺ (من عاد مريضاً خاض في الرحمة) .

سادساً : قيام الليل وإيقاظ الأهل .

قال رسول الله ﷺ (رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء) رواه أبو داود .

سابعاً : الحلق في النسك .

قال رسول الله ﷺ (اللهم ارحم المحلقين ثلاثاً) متفق عليه .

ثامناً : مجالس الذكر .

قال رسول الله ﷺ (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة) رواه مسلم .

تاسعاً : الجلوس في المسجد .

قال رسول الله ﷺ (إن الملائكة تستغفر للمصلي مادام في مصلاه تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه) متفق عليه .

عاشراً : سماع حديث الرسول وتبليغه .

قال رسول الله ﷺ (رحم الله من سمع مني حديثاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع) رواه ابن حبان .

الحادي عشر : الإنصات للقرآن .

قال تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الثاني عشر : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

قال تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

الثالث عشر : الاستغفار .

قال تعالى (لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

(**إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ**) أي: إذا خالفتم أمره .

(**وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء**) أي: قوماً آخرين، أي: يعملون بطاعته .

(**كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِين**) أي : كما خلقكم وابتدأكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم .

- **قال الخازن** : (إن يشأ يذهبكم) يعني يهلككم ، الخطاب لأهل مكة ففيه وعيد وتهديد لهم (ويستخلف) يعني وينشئ ويخلق (من بعدكم) يعني من بعد إهلاككم (ما يشاء) يعني خلقاً غيركم أمثل وأطوع منكم (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) .
- **قال ابن كثير** : أي: هو قادر على ذلك، سهل عليه ، يسير لديه، كما أذهب القرون الأوَل وأتى بالذي بعدها كذلك هو قادر

على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين .

كما قال تعالى (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ).

وقال تعالى (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) .

- **قال أبو حيان** : وتضمنت الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بالإهلاك .

الفوائد :

١- إثبات الغنى المطلق لله تعالى .

٢-طلب الغنى من الله تعالى .

٣-ذم طلب الغنى من غير الله تعالى .

٤-فقر المخلوق وحاجته .

٥- سعة رحمة الله ، فإنه سبحانه مع غناه عن خلقه وعن طاعاتهم فهو رحيم بهم . الثلاثاء/٦/٧/١٤٣٥هـ

(إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)) .

[الأنعام : ١٣٤] .

(إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) أي: أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) أي: ولا تعجزون الله، بل هو قادر على إعادتكم، وإن صرتم ترابًا رفاتًا وعظامًا هو قادر لا يعجزه شيء.

- في هذه الآية إثبات البعث .

وقد ذكر الله سبع طرق لإثبات البعث .

في هذه الآية ذكر الله تعالى طريقة من طرق إثبات البعث، وقد تنوعت طرق إثبات البعث في القرآن، وجاءت على سبع طرق:

الطريقة الأولى :

آيات صريحة في إثبات ذلك :

قال تعالى : (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) . وقال تعالى: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) .وقال تعالى: (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) . وقال تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .وقال تعالى : (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد :

فقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ) .

وقال تعالى : (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) .

وقال تعالى : (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) .

وذم الله المكذبين بالمعاد :

فقال تعالى : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) .

وقال تعالى : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً) .

الطريقة الثانية :

التذكير بنشأة الإنسان الأولى :

قال تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) .

وقال تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ).

الطريقة الثالثة :

الاستدلال بإنبات النبات على إحياء الأموات :

قال تعالى : (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) .

وقال سبحانه : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

الطريقة الرابعة :

الإشارة ولفت الانتباه إلى خلق السماوات :

قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

الطريقة الخامسة :

تنزيه الله سبحانه عن العبث .

فلو فرضنا أنه لا جزاء ولا حساب ولا بعث ، فما فائدة الأوامر والنواهي .

قال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) .

وقال تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) . أي : لا يؤمر ولا ينهى ، وقيل لا يبعث .

الطريقة السادسة :

تنزيه الله عن الظلم :

فلو لم يكن هناك بعث لا استوى الناس ، فاستوى المؤمن الذي ترك كثيراً من الشبهات مخافة ربه ، والكافر لا يعرف ربه أصلاً .

قال تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ) .

الطريقة السابعة :

ذكر وقائع وأحداث يستدل بها على البعث .

وقد ذكر في سورة البقرة خمس قصص تدل على البعث :

الموضع الأول : قصة بني إسرائيل التي سبقت (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ

تَنْظُرُونَ . ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

الموضع الثاني : هذا الموضع (فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .

الموضع الثالث : قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) .

الموضع الرابع : قوله تعالى في عزير وحماره (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

الموضع الخامس : قوله تعالى في طيور إبراهيم (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

الفوائد :

١- إثبات البعث .

٢-تنزيه الله عن الظلم .

٣- تنزيه الله عن العبث .

٤- أن الله لا يعجزه شيء لكمال قدرته .

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥))
[الأنعام : ١٣٥] .

(**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ**) هذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، أي: استمروا على طريقكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي، كما قال تعالى (وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) .

- والأمر هنا للتهديد ، كقوله (اعملوا ما شئتم) .
- والأمر للتهديد والوعيد ، وإظهار ما هو عليه ﷺ في غاية التصلب في الدين ، ونهاية الوثوق بأمره ، وعدم المبالاة بأعدائه أصلاً .

(**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**) أي: أتكون لي أو لكم.

- **قال ابن كثير** : وقد أنجز موعده له، صلوات الله عليه، فإنه تعالى مكن له في البلاد، وحكمه في نواصي مخالفيه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته. ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه، رضي الله عنهم أجمعين، كما قال الله تعالى (كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) .

وقال (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)
وقال تعالى (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) .

وقال تعالى إخبارًا عن رسله (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ

وَعِيدِ) .

وقال تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) وقد فعل الله تعالى ذلك بهذه الأمة، وله الحمد والمنة أولا وآخرًا، باطنًا وظاهراً . (تفسير ابن كثير) .

- وقوله (إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) أى : إنى عامل على مكانتى ، ثابت على الإسلام لا أتزحزح عن الدعوة إليه ، فسوف تعلمون بعد حين من تكون له العاقبة الحسنى في هذه الدنيا.

وقوله : فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ بجانب إفادته للإنذار، فيه إنصاف في المقال، وحسن أدب في الخطاب، حيث لم يقل – مثلاً – العاقبة لنا، وإنما فوض الأمر إلى الله ، فهو كقوله تعالى (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) وفيه تنبيه على وثوق المنذر بأنه على الحق. (التفسير الوسيط) .

الفوائد :

١–تهديد من كفر وعاند .

٢–اعلان البراءة من الشرك وأهله .

٣– الثبات على الحق مهما خالف المخالفون .

٤–الثقة بوعد الله تعالى .

٥– أن ثقة الإنسان بالحق الذي معه سبب لثباته وقوته .

٦– التحذير من الظلم بأنواعه ، وأخطره الشرك .

(وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)) .

[الأنعام : ١٣٦] .

(**وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ** .....) لقد حكت هذه الآيات الكريمة بعض الرذائل التي كانت متفشية في المجتمع الجاهلى ، أما الرذيلة الأولى فملخصها أنهم كانوا يجعلون من زروعهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيباً لله ونصيباً لأوثانهم ، فيشركونها في أموالهم فما كان لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين ، وما كان للأوثان أنفقوه عليها وعلى سدنتها فإذا رأوا ما جعلوه لله أزكى بدلوه بما للأوثان ، وإذا رأوا ما جعلوه للأوثان أزكى تركوه لها.

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً) (ذرأ) بمعنى خلق يقال : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا أى : خلقهم وأوجدهم ، أى : وجعل هؤلاء المشركون مما خلقه الله تعالى من الزروع والأنعام نصيبا لله يعطونه للمساكين وللضيوف وغيرهم ، وجعلوا لأصنامهم نصيبا آخر يقدمونه لسدنتها ، وإنما لم يذكر النصيب الذي جعلوه لأصنامهم اكتفاء بدلالة ما بعده وهو قوله (فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا) أى : فقالوا في القسم الأول : هذا لله نتقرب به إليه ، وقالوا في الثاني : وهذا لشركائنا نتوسل به إليها.

وقوله تعالى في القسم الأول هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ أى : بتقولهم ووضعهم الذي لا علم لهم به ولا هدى.

ثم فصل – سبحانه – ما كانوا يعملونه بالنسبة للقسمة فقال (فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى

شُرَكَائِهِمْ) أي : فما كان من هذه الزروع والأنعام من القسم الذي يتقرب به إلى شركائهم ، فإنهم يحرمون الضيفان والمساكين منه ولا يصل إلى الله منه شيء ، وما كان منها من القسم الذي يتقرب به إلى الله عن طريق إكرام الضيف والصدقة ، فإنهم يجورون عليه ويأخذون منه ما يعطونه لسدنة الأصنام وخدامها ، فهم يجعلون قسم الأصنام لسدنتها وأتباعها وحدهم ، بينما القسم الذي جعلوه لله بزعمهم ينتقصونه ويضعون الكثير منه في غير موضعه ، ويقولون : إن الله غنى وإن آلهتنا محتاجة.

وقد عقب القرآن على هذه القسمة الجائرة بقوله (ساءَ ما يَحْكُمُونَ) أى : ساء وقبح حكمهم وقسمتهم حيث آثروا مخلوقاً عاجزاً عن كل شيء ، على خالق قادر على كل شيء ، فهم بجانب عملهم الفاسد من أساسه لم يعدلوا في القسمة.

- **قال الرازي** : فإن قيل : أليس أن جميع الأشياء لله فكيف نسبوا إلى الكذب في قولهم : هذا لله ؟

قلنا : إفرازهم النصيبين نصيباً لله ؛ ونصيباً للشيطان هو الكذب.

- **قال الرازي** : قوله تعالى (ساء ما يحكمون) ذكر العلماء في كيفية هذه الإساءة وجوهاً كثيرة :

الأول : أنهم رجحوا جانب الأصنام في الرعاية والحفظ على جانب الله تعالى ، وهو سفه.

الثاني : أنهم جعلوا بعض النصيب لله وجعلوا بعضه لغيره مع أنه تعالى الخالق للجميع ، وهذا أيضاً سفه.

الثالث : أن ذلك الحكم حكم أحدثوه من قبل أنفسهم ، ولم يشهد بصحته عقل ولا شرع ، فكان أيضاً سفهاً.

الرابع : أنه لو حسن إفراز نصيب الأصنام لحسن إفراز النصيب لكل حجر ومدر .

الخامس : أنه لا تأثير للأصنام في حصول الحرث والأنعام ، ولا قدرة لها أيضاً على الانتفاع بذلك النصيب فكان إفراز النصيب لها عبثاً ، فثبت بهذا الوجوه أنه (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) والمقصود من حكاية أمثال هذه المذاهب الفاسدة ، أن يعرف الناس قلة عقول القائلين بهذه المذاهب ، وأن يصير ذلك سبباً لتحقيرهم في أعين العقلاء ، وأن لا يلتفت إلى كلامهم أحد ألبتة.

- **وقال القاسمي** : لأنهم أولاً عملوا ما لم يشرع لهم ، وضلوا في القسم . لأنه تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه ، لا إله غيره ،ولا رب سواه . ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة ، لم يحفظوها ، بل جاروا فيها ، إذ رجحوا جانب الأصنام في الحفظ والرعاية سفهاً .

- روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله: "قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ".

الفوائد :

١-شدة افتراء المشركين على الله .

٢-أن الله خالق كل شيء .

٣-غنى الله عن كل شيء .

٤-جوْر أهل الشرك وعدم عدلهم .

٥- تنقص الله من صفات المشركين .

(وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)) .

[الأنعام : ١٣٧] .

(**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ**) يقول تعالى: وكما زينت الشياطين لهؤلاء المشركين أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار.

(**لِيُرْدُوهُمْ**) أي : ليهلكوهم بالإغواء .

(**وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ**) أي : وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل .

وهذا كقوله تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) .

وقال تعالى (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) .

وقد كانوا أيضاً يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو: الفقر، أو خشية الإملاق ، وقد نهاهم الله عن قتل أولادهم لذلك وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان تزيينه لهم ذلك .

قال تعالى (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً . وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً) .

وقال تعالى في هذه السورة (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » . قَالَ قُلْتُ لَهُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ . قَالَ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ « ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » . قَالَ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ « ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ) متفق عليه .

- والتزيين : التحسين ، فمعنى تزيينهم لهم أنهم حسنوا لهم هذه الأفعال القبيحة ، وحضوهم على فعلها.

سموا شركاء لأنهم أطاعوهم فيما امروهم به من قتل الأولاد ، فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم ، أو سموا شركاء لأنهم كانوا يشاركون الكفار في أموالهم التي منها الحرث والأنعام.

- فأنت ترى أن شركاءهم قد حسنوا لهم القبيح من أجل أمرين : إهلاكهم وإدخال الشبهة عليهم في دينهم .

(**وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ**) أ ي: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونًا، وله الحكمة التامة في ذلك، فلا يسأل عما يفعل وهم يُسألون .

(**فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**) أي: فدعهم واجتنبهم وما هم فيه، فسيحكم الله بينك وبينهم.

الفوائد :

١-أن الشياطين تزين للإنسان العمل السيئ .

٢-أن كل عمل سيئ فهو من تزيين الشيطان .

٣- أن هدف الشيطان إضلال وإغواء الإنسان .

٤- الحذر ممن يلبس دين الله وينشر الشبه .

٥- تهديد ووعيد لمن افترى الله وكذب .

(**وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**) (**١٣٨**) (**وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ** (**١٣٩**)) .

[الأنعام : ١٣٨- ١٣٩] .

(**وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ**) ولما ذكر إقدامهم على ما قبحه الشرع ، ولامه على تقبيحه العقلُ من قتل الأولاد ، أتبعه إحجامهم عما حسنه الشرع من ذبح بعض الأنعام لنفعهم ، وضم إليه جملة مما منعوا أنفسهم منه ودانوا به لمجرد أهوائهم فقال (وقالوا) أي المشركون سفهاً وجهلاً (هذه) إشارة إلى قطعة من أموالهم عينوها لآلهتهم (أنعام وحرث حجر) أي حرام محجور عليه فلا يصل أحد إليه، وهو وصف يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات (لا يطعمها) أي يأكل منها (إلا من نشاء) أي من السدنة ونحوهم (بزعمهم) أي بتقولهم بمجرد الهوى من غير سند عن الله الذي له ملكوت السماوات والأرض ، وهم كاذبون في هذا الزعم في أصل التحريم وفي نفوذ المنع ، فلو أراد الله أن تؤكل لأكلت ولم يقدروا على منع . (البقاعي) .

- **قال الرازي** : وكانوا إذا عينوا شيئاً من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا (لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء) يعنون خدم الأوثان ، والرجال دون النساء.

- **قال ابن عطية** : قوله (بزعمهم) أي : بتقولهم الذي هو أقرب إلى الباطل منه إلى الحق ، و" زعمهم " هنا هو في قولهم " حجر " وتحريمهم بذلك ما لم يحرم الله تعالى .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر) الحرث : الزرع ، والحجر : الحرام.

والمعنى : أنهم حرَّموا أنعاماً وحرثاً جعلوه لأصنامهم ، قال ابن قتيبة : وإنما قيل للحرام : حجر ، لأنه حُجر على الناس أن يصيبوه.

- وفي هذه الأنعام التي جعلوها للأصنام قولان.

أحدهما : أنها البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام.

والثاني : أنها الذبائح التي للأوثان ؛ وقد سبق ذكرهما.

- **قال الزجاج** : أعلم الله تعالى أن هذا التحريم زعم منهم ، لا حجة فيه ولا برهان.

(**وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا**) وهي البحائر والسوائب والحوامي ، وقد مر تفسيره في سورة المائدة.

- **قال ابن عطية** : كانت للعرب سنن ، إذا فعلت الناقة كذا من جودة النسل والمواصلة بين الإناث ونحوه حرم ظهورها فلم تركب وإذا فعل الفحل كذا وكذا حرم فعدد الله ذلك على جهة الرد عليهم إذ شرعوا بذلك برأيهم وكذبهم .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا) يريد ما يسيبونه لآلهتهم على ما تقدّم من النصيب.

وقال مجاهد : المراد البَحِيرة والوصِيلة والحام .

(**وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا**) يعني ما ذبحوه لآلهتهم.

(**افْتِرَاء عَلَيْهِ**) أي : على الله .

(**سَيَجْزِيهِم**) سيعاقبهم .

(**بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**) يعني : يكذبون على الله أنه أمرهم .

(**وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء**) أى : ومن فنون كفرهم أنهم قالوا ما في بطون هذه الأنعام المحرمة إذا نزل منها حيا فأكله حلال للرجال دون النساء ، وإذا نزل ميتا فأكله حلال للرجال والنساء على السواء.

(**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ**) تهديد لهم أى : سيجزيهم بما هم أهله من العذاب المهين جزاء وصفهم أو بسبب وصفهم الكذب على الله في أمر التحليل والتحريم على سبيل التحكم والتهجم بالباطل على شرعه. إنه – سبحانه – حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه ، عليم بأعمال عباده من خير أو شر وسيجازيهم عليها.

الفوائد :

١-تحريم التشريع غير شرع الله .

٢-تحريم الابتداع في الدين .

٣-تحريم الكذب على الله .

٤-تهديد الذين يفترون على الله الكذب .

٥-إثبات اسمين من أسماء الله : الحكيم والعليم .

(**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُـواْ مُهْتَدِينَ (١٤٠)**).

[الأنعام : ١٤٠] .

(**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ** ...) يخبر تعالى : إِنَّ الذِينَ أَقْدَمُوا عَلَى قَتْلِ أَوْلاَدِهِمْ، وَوَأْدِ بَنَاتِهِمْ، وَتَحْرِيمِ الطَّيِّبَاتِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، قَدْ خَسِرُوا فِي الدُّنْيا، لأَنَّهُمْ حَرمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللهُ عَلَيْهِمْ، وَخَسِرُوا فِي الآخِرَةِ، لأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ فِي أَسْوَأِ المَنَازِلِ بِسَبَبِ كَذِبِهِمْ عَلَى اللهِ، وَافْتِرَائِهِمْ عَلَيْهِ، إِذْ ادَّعُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الذِي أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ . وَكُلُّ ذَلِكَ ضَلاَلٌ مِنْهُمْ وَسَفَهٌ ، وَبُعْدٌ عَنِ الهُدَى .

- **قال الرازي** : إنه تعالى ذكر فيما تقدم قتلهم أولادهم وتحريمهم ما رزقهم الله.

ثم إنه تعالى جمع هذين الأمرين في هذه الآية وبين ما لزمهم على هذا الحكم ، وهو الخسران والسفاهة ، وعدم العلم ، وتحريم ما رزقهم الله ، والافتراء على الله ، والضلال وعدم الاهتداء ، فهذه أمور سبعة وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم.

أما الأول : وهو الخسران ، وذلك لأن الولد نعمة عظيمة من الله على العبد ، فإذا سعى في إبطاله ، فقد خسر خسراناً عظيماً لا سيما ويستحق على ذلك الإبطال الذم العظيم في الدنيا ، والعقاب العظيم في الآخرة.أما الذم في الدنيا فلأن الناس يقولون قتل ولده خوفاً من أن يأكل طعامه وليس في الدنيا ذم أشد منه.

وأما العقاب في الآخرة ، فلأن قرابة الولادة أعظم موجبات المحبة فمع حصولها إذا أقدم على إلحاق أعظم المضار به كان ذلك أعظم أنواع الذنوب ، فكان موجباً لأعظم أنواع العقاب.

والنوع الثاني : السفاهة وهي عبارة عن الخفة المذمومة ، وذلك لأن قتل الولد إنما يكون للخوف من الفقر ، والفقر وإن كان ضرراً إلا

أن القتل أعظم منه ضرراً ، وأيضاً فهذا القتل ناجز وذلك الفقر موهوم فالتزام أعظم المضار على سبيل القطع حذراً من ضرر قليل موهوم ، لا شك أنه سفاهة.

والنوع الثالث : قوله (بِغَيْرِ عِلْمٍ) فالمقصود أن هذه السفاهة إنما تولدت من عدم العلم ولا شك أن الجهل أعظم المنكرات والقبائح.

والنوع الرابع : تحريم ما أحل الله لهم ، وهو أيضاً من أعظم أنواع الحماقة ، لأنه يمنع نفسه تلك المنافع والطيبات ، ويستوجب بسبب ذلك المنع أعظم أنواع العذاب والعقاب.

والنوع الخامس : الافتراء على الله ، ومعلوم أن الجراءة على الله ، والافتراء عليه أعظم الذنوب وأكبر الكبائر.

والنوع السادس : الضلال عن الرشد في مصالح الدين ومنافع الدنيا.

والنوع السابع : أنهم ما كانوا مهتدين ، والفائدة فيه أنه قد يضل الإنسان عن الحق إلا أن يعود إلى الاهتداء ، فبين تعالى أنهم قد ضلوا ولم يحصل لهم الاهتداء قط فثبت أنه تعالى ذم الموصوفين بقتل الأولاد وتحريم ما أحله الله تعالى لهم بهذه الصفات السبعة الموجبة لأعظم أنواع الذم ، وذلك نهاية المبالغة. أ هـ

● **قال القاسمي** : حمل كثير من المفسرين (الخسران) على ما يشمل الدارين . أما الدنيا فخسروا منافع أولادهم ، وثمرة ما خلقوا له . وكذا منافع أنعامهم بما ضيقوا وحجروا فيها ابتداعاً . وأما الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل . وهذا التعميم ، وإن كان حقاً ، إلا أن الأظهر حمله على الآخرة ، توفيقاً بين النظائر ، كقوله تعالى (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) .

● **قال القرطبي** : قوله تعالى (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) أخبر بخسرانهم لِوَأْدِهِم البنات وتحريمهم البَحِيرة وغيرها بعقولهم ؛ فقتلوا أولادهم سَفَهاً خوف الإملاق ، وحجروا على أنفسهم في أموالهم ولم يخشَوا الإملاق ؛ فأبان ذلك عن تناقض رأيهم.
قلت : إنه كان من العرب من يقتل ولده خَشْية الإملاق ؛ كما ذكر الله عز وجل في غير هذا الموضع.

الفوائد :

١-تحريم قتل الأولاد خشية الفقر .

٢-خسارة وهلاك من قتل ولده خشية أن يأكل معه ، أو ابنته خشية العار .

٣- خسارة وهلاك من حرم ما أحل الله .

٤- أن التحريم والتحليل مرجعه إلى الله .

٥- عظم ذنب من حرم ما أحل الله .

٦- تحريم الكذب على الله .

٧- خطر الجهل .

(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٤٤)).

[الأنعام : ١٤٣- ١٤٤] .

(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ...) بين القرآن بعد ذلك بعض ما كان عليه الجاهليون من جهالات ، وناقشهم فيما أحلوه وحرموه مناقشة منطقية حكيمة فقال :

(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ...) الزوج يطلق على المفرد إذا كان معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل ، وكذا يطلق على الاثنين فهو مشترك والمراد هنا الإطلاق الأول.

والمعنى : ثمانية أصناف خلقها الله لكم ، لتنتفعوا بها أكلاً وركوباً وحملاً وحلباً وغير ذلك.

ثم فصّل الله تعالى هذه الأزواج الثمانية فقال :

(مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ) أى :من الضأن زوجين اثنين هما الكبش والنعجة (وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) أى : ومن المعز زوجين اثنين هما التيس والعنز.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبكتهم على جهلهم فقال :

(قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ) أى : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ وإلزامهم الحجة. أحرم الله الذكرين وحدهما من الضأن والمعز أم الأنثيين وحدهما ، أم الأجنة التي اشتملت عليها أرحام إناث الزوجين كليهما سواء أكانت تلك الأجنة ذكوراً أم إناثاً ؟

(نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) أى : أخبروني بأمر معلوم من جهته تعالى جاءت به الأنبياء ، يدل على أنه – سبحانه – قد حرم شيئاً مما حرمتموه إن كنتم صادقين في دعوى التحريم.

والأمر هنا للتعجيز لأنهم لا دليل عندهم من العقل أو النقل على صحة تحريمهم لبعض الأنعام دون بعض.

(وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ) عطف على قوله (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ) أى : وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ هما الثور وأنثاه البقرة.

(قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ اللهُ) – تعالى – منهما (أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ) من ذينك النوعين؟

- **قال الآلوسي** : والمعنى – كما قال كثير من أجلة العلماء : إنكار أن الله تعالى حرم عليهم شيئاً من هذه الأنواع الأربعة ، وإظهار كذبهم في ذلك وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما في بطونها للمبالغة في الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم ، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة ، وإناثها تارة ، وأولادها كيفما كانت تارة أخرى ، مسندين ذلك كله إلى الله – سبحانه – .

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا) أى : أكنتم حاضرين حين وصاكم الله وأمركم بهذا التحريم؟ لا ، ما كنتم حاضرين فمن أين لكم هذه الأحكام الفاسدة؟.

فالجملة الكريمة تبكتهم غاية التبكيت على جهالاتهم وافترائهم الكذب على الله ، والاستفهام في قوله تعالى (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ) للنفي والإنكار.

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ) أى : لا أحد أشد ظلماً من هؤلاء المشركين الذين يفترون على الله الكذب بنسبتهم إليه – سبحانه – تحريم ما لم يحرمه لكي يضلوا الناس عن الطريق القويم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

(**إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**) تهديد لكل ظالم .

الفوائد :

١- حل بهيمة الأنعام .

٢- أن التحريم والتحليل إلى الله .

٣-تهديد من يحرم ما لم يحرمه الله .

٤- من أعظم الظلم الكذب والافتراء على الله .

٥-تحريم الكلام بغير علم .

٦- تهديد لكل ظالم .

(قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥)) .

[الأنعام : ١٤٥] .

(**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً** ...) أي : قل يا محمد لكفار مكة ، لا أجد فيما أوحاه الله إليّ من القرآن شيئاً محرماً إلا أن يكون ذلك الطعام ميتة .

والميتة : هي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية وسواء كا منخنقة أو موقوذة أو مترديه أو نطيحة .

- والميتة إنما حرمت لاحتقان الرطوبات والفضلات والدم الخبيث فيها ، والذكاة لما كانت تزيل ذلك الدم والفضلات كانت سبب الحل .
- يستثنى من ذلك : ميتة البحر لقوله تعالى (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ) ، قال ابن عباس : صيد البحر ما أخذ حي ، وطعامه ما أخذ ميتاً .

وعن أبي هريرة . أن رسول الله ﷺ قال في البحر (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) رواه أبو داود .

ويستثنى كذلك الجراد .

(**أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا**) أى : دما مصبوبا سائلاً كالدم الذي يخرج من المذبوح عند ذبحه ، لا الدم الجامد كالكبد والطحال ، والسفح : الصب والسيلان.

(**أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ**) قال القرطبي : لا خلاف في تحريم خنزير البر .

وقد ذكر الله تحريمه في عدة الآيات :

فقال تعالى كما في سورة المائدة (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ) .

وقال تعالى في سورة الأنعام (قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ).

- وهو حيوان سمج والعين تكرهه ، رأسه كرأس الجاموس ، وهو حرام لحمه وشحمه وجميع أجزائه .
- الحكمة من تحريمه :

كثرة الديدان في لحم الخنزير ، ولأن أشهى غذائه القاذورات والنجاسات ، وأكل لحمه من أسباب الدودة الوحيدة الة ، ويقال : إن له

تأثيراً سيئاً في العفة والغيرة .

(**فَإِنَّهُ**) أى : اللحم لأنه المحدث عنه ، أو الخنزير لأنه الأقرب أو جميع ما ذكر من الميتة والدم ولحم الخنزير.

(**رِجْسٌ**) أى : قذر خبيث تعافه الطباع السليمة وضار بالأبدان .

(**أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**) أى : خروجاً عن الدين ، لكونه عند ذبحه قد ذكر عليه غير اسمه تعالى من صنم أو وثن أو طاغوت أو نحو ذلك.

- والإهلال : رفع الصوت عند رؤية الهلال ، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقاً ، ومنه إهلال الصبى ، والإهلال بالحج ، وكانوا في الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموا عليها أسماءها –كاللات والعزى – ورفعوا بها أصواتهم ، وسمى ذلك إهلالاً .

وإنما سمى ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فسقاً ، لتوغله في باب الفسق ، والخروج عن الشريعة الصحيحة ، ومنه قوله – تعالى (وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) .

- والجملة الكريمة تفيد أن طريق التحريم والتحليل إنما هو الوحى وليس مجرد الهوى والتشهى ، وأن الأصل في الأشياء الحل إلا أن يرد نص بالتحريم.
- هذا ، والآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات في هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين فيما حرموه بغير علم من البحائر والسوائب وغيرها.
- **قال ابن كثير** : الغرض من سياق هذه الآية الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، فأمر تعالى رسوله أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم ، وأن الذي حرمه هو الميتة وما ذكر معها وما عدا ذلك فلم يحرم ، وإنما هو عفو مسكوت عنه. فكيف تزعمون أنه حرام ؟! ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله تعالى ؟! وعلى هذا فلا ينفى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا ، كما جاء النهى عن الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذي مخلب من الطير .
- **وقال القرطبي** : والآية مكية ، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء ، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد في المحرمات كالمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة وغير ذلك ، وحرم رسول الله ﷺ بالمدينة أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير ، وقد اختلف العلماء في حكم هذه الآية وتأويلها على أقوال :

الأول : ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية وكل محرم حرمه رسول الله أو جاء في الكتاب مضموم إليها ، فهو زيادة حكم من الله على لسان نبيه ، على هذا أكثر أهل العلم من أهل النظر والفقه والأثر ، ... ثم ذكر رحمه الله بقية الأقوال .

والخلاصة : أن الآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات في هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين ، وذلك أن الكفار. كما قال الإمام الشافعي – لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرمه الله وكانوا على المضادة والمحادة ، جاءت الآية مناقضة لغرضهم ، فكأنه قال – سبحانه – لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه ، نازلا منزلة من يقول :

لا تأكل اليوم حلاوة ، فتقول : لا آكل اليوم إلا الحلاوة ، والغرض المضادة لا للنفي والإثبات على الحقيقة.

فهو تعالى لم يقصد حل ما وراء الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل.

(**فَمَنِ اضْطُرَّ**) أي : ألجأته الضرورة إلى الأكل من المحرمات . لكن بشرط :

(**غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ**) لا يكون باغياً ولا عادياً [وسيأتي المراد بهما] (فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) أي : فلا عقوبة عليه في الأكل .

- في هذه الآية جواز الأكل من الميتة عند الضرورة وهنا مباحث :
- **مبحث الاضطرار :**

أولاً : تعريف الضرورة لغة وشرعاً :

قال ابن منظور : الاضطرار الاحتياج إلى الشيء وقد اضطره إليه أمر .

وشرعاً : للضرورة تعاريف متقاربة في المعنى عند الفقهاء ، ومن ذلك ما يأتي :

قيل : إنها بلوغه حداً إن لم يتناول الممنوع هلك إذا قارب وهذا يبيح تناول الحرام .

وقيل : ومعنى الضرورة هاهنا خوف الضرر على نفسه أو بعض أعضائه بتركه الأكل ، والمعنى متقارب .

ثانياً : بيان حد الاضطرار الذي يبيح تناول المحرم :

حد الاضطرار هنا يتبين من جموع الآيات الواردة في الموضوع ، وهي :

قوله تعالى : (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ) .

فأطلق في هذه الآية الإباحة بوجود الضرورة في كل حال وجدت الضرورة فيها .

قوله تعالى : (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) .

فقيد الإباحة في هذه الآية بأن يكون المضطر غير باغ ولا عاد لكنه لم يبين سبب الاضطرار ولم يبين المراد بالباغي والعادي .

قوله تعالى : (فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

فبين سبحانه سبب الاضطرار وهو المخمصة .

إذاً : يمكننا أن نقول : إن حد الاضطرار المبيح لتناول المحرم هو أن يخاف على نفسه التلف بسبب الجوع ولم يجد ما يتغذى به من الحلال ، بشرط أن يكون غير متجانف لإثم ، وهو الباغي والعادي .

- وقد اختلف العلماء في المراد بالباغي والعادي على قولين :

القول الأول : أن المراد بالباغي هو الخروج على إمام المسلمين ، والإثم الذي يتجانف إليه العادي هو إخافة الطريق وقطعها على المسلمين ، ويلحق بذلك كل سفر معصية لله ، لأن في ذلك إباحة على المعصية وذلك لا يجوز .

فعلى هذا القول :

الباغي : الخارج على الإمام .

العادي : قاطع الطريق ، وكل مسافر سفر معصية .

القول الثاني : أن المراد بالباغي: الذي يبغي المحرم من الطعام مع قدرته على الحلال، والعادي الذي يتعدى القدر الذي يحتاج إليه.

ورجح هذا التفسير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقال : وأما الآية فأكثر المفسرين قالوا : المراد بالباغي الذي يبغي المحرم من الطعام مع قدرته على الحلال ، والعادي الذي يتعدى القدر الذي يحتاج إليه ، وهذا التفسير هو الصواب ، وهو قول أكثر السلف ... وليس في الشرع ما يدل على أن العاصي بسفره لا يأكل الميتة ولا يقصر ، بل نصوص الكتاب والسنة عامة مطلقة .

ورجح هذا القول القرطبي والإمام ابن جرير .

ثالثاً : بيان حكم تناول الطعام المحرم فيحال الضرورة .

اختلف العلماء في ذلك على قولين :

القول الأول : يجب على المضطر الأكل من الميتة ونحوها .

وهذا قول الحنفية والصحيح من مذهب المالكية وأحد الوجهين في مذهب الحنابلة، وأصح الوجهين عند الشافعية . **الأدلة** :

قوله تعالى : (وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) .

وقوله تعالى : (وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) وترك الأكل مع إمكانه في هذه الحال ؛ إلقاء بيده إلى التهلكة ، ولأنه قادر على إحياء نفسه بما أحل الله له فلزمه ، كما لو كان معه طعام حلال .

القول الثاني : أنه لا يلزمه في هذه الحال الأكل من المحرم .

لأن له غرضاً في تركه وهو أن يتجنب ما حرم عليه ، ولأن إباحة الأكل رخصة فلا تجب عليه كسائر الرخص .

والراجح القول الأول أنه يجب عليه أن يأكل في هذه الحال ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، حيث قال : ويجب على المضطر أن يأكل ويشرب ما يقيم به نفسه ، فمن اضطر إلى الميتة أو الماء النجس فلم يشرب ولم يأكل حتى مات دخل النار .

رابعاً : بيان مقدار ما يباح للمضطر تناوله من المحرم .

يباح له أكل ما يسد به الرمق ويأمن معه الموت بالإجماع ، ويحرم ما زاد على الشبع بالإجماع .

واختُلف في حكم الشبع على ثلاثة أقوال :

القول الأول : لا يباح له الشبع .

وهو قول أبي حنيفة وأحد الروايتين عن أحمد وأحد القولين للشافعي .

وهو قول ابن الماجشون من المالكية .

قالوا : لأن الآية دلت على تحريم ما ذكر فيها ، واستثنى ما اضطر إليه ، فإذا اندفعت الضرورة لم يحل الأكل كحال الابتداء .

ولأنه بعد سد الرمق غير مضطر فلم يحل له الأكل للآية ، يحققه أن حاله بعد سد رمقه كحاله قبل أن يضطر وثم لم يبح له الأكل كذا هاهنا .

القول الثاني : أن له الشبع .

وهذا قول مالك وأحد القولين في مذهب الشافعي .

لحديث جابر بن سمرة : أن رجلاً نزل الحرة فنفقت عنده ناقة ، فقالت له امرأته : اسلخها حتى نقدر شحمها ولحمها ونأكله ، فقال : حتى أسأل رسول الله ﷺ ، فسأله فقال : (هل عندك غنى يغنيك ؟) قال : لا ، قال : (فكلوها) .

فأطلق النبي ﷺ الأمر بأكل ولم يحدد .

القول الثالث : التفصيل بين من يخشى استمرار الضرورة فيحل له الشبع ، ومن ضرورته مرجوة الزوال فلا يحل له إلا سد الرمق ، لأن من ضرورته مستمرة إذا اقتصر على سد الرمق عادت الضرورة إليه عن قرب ولا يتمكن من البعد من الميتة مخافة الضرورة ، ويفضي إلى ضعف بدنه ، وربما أدى ذلك إلى تلفه بخلاف من ليست ضرورته مستمرة فإنه يرجو الغنى عنها بما يحل له .

وهذا احتمال في مذهب الحنابلة ، ذكره صاحب المغني ، وقول في مذهب الشافعي .

وهذا القول هو الراجح .

خامساً : هل يجوز للمضطر أن يتزود من الطعام المحرم ؟

الصحيح أنه يجوز له ذلك ، وهذا قول مالك ورواية عن أحمد وهو قول الشافعية .

لأنه لا ضرر في استصحابها ولا في إعدادها لدفع ضرورته وقضاء حاجته ، ولا يأكل منها إلا عند ضرورته .

سادساً : إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى ، فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير .

سابعاً : كل المحرمات إذا اضطر إليها، وزالت بها الضرورة كانت مباحة، قلنا (وزالت بها الضرورة) احترازاً مما لا تزول به الضرورة، كما إذا ما اضطر الإنسان إلى أكل سم، فلا يجوز أن يأكل، لأنه لا تزول بها ضرورته، بل يموت به، ولو اضطر إلى شرب خمر لعطش لم يحل له، لأنه لا تزول به ضرورته ، ولذلك لو احتاج إلى شربه لدفع لقمة غص بها حل له، لأنه لا تزول به ضرورته.

ثامناً : لو اضطر لميتة آدمي ، فالمشهور عند الحنابلة أنه لا يجوز أن يأكلها ، وقالت الشافعية : إنه يجوز أكلها عند الضرورة ، وهو الصحيح . (الشيخ ابن عثيمين) .

(**فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) هذا تعليل للحكم ، فالحكم انتفاء الإثم ، والعلة (فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيم) .

(**غَفُورٌ**) الغفور اسم من أسماء الله متضمن للمغفرة الواسعة كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) ، وقال تعالى (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) وقال تعالى (ورَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

والمغفرة : هي ستر الذنب عن الخلق ، والتجاوز عن عقوبته .

- فهما عظمت ذنوب العبد فإن مغفرة الله ورحمته أعظم كما قال تعالى (إن ربك وسع لمغفرة) .

وقد تكفل الله بالمغفرة لمن تاب (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى) .

بل من فضله وجود وكرمه أن تعهد بأن يبدل سيئات المذنبين إلى حسنات قال تعالى عن التائبين (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) .

- **قال السعدي** : ولما كان الحل مشروطا بهذين الشرطين ، وكان الإنسان في هذه الحالة ، ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها - أخبر تعالى أنه غفور ، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال ، خصوصا وقد غلبته الضرورة ، وأذهبت حواسه المشقة.

  وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة : " الضرورات تبيح المحظورات " فكل محظور ، اضطر إليه الإنسان ، فقد أباحه له ، الملك الرحمن ، فله الحمد والشكر ، أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً .

(**رَحِيمٌ**) اسم من أسماء الله، متضمن لصفة الرحمة لله الواسعة كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) وقال تعالى (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ) وقال تعالى وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) .

الفوائد :

١- أن التحريم والتحليل إلى الله تعالى .

٢-تحريم الميتة .

٣- تحريم الدم المسفوح .

٤-تحريم لحم الخنزير .

٥-تحريم الأكل مما ذكر عليه غير اسم الله .

٦-يجوز الأكل من الميتة عند الضرورة .

٧- الضرورات تبيح المحظورات .

٨-إثبات اسمين من أسماء الله : الغفور ، والرحيم .

(**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)**)

[الأنعام : ١٤٦] .

(**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ**) وهم اليهود ، سموا بذلك ، قيل : من التوبة كقول موسى (إنا هدنا إليك) أي تبنا إليك، وقيل : نسبة إلى يهود أكبر أولاد يعقوب ، وقيل : لأنهم يتهودون ، أي يتحركون عند القراءة

(**حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ**) أي : وحرمنا على اليهود (كُلَّ ذِي ظُفُرٍ) وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والأوز والبط .

(**وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا**) أي : وحرمنا عليهم أكل شحوم البقر وشحوم الغنم .

(**إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا**) أي : إلا الشحم الذي علق بالظهر منهما .

(**أَوِ الْحَوَايَا**) أي : الأمعاء والمصارين .

(**أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ**) أي: وإلا ما اختلط من الشحوم بالعظام فقد أحللناه لهم.

- **قال ابن جُرَيْج** : شحم الألية اختلط بالعُصْعُص، فهو حلال. وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم، فهو حلال، ونحوه قال السُّدِّي.

عن جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح (إن الله ورسوله حَرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام". فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه يدهن بها الجلود ويُطلى بها السفن، ويَسْتَصبِح بها الناس. فقال: "لا هو حرام". ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: "قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جَمَلوه، ثم باعوه وأكلوا ثمنه) .

(**ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ**) أي: هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به، مجازاة لهم على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا .

كما قال تعالى (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا . وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) .

قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ) .

وقال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) .

وقال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

وقال تعالى (فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .

وقال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ) .

وقال تعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ).

وعن عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يُخْبِرُ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ ، فَتَلاَحَى رَجُلاَنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ « إِنِّي خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ ، وَإِنَّهُ تَلاَحَى فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمُ الْتَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ وَالتِّسْعِ وَالْخَمْس)

(**وِإِنَّا لَصَادِقُونَ**) قال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه، والله أعلم.

- **قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله** : الله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب :سلب الهدى والعلم النافع **كقوله** (وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليهم بكفرهم) .

الفوائد :

١–ن الله حرم على اليهود بعض الطيبات .

٢–أن هذا التحريم بسبب بغيهم وذنوبهم وتكذيبهم .

٣– خطر الذنوب والتكذيب وأنه سبب لمنع الخير .

(**فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)**) .

[الأنعام : ١٤٧] .

(**فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ**) يقول تعالى: فإن كذّبك –يا محمد –مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل (رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، واتباع رسوله

(**وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**) ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين.

وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) ، وقال (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) .

وقال تعالى (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ) .

وقال تعالى (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ) .

وقال تعالى (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) ، والآيات في هذا كثيرة جدًا.

الفوائد :

١– سنة الله في تكذيب الأنبياء والرسل من قِبل أممهم .

٢–رحمة الله الواسعة لمن تاب وأناب .

٣– تهديد المكذبين بشدة انتقام الله تعالى .

(**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ**

أَجْمَعِينَ (١٤٩)) .

[الأنعام : ١٤٨- ١٤٩] .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ) كما في قوله تعالى (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ) .

وقال تعالى في سورة النحل (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ) .

- **قال الشنقيطي** : ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُمْ سَيَقُولُونَ : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ، وَذَكَرَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ بِالْفِعْلِ ، كَقَوْلِهِ فِي النَّحْلِ : وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ الْآيَةَ ، وَقَوْلِهِ فِي الزُّخْرُفِ : وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ الْآيَةَ .

وَمُرَادُهُمْ : أَنَّ اللَّهَ لَمَّا كَانَ قَادِرًا عَلَى مَنْعِهِمْ مِنَ الْإِشْرَاكِ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنْهُ ، أَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى رِضَاهُ بِشِرْكِهِمْ ، وَلِذَلِكَ كَذَّبَهُمْ هُنَا بِقَوْلِهِ : قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَكَذَّبَهُمْ فِي الزُّخْرُفِ ، بِقَوْلِهِ : مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ، وَقَالَ فِي الزُّمَرِ : وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ الْآيَةَ .

(**كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا**) أي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء ، وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام.

(**قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ**) أي: بأن الله تعالى راض عنكم فيما أنتم فيه

(**فَتُخْرِجُوهُ لَنَا**) أي: فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه .

(**إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ**) أي: الوهم والخيال. والمراد بالظن هاهنا: الاعتقاد الفاسد .

(**وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ**) أي: تكذبون على الله فيما ادعيتموه.

(**قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين**) يقول تعالى لنبيه ﷺ (قُلْ) لهم –يا محمد (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) أي: له الحكمة التامة، والحجة البالغة في هداية من هَدى، وإضلال من أضل (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويُبْغض الكافرين، كما قال تعالى(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى) وقال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا) ، وقوله (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده.

قال ابن تيمية : ويقولون : الاحتجاج بالقدر على الذنوب مما يُعلم بطلانه بضرورة العقل ، فإن الظالم لغيره لو احتج بالقدر لاحتج ظالمه بالقدر أيضاً فإن كان القدر حجة لهذا فهو حجة لهذا وإلا فلا ، ولو كان القدر حجة لفاعل الفواحش والمظالم لم يحسن أن يلوم أحدٌ أحداً ، ولا يعاقب أحدٌ أحداً ، فكان للإنسان أن يفعل في دم غيره وماله وأهله ما يشتهيه من المظالم والقبائح ، ويحتج بأن ذلك مقدراً عليه .

- وقد احتج بعض أهل البدع بحديث أبي هريرة قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا

وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلاَمِهِ وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ أَتَلُومُنِى عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَىَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِى بِأَرْبَعِينَ سَنَةً » . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى) متفق عليه .

والجواب من وجوه :

أولاً : أن الإجماع منعقد على بطلان الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي .

ثانياً : أن الأمة قد أجمعت على جواز لوم العاصي ما لم يتب .

ثالثاً : أن الله تعالى قال (رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) ولو كان الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي سائغاً لما كان هناك حاجة إلى إرسال الرسل ، لأنهم إنما أرسلوا لأجل إقامة الحجة على الناس .

رابعاً : أن هذا المسلك لو صح لبطلت الديانات جملة ، وكان القدر حجة لكل مشرك وكافر وظالم ، ولا يبقى للحدود معنى .

خامساً : أنه لو ساغ الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي لساغ أن يحتج به إبليس ومن اتبعه من الجن والإنس ، ويحتج به قوم قوم نوح وعاد وثمود ، وسائر أهل الكفر والفسوق .

سادساً : أن الاحتجاج بالقدر مخاصمة لله تعالى ، واحتجاج من العبد على الرب ، وحمل لذنبه على الأقدار ، وهذا جهل بالله تعالى وحكمته في شرعه .

سابعاً : أن نفس المحتج بالقدر لو اعتدى عليه معتد ، أو جنى عليه جان ، ثم احتج بالقدر ، فإنه لا يقبل منه هذه الحجة ، وهذا تناقض يدل على فساد هذا القول ، وأن المحتج بالقدر متبع لهواه .

وأما بخصوص الحديث ، فقد أجاب العلماء عنه بأجوبة ، منها ما ذكره ابن القيم فقال : ... وقد يتوجه جواب آخر وهو أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع ، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته، كما فعل آدم فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع، لأنه لا يدفع بالقدر أمراً ولا نهياً ولا يبطل به شريعة بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة ،... **وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به** : ففي الحال والمستقبل ، بأن يرتكب فعلاً محرماً أو يترك واجباً فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره ، فيبطل بالاحتجاج به حقاً ، ويرتكب باطلاً كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله فقالوا (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا) (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) فاحتجوا به مصوبين لما هم عليه ، وأنهم لم يندموا على فعله ولم يعزموا على تركه ولم يقروا بفساده، فهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسه وندم وعزم كل العزم على أن لا يعود، فإذا لامه لائم بعد ذلك قال كان ما كان بقدر الله .

الفوائد :

١- أن الاحتجاج بالقدر على الكفر من علامات المشركين .

٢- بطلان الاحتجاج بالقدر على المعاصي .

٣-أنه يجب على المسلم عند المعصية التوبة والرجوع إلى الله .

٤-أن الله أقام الحجة على عباده .

٥-أن الله له الحجة البالغة والحكمة الكاملة في هداية من شاء وإضلال من شاء .

(**قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)**) .

[الأنعام : ١٥٠] .

(**قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ**) أي: أحضروا شهداءكم .

(**الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا**) أي: هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه .

أى : أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم عليكم هذا الذي زعمتم تحريمه ، وهم كبراؤهم الذين أسسوا ضلالهم.

والمقصود من إحضارهم تفضيحهم وإلزامهم الحجة ، وإظهار أنه لا متمسك لهم كمقلدين ، ولذلك قيد الشهداء بالإضافة ، ووصفوا بما يدل على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم وبنصر مذهبهم.

ثم قال – سبحانه – فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ أى : فإن فرض إحضار هؤلاء الشهود الذين عرفوا بضلالهم فلا تصدقهم ولا تقبل شهادتهم ولا تسلمها لهم بالسكوت عليها فإن السكوت عن الباطل في مثل هذا المقام كالشهادة به وإنما عليك أن تبين لهم بطلان زعمهم بواسطة ما آتاك الله من حجج وبينات.

(**فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ**) أي: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبًا وزورًا .

(**وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**) اى : ولا تتبع أهواء هؤلاء الناس الذين كذبوا بآياتنا التي أنزلها الله عليك لتكون هداية ونوراً لقوم يعقلون ، فإن شهادتهم – إن وقعت – فإنما هي صادرة عن هوى وضلال.

(**وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**) عطف على الموصوف قبله لتعدد صفاتهم القبيحة.

أى : ولا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله ، وبين الكفر بالآخرة ، وبين جعلهم لله عديلاً أى شريكاً مع أنه – سبحانه – هو الخالق لكل شيء ، لأن هذه الصفات لا تؤهلهم لشهادة حق ، ولا للثقة بهم ، وإنما للاحتقار في الدنيا ، ولسوء العذاب في الآخرة.

الفوائد :

١–تحدي هؤلاء الذين يحرمون من عند أنفسهم أن يأتوا بالشهداء .

٢– تحريم الشهادة بغير الحق .

٣– التحذير من الهوى .

٤– تحريم اتباع الذين كذبوا بآيات الله .

٥–وجوب الإيمان بآيات الله .

٦– وجوب الإيمان بالآخرة .

٧– وجوب إفراد الله بالعبادة والمحبة .

(**قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)**

وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)) .

[الأنعام : ١٥١- ١٥٣] .

____

(**قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**) يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ : قل يا محمد -لهؤلاء المشركين الذين أشركوا وعبدوا غير الله، وحرموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم (قُلْ) لهم (تَعَالَوْا) أي: هلموا وأقبلوا :

(**أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**) أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقًا لا تخرصًا، ولا ظنًا، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده:

- وفي تصدير الآية بفعل الأمر (قل) فوائد :

أولاً : أن الله يتكلم .

ثانياً : أن الله يأمر .

ثالثاً : أن الرسول ﷺ مأمور .

رابعاً : أن هذا القرآن كلام الله .

خامساً : أن الرسول ﷺ مبلغ ، وفي ذلك إعلام المخاطبين بأنه لم يأت بهذا الكلام ابتداءً من عنده ، بل هو مبلغ لكلام مرسله ، وهم قوم مربوبون .

- وفي نسبة التحريم إلى الرب حض لهم على التدبر والاستجابة. لأن الذي حرم عليهم ذلك هو مربيهم ، فليس معقولاً أن يحرم عليهم ما فيه منفعة لهم ، وإنما هو بمقتضى ربوبيته قد حرم عليهم ما فيه ضررهم.

- **قال القرطبي** : هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيّه عليه السلام بأن يَدْعُوَ جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرّم الله.

وهكذا يجب على مَن بعده من العلماء أن يبلّغوا الناس ويبيّنوا لهم ما حرّم الله عليهم مما حلّ.

قال الله تعالى (لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ) .

(**أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا**) أى : أوصيكم ألا تشركوا مع الله في عبادتكم آلهة أخرى. بل خصوه وحده بالعبادة والخضوع والطاعة فإنه هو الخالق لكل شيء.

وصدر – سبحانه – هذه الوصايا بالنهى عن الشرك ، لأنه أعظم المحرمات وأكبرها إفساداً للفطرة ، ولأنه هو الجريمة التي لا تقبل المغفرة من الله ، بينما غيره قد يغفره – سبحانه – قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ) .

وقد ساق القرآن مئات الآيات التي تدعو إلى الإيمان وتنفر من الشرك وتقيم الأدلة الساطعة ، والبراهين الدامغة على وحدانية الله عز وجل .

وقد تقدم كثير منها .

(**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**) أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا، أي: أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) .

♦ والله تعالى كثيرًا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) . فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما .

وقال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) . والآيات في هذا كثيرة.

كما قال تعالى (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) .

وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .

وقال تعالى (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .

وقال تعالى (وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .

وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .

- وأوصى تعالى بالوالدين إحساناً :

قال تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً) .

وقال تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) .

وعن ابن مسعود قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ (الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا) . قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ (ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ) . قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ (ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) قَالَ حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي .

وعن عبد الله بن عمرو قال (جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: أحي والداك ؟ قال: نعم، قال : ففيهما فجاهد) متفق عليه .

ولمسلم (فارجع إلى والديك فأحسن صحبتَهما) .

ولحديث أبي هريرة . (أن رجلاً قال يا رسول الله ! من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال: أمك ؟ قال: ثم من ؟ قال: أمك . قال: ثم من ؟ قال: أمك . قال: ثم من ؟ قال: أبوك) .

كيفية الإحسان لهما :بالقول والفعل :

في حياتهما : بالبر والطاعة والإكرام والتوقير والتواضع لهما .

بعد موتهما : الدعاء لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما .

- وللإحسان ضدان : الإساءة وهي أعظم جرماً ، وترك الإحسان بدون إساءة ، وهذا محرم ، لكن لا يجب أن يلحق بالأول . (قاله السعدي) .

- هذا البر لا يختص بالأبوين المسلمين ، بل ولو كانا على الشرك .

قال تعالى (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

وقال تعالى (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

وعن أسماء قالت (قدمت أمي وهي راغبة ، أفأصلها ؟ قال : نعم) .

راغبة : أي بالعطاء .

ومن الإحسان ألا يجاهد إلا بإذنهما .

للحديث السابق .

وهذا محمد ﷺ يزور قبر أمه :

قال ﷺ (استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الآخرة). رواه مسلم

وهذا إبراهيم خليل الرحمن يخاطب أباه بلطف وإشفاق :

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً) .

وهذا يحي يثني عليه الله بوصفه براً بوالديه :

قال تعالى (وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً) .

وكذلك عيسى عليه السلام فيذكر الله في كتابه قوله :

(وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً) .

نماذج من سلف الأمة :

عن محمد بن المنكدر أنه كان يضع خده على الأرض ثم يقول لأمه : قومي ضعي قدمك على خدي .

وعن ابن عون المزني : أن أمه نادته فأجابها ، فعلا صوته صوتها فأعتق رقبتين .

قال ابن الجوزي : بلغنا عن عمر بن ذر ، أنه لما مات ابنه قيل له : كيف كان بره بك ؟ قال : ما مشى معي نهاراً إلا كان خلفي ، ولا ليلاً إلا كان أمامي ، ولا رقد على سطح أنا تحته .

كان أبو هريرة إذا أراد أن يخرج من بيته وقف على باب أمِّه فقال : السلام عليك – يا أماه – ورحمة الله وبركاته ، فتقول : وعليك السلام – يا ولدي – ورحمة الله وبركاته ، فيقول : رحِمَكِ الله كما ربيتني صغيراً ، فتقول : رحمك الله كما بررتني كبيراً .

وعن الزهري قال : كان الحسن بن علي لا يأكل مع أمه ، وكان أبرَّ الناس بها ، فقيل له في ذلك ، فقال : أخاف أن آكل معها ، فتسبق عينها إلى شيء من الطعام وأنا لا أدري فآكله ، فأكون قد عققتها .

(**وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ**) لما أوصى تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ) وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سَوَّلت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خَشْيَة العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفةَ الافتقار ، ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله ابن مسعود، رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندّا وهو خلَقَكَ". قلت: ثم أيّ؟ قال: "أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَم معك". قلت: ثم أيّ؟ قال: "أن تُزَاني حليلة جارك". ثم تلا رسول الله ﷺ : وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا) متفق عليه .

قال تعالى (وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها) ولا شك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم. فمن الظلم البين الاعتداء على حقوقهم ، والتخلص منهم خوفا من الفقر ، مع أن الله تعالى هو الرازق لكم ولهم.

- وقد روى النهى عن قتل الأولاد هنا بهذه الصيغة ، وورد في سورة الإسراء بصيغة أخرى هي قوله تعالى (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ ا خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) وليس إحداهم تكراراً للأخرى ، وإنما كل واحدة منهما تعالج حالة معينة.
- فهنا يقول – سبحانه – مِنْ إِمْلاقٍ أى : لا تقتلوهم بسبب الفقر الموجود فيكم أيها الآباء لذا قال (نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) فجعل الرزق للآباء ابتداء ، لأن الفقر الذي يقتلون من أجله أولادهم حاصل لهم فعلاً .

- وفي سورة الإسراء يقول (خَشْيَةَ إِمْلاقٍ) أى : خوفاً من فقر ليس حاصلاً ، ولكنه متوقع بسبب الأولاد ولذا قال (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر ، ليكف الآباء عن هذا التوقع ، وليضمن للأولاد رزقهم ابتداء مستقلاً عن رزق الآباء.

ففي كلتا الحالتين القرآن ينهى عن قتل الأولاد ، ويغرس في نفوس الآباء الثقة بالله ، والاعتماد عليه.

(**وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**) الفواحش : جمع فاحشة وهي كما قال الراغب في مفرداته : ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال يقال : فحش فلان ، أى صار فاحشاً مرتكباً للقبائح .

والمعنى : وأنهاكم عن أن تقتربوا من الأقوال والأفعال القبيحة ما كان منها ظاهراً وما كان منها خافياً .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) فيها أربعة تأويلات :

أحدها : أن ذلك عام في جميع الفواحش سرها وعلانيتها ، قاله قتادة.

والثاني : أنه خاص في الزنى ، ما ظهر منها : ذوات الحوانيت ، وما بطن : ذوات الاستسرار ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والسدي.

والثالث : ما ظهر منها : نكاح المحرمات ، وما بطن : الزنى ، قاله مجاهد ، وابن جبير.

والرابع : أن ما ظهر منها : الخمر ، وما بطن منها : الزنى ، قاله الضحاك.

وقد ذكرنا فيه احتمال تأويل خامس : أن ما ظهر منها أفعال الجوارح ، وما بطن منها اعتقاد القلوب.

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) نهي عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي ، و (ظهر وبطن) حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء ، وذهب بعض المفسرين إلى أن القصد بهذه الآية أشياء مخصصات .

- وتعليق النهى بقربانها للمبالغة في الزجر عنها ، لأن قربانها قد يؤدى إلى مباشرتها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وهذا لون حكيم من ألوان الإصلاح ، لأنه إذا حصل النهى عن القرب من الشيء ، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى .

- **قال بعض العلماء** : وكثيراً ما يتعلق النهى في القرآن بالقربان من الشيء ، وضابطه بالاستقراء : أن كل منهى عنه كان من شأنه أن تميل إليه النفوس وتدفع إليه الأهواء النهى فيه عن (القربان) ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل في النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف المحرم ، وكان من ذلك في الوصايا السابقة النهى عن الفواحش ، ومن هذا الباب (وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ) (ولا تَقْرَبُوا الزِّنِى) (وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ) إلخ.

أما المحرمات التي لم يؤلف ميل النفوس إليها ولا اقتضاء الشهوات لها ، فإن الغالب فيها أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه. ومن ذلك في الوصايا السابقة الشرك بالله ، وقتل الأولاد ، وقتل النفس التي حرم الله قتلها ، فإنها وإن كان الفعل المنهي عنه فيها أشد قبحاً وأعظم جرماً عند الله من أكل مال اليتيم وفعل الفواحش ، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية يميل إليها الإنسان بشهوته ، وإنما هي في نظر العقل على المقابل من ذلك ، يجد الإنسان في نفسه مرارة من ارتكابها ، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها أو في حكم الكاره .

(**وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**) أي لا تقتلوا نفساً حرم الله قتلها بغير حق شرعي .

وهذا يشمل الذكر والأنثى ، والصغير والكبير .

أ–لقوله تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً) .

وقال تعالى : (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً).

وقال تعالى : (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً) .

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله: (أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس).رواه البخاري

وعن بريدة قال : قال رسول الله : (لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا) رواه النسائي .

وعن أبي هريرة . قال: قال رسول الله ﷺ (اجتنبوا السبع الموبقات: وذكر منها: وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق). متفق عليه

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله : (لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً) رواه البخاري .

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً). رواه البخاري

- إلا بالحق : كما جاء في حديث ابن مسعود قال : قال ﷺ (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) متفق عليه .
- **قال الرازي** : واعلم أن هذا داخل في جملة الفواحش إلا أنه تعالى أفرده بالذكر لفائدتين :

إحداهما : أن الإفراد بالذكر يدل على التعظيم والتفخيم ، كقوله (وَمَلائِكَتِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال) .

والثانية : أنه تعالى أراد أن يستثني منه ، ولا يتأتى هذا الاستثناء في جملة الفواحش.

(**ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ**) المشار إليه ما سبق من هذه المحرمات ، والوصية : هي الأمر المؤكد المقرر .

(**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون**) لعل : للتعليل ، أي : أن الله وصانا بهذه الوصايا ، وأمرنا بهذا ، وأكد علينا فيها لنعقلها ونعمل بها .

(**وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**) هذا حماية لأموال اليتامى أن لا نقربها إلا بالخصلة التي هي أحسن ، فإذا لاح للولي تصرفات أحدهما أكثر ربحاً فالواجب عليه أن يأخذ بما هو أكثر ربحاً لأنه أحسن .

- اليتيم هو من مات أبوه وهو صغير .
- والخطاب للأولياء والأوصياء. أى : احفظوا ماله حتى يبلغ الحلم فإذا بلغه فادفعوه إليه.
- **قال ابن الجوزي** : انما خص مال اليتيم ، لأن الطمع فيه ، لقلة مراعيه وضعف مالكه .
- والآية دليل على أن أكل مال اليتيم من كبائر الذنوب .

كما قال تعالى (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً) .

وقال تعالى في هذه الآية (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) .

وقال تعالى (وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) .

وقال ﷺ (اجتنبوا السبع الموبقات : ... وذكر منها : وأكل مال اليتيم) متفق عليه .

وعن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (أحرّج مال الضعيفين : المرأة واليتيم) أي : أوصيكم باجتناب مالهما .

قال الرازي : ...وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى ، لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة ، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله ، لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى .

(**وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**) قال ابن كثير : يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والعطاء ، كما توعد عليه في قوله تعالى (ويلٌ

للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ...) ، وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان وهم قوم شعيب .

(**لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**) قال ابن كثير : أي من اجتهد في أداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه .

(**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**) هذا أمر بالعدل في القول والفعل ، على القريب والبعيد ، قال تعالى (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) .

- وإنما خصصت الآية العدل في القول مع أن العدل مطلوب في الأقوال والأفعال وفي كل شيء ، لأن أكثر ما يكون فيه العدل أقوال كالشهادة ، والحكم
- في الآية وجوب العدل ، ومما يدل على ذلك :

قوله تعالى (إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان) .

وقال (وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا وَلَوْ كَانَ ذَا قربى) .

وقال (يا داوود إِنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِي الأرض فاحكم بَيْنَ الناس بالحق) .

وعن الحسن قال: ان الله أخذ على الحكام ثلاثاً: أن لا يتبعوا الهوى، وأن يخشوه ولا يخشوا الناس، ولا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً .

ومما يدل على وجوب العدل الآيات الواردة في مذمة الظلم :

كقوله تعالى (احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم) .

وقال تعالى (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غافلا عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون) .

وقال تعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُواْ) .

- **فضائل العدل** :

أولاً : أن الله أمر به .

فقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ....) .

ثانياً : أن الله يحب أهله .

قال سبحانه (وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .

ثالثاً : على منابر من نور .

قال ﷺ (إن المقسطين عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) رواه مسلم

رابعاً : في ظل الله يوم القيامة .

قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ...) متفق عليه .

(**وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ**) عهد الله : ما عهد به إلى عباده، وهي عبادته سبحانه وتعالى والقيام بأمره، كما قال عز وجل (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) .

هذا ميثاق من جانب المخلوق، وقوله تعالى (لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) هذا من جانب

الله– عز وجل.

(**ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**) يقول تعالى : هذا وصاكم وأمركم به وأكد عليكم فيه لعلكم تذكرون ، أي : تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه .

(**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ**) يحتمل أن المشار إليه ما سبق ، ويحتمل أن المراد ما علم من دين الله ، وهو اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وإخلاص العبادة له .

قال ابن القيم في الصراط المستقيم : وحقيقته شيء واحد ، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلاً لهم إليه ، ولا طريق إليه سواه ، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسن رسله ، وجعله موصلاً لعباده إليه ، وهو إفراده بالعبودية ، وإفراد رسله بالطاعة .

- والصراط يضاف إلى الله– عز وجل–، ويضاف إلى سالكه؛ ففي قوله تعالى (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم) هنا أضيف إلى سالكه، وفي قوله تعالى (صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) هنا أضيف إلى الله– عز وجل– فإضافته إلى الله عز وجل– لأنه موصل إليه، ولأنه هو الذي وضعه لعباده– جل وعلا–، وإضافته إلى سالكه لأنهم هم الذين سلكوه.

(**وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**) **السبل** : قال مجاهد : هي البدع والشهوات .

وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية ، وعباد القبور ، والبدع والضلالات .

وقد أخبر النبي ﷺ : (أن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة هي ما عليه أنا وأصحابي ، وفي رواية : الجماعة) .

- وقد أفرد – سبحانه – الصراط المستقيم وهو سبيل الله ، وجمع السبل المخالفة له لأن الحق واحد والباطل ما خالفه وهو كثير فيشمل الأديان الباطلة ، والبدع الفاسدة ، والشبهات الزائفة ، والفرق الضالة وغيرها.

(**ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**) أي ذلكم المذكور وصاكم به لتنالوا به درجة التقوى والالتزام بما أمر الله به ورسوله .

الفوائد :

١– هذه الآيات جمعت مقاصد عظيمة ، فمن هذه المقاصد العظيمة :

أولاً : الحفاظ على الدين وحماية العقيدة، ولهذا شرع الجهاد لإعلاء كلمة الله، وحرّم الشرك وأوجب التوحيد وشرع الجهاد لتحقيق هذه الغاية؛ توحيد الله ونبذ الشرك بالله تبارك وتعالى

ثانياً : الحفاظ على الدماء، فحرّم قتل النفس وأوجب فيها القصاص

ثالثاً : الحفاظ على المال (وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّام) إلى آخره من الآيات التي حرمت الاعتداء على المال بأي شكل من الأشكال؛ لأن المال به قوام الحياة أو كما يقال : عصب الحياة، فلابد من حمايته .

رابعاً : حماية الأعراض (وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) هذا لحماية الأعراض .

فهذه آيات عظيمة جامعة لمصالح الدين والدنيا، فلابد من العناية بها؛ فهماً وتطبيقاً .

٢–وجوب تبليغ العلم .

٣–التحريم والتحليل مرجعه إلى الله .

٤-وجوب الاهتمام بهذه الوصايا .

٥-تحريم الشرك .

٦- أن الشرك أعظم الذنوب وأكبرها .

٧-وجوب التوحيد .

٨- وجوب الإحسان إلى الوالدين .

٩- علو منزلة الإحسان إلى الوالدين .

١٠- من كبائر الذنوب قتل الأولاد خوفاً من الفقر .

١١- أن الرزق بيد الله .

١٢- وجوب الاعتماد على الله .

١٣- وجوب الابتعاد عن جميع الفواحش .

١٤- الابتعاد عن كل سبب ووسيلة تؤدي إلى الحرام .

١٥-تحريم قتل النفس بغير حق ، وأن ذلك من كبائر الذنوب .

١٦-الاهتمام بهذه الوصايا والحرص عليها .

١٧-حرص الشريعة على أموال الضعفاء كاليتامى .

١٨-وجوب الاهتمام بمال اليتيم ، وتحريم أكله أو التصرف فيه بما يضره .

١٩- وجوب الوفاء بالكيل والميزان .

٢٠- أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

٢١-وجوب العدل في الأقوال والأفعال .

٢٢-الأمر بالعدل ولو على القريب .

٢٣-وجوب الوفاء بالعهود .

٢٤-وجوب اتباع صراط الله المستقيم .

٢٥- التحذير من اتباع السبل المضلة .

٢٦- أن اتباع السبل المضلة سبب للفرقة والشقاق .

٢٧- أن هذه الوصايا من عمل بها فإنها سبب لنيل التقوى .

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤))
[الأنعام : ١٥٤] .

(**ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**) ثُم هاهنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب هاهنا، كما قال الشاعر:
قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُم سَادَ أبوهُ ... ثُمّ قد سَادَ قَبْلَ ذَلكَ جَده .

- **قال السعدي** : (ثم) في هذا الموضع ، ليس المراد منها الترتيب الزماني ، فإن زمن موسى متقدم على تلاوة الرسول محمد ﷺ

هذا الكتاب ، وإنما المراد الترتيب الإخباري ، فأخبر أنه آتى موسى الكتاب .

- **قال ابن كثير** : وهاهنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) وكثيرًا ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا) ، وقوله في أول هذه السورة (قُلْ مَنْ أَنزلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) ، وبعدها (وَهَذَا كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ مُبَارَكٌ) ، وقال تعالى مخبرًا عن المشركين (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى) قال تعالى (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ) ، وقال تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ) .
- **قال الخازن** : ... وقيل : الذي أحسن هو موسى فيكون الذي بمعنى ما أي على ما أحسن وتقديره وآتينا موسى الكتاب إتماماً للنعمة عليه لإحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الأمر.
- **قال الرازي** : قوله تعالى (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) فيه وجوه :

لأول : التقدير : ثم إني أخبركم بعد تعديد المحرمات وغيرها من الأحكام ، إن آتينا موسى الكتاب ، فذكرت كلمة "ثم" لتأخير الخبر عن الخبر ، لا لتأخير الواقعة ، ونظيره قوله تعالى (وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ) .

والثاني : أن التكاليف التسعة المذكورة في الآية المتقدمة التكليف لا يجوز اختلافها بحسب اختلاف الشرائع بل هي أحكام واجبة الثبوت من أول زمان التكليف إلى قيام القيامة.

وأما الشرائع التي كانت التوبة مختصة بها ، فهي إنما حدثت بعد تلك التكاليف التسعة ، فتقدير الآية أنه تعالى لما ذكرها قال : ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً ، ثم بعد ذلك آتينا موسى الكتاب.

الثالث : أن فيه حذفاً تقديره : ثم قل يا محمد إنا آتينا موسى ، فتقديره : اتل ما أوحى إليك ، ثم اتل عليهم خبر ما آتينا موسى.

وقيل : ثم بمعنى الواو يعني وآتينا موسى الكتاب { تَمَامًا عَلَى الذى أَحْسَنَ }

(**تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ** أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تمامًا كاملاً جامعاً لجميع ما يحتاج إليه في شريعته، كما قال (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) .

- وقوله (عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ) أي: جزاء على إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ) ، وكقوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)، وقوله (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) .

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ) يقول: أحسن فيما أعطاه الله.

وقال قتادة: من أحسن في الدنيا تمم له ذلك في الآخرة.

(**وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ**) يحتاجون إلى تفصيله ، من الحلال والحرام ، والأمر والنهي ، والعقائد ونحوها .

(**وَهُدًى**) إلى ربهم يهديهم إلى الصراط السوي .

(**وَرَحْمَةً**) فإن العمل بكتب الله رحمة وهداية ونور للبشرية ، وبها تحصل السعادة والخير الكثير .

(**لَعَلَّهُم**) بسبب إنزالنا الكتاب والبينات عليهم .

(**بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ**) أي : يؤمنون بالبعث ولقاء الله وحسابه .

فإن الكتاب اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال ، ما يوجب لهم الإيمان بلقاء ربهم والاستعداد له .

الفوائد :

١- إثبات رسالة موسى .

٢- أن الله أنزل على موسى كتاباً .

٣-أن كتب الله كاملة تامة .

٤- فضل الإحسان ، وأن الله يثيب المحسن خير الجزاء .

٥- أن كتب الله هداية ورحمة للناس .

٦-وجوب الإيمان باليوم الآخر .

(**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**) .

[الأنعام : ١٥٥] .

(**وَهَذَا كِتَابٌ**) أي : القرآن الكريم .

وسمي القرآن كتاباً : لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ : كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) .

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة : قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا ، ونقرؤه من هذه الكتب .

(**أَنزَلْنَاهُ**) أي : منْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "عَلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى خَيْرِ الْوَرَى" مُحَمَّدٍ ﷺ .

قَالَ تَعَالَى (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ...) .

وقال تَعَالَى (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) .

وَقَالَ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) .

وَقَالَ تعالى (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) .

وقال تعالى (المص، كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ...) .

وَقَالَ تَعَالَى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، قَيِّمًا) .

وقال تعالى (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وَقَالَ تَعَالَى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) .

(**مُبَارَكٌ**) أي : كثيرُ المنافع ديناً ودنيا .

(**فَاتَّبِعُوهُ**) واتباعه يكون بالعمل به ، من الأوامر والنواهي والأحكام.

- **قال ابن عاشور**: وتفريع الأمر باتباعه على كونه منزلاً من الله، وكونه مباركاً ، ظاهر: لأنّ ما كان كذلك لا يتردّدُ أحد في اتّباعه.

(**وَاتَّقُواْ**) الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أى : لترحموا بواسطة اتباعه والعمل بما فيه.

الفوائد :

١- أن من أسماء القرآن الكتاب .

٢- بركة القرآن الكريم .

٣- الحرص على القرآن تلاوة وتدبراً وتطبيقاً لتحصل بركته .

٤- أن القرآن منزل من عند الله غير مخلوق .

٥-وجوب اتباع القرآن الكريم والعمل به .

٦- وجوب تقوى الله .

٧- أن العمل بالقرآن الكريم سبب لرحمة الله .

(أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ (١٥٧))

[الأنعام : ١٥٦ – ١٥٧] .

(**أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا**) قال ابن جرير: معناه: وهذا كتاب أنزلناه لئلا يقولوا (إِنَّمَا أُنزلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا) يعني: لينقطع عذرهم، كما قال تعالى (وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ [وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

- **قال ابن جرير** : فقطع الله بإنزاله القرآن على محمد ﷺ حجتهم تلك .
- **قال البغوي** : قوله تعالى (أَنْ تَقُولُوا) يعني: لئلا تقولوا، كقوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) ، أي: لئلا تضلا .

وقيل: معناه أنزلناه كراهة (أَنْ تَقُولُوا) .

- قيل في سبب نزولها : أن كفار مكة قالوا : قاتل الله اليهود والنصارى ، كيف كذَّبوا أنبيائهم ؛ فوالله لو جاءنا نذير وكتاب ، لكنَّا أهدى منهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل.

(**وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ**) أي: وما كنا نفهم ما يقولون؛ لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن مع ذلك في شغل وغفلة عما هم فيه.

- **قال الكسائي** (وإن كنا عن دراستهم لغافلين) لا نعلم ما هي، لأن كتبهم لم تكن بلُغَتِنَا، فأنزل الله كتاباً بلغتهم لتنقطع حجتهم.
- **قال البغوي** : معناه أنزلنا عليكم القرآن لئلا تقولوا إن الكتاب أنزل على من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيه وغفلنا عن دراسته، فتجعلونه عذرا لأنفسكم .
- **قال الشوكاني** : ومرادهم إثبات نزول الكتابين مع الاعتذار عن اتباع ما فيهما بعدم الدراية منهم والغفلة عن معناهما .
- **قال ابن الجوزي** : فأما الخطاب بهذه الآية ، فهو لأهل مكة ؛ والمراد : إثبات الحجة عليهم بانزال القرآن كي لا يقولوا يوم القيامة

: إن التوراة والإنجيل أنزلا على اليهود والنصارى ، وكنا غافلين عما فيهما.

(**أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ**) أي: وقطعنا تَعَلُّلكم أن تقولوا: لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ (فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا) ،

- **قال الشنقيطي** : ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ مِنْ حُكْمِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ قَطْعَ عُذْرِ كُفَّارِ مَكَّةَ ؛ لِئَلَّا يَقُولُوا : لَوْ أُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ لَعَمِلْنَا بِهِ ، وَلَكُنَّا أَهْدَى مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، الَّذِينَ لَمْ يَعْمَلُوا بِكُتُبِهِمْ ، وَصَرَّحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ ، مَا زَادَهُمْ نُزُولُهُ إِلَّا نُفُورًا وَبُعْدًا عَنِ الْحَقِّ ؛ لِاسْتِكْبَارِهِمْ وَمَكْرِهِمُ السَّيِّئِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) .

(**فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ**) يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما في القلوب، ورحمة من الله بعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه.

(**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا**) الاستفهامُ إنكاري ، أي لا أحد أظلم من الذين كذّبوا بآيات الله ، وصدف عنها .

- قوله تعالى (وَصَدَفَ عَنْهَا) أي: صرف الناس وصدهم عن ذلك قاله السدي.

وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة (وَصَدَفَ عَنْهَا) أعرض عنها.

وقول السدي هاهنا فيه قوة؛ لأنه قال (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) كما تقدم في أول السورة (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ) ، وقال تعالى (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ) ، وقال في هذه الآية الكريمة (سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ) .

وقد يكون المراد فيما قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) أي: لا آمن بها ولا عمل بها، كقوله تعالى (فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) ، ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتمال الكافر على التكذيب بقلبه، وترك العمل بجوارحه، ولكن المعنى الأول أقوى وأظهر . (تفسير ابن كثير) .

- **ورجحه الشنقيطي فقال** : وَقَالَ السُّدِّيُّ (صَدَفَ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُتَعَدِّيَةٌ لِلْمَفْعُولِ ، وَالْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ صَدَّ غَيْرَهُ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ ، وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ لِقَوْلِ السُّدِّيِّ ؛ لِأَنَّ إِعْرَاضَ هَذَا الَّذِي لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْهُ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ، صَرَّحَ بِهِ فِي قَوْلِهِ : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، إِذًا لَا إِعْرَاضَ أَعْظَمُ مِنَ التَّكْذِيبِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : وَصَدَفَ عَنْهَا ، أَنَّهُ صَدَّ غَيْرَهُ عَنْهَا ، فَصَارَ جَامِعًا بَيْنَ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ .

- **قال أبو السعود** : أي صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال .

(**سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ**) وعيد لهم ، أي : سنجزي ونعاقب هؤلاء المعرضين عن آيات الله وحججه الساطعة شديد العقاب بسبب إعراضهم عن آيات الله وتكذيبهم لرسله .

الفوائد :

١- أن من حكم إنزال القرآن إقامة الحجة على الناس .

٢- أن الله لا يعذب قوماً إلا بعد إقامة الحجة عليهم .

٣- عدل الله تعالى .

٤- الرد والإنكار على هؤلاء المشركين ، حيث كذبوا بالقرآن لما جاءهم .

٥-أن القرآن يرد على حجج المكذبين .

٦-أن القرآن بينة وهدى ونور لمن تمسك به .

٧-أنه لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وقال : شعر ، أساطير الأولين .

٨- أن أهل الضلال والكفر ليسوا على درجة واحدة بضلالهم ، فأشدهم من ضلّ وأضل غيره .

٩-تهديد ووعيد لمن صد الناس عن دين الله .

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)) .
[الأنعام : ١٥٨] .

(**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ**) أي : ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم .

وقيل : إتيان الملائكة لإنزال العذاب والخسف بهم.

- الخطاب : الضمير في (ينظرون) عائد على الذين قيل لهم (فقد جاءكم بينة) وهم العادلون بربهم من العرب الذين مضى أكثر السورة في جدالهم أي ما ينتظرون .

(**أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**) في موقف القيامة للفصل بين خلقه .

(**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**) فسرها النبي ﷺ بطلوع الشمس من مغربها ، فإنه إذا طلعت الشمس لا يقبل الإيمان بعدها .

عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) متفق عليه .

وعن أبي ذر . قال : قال رسول الله ﷺ (أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ قلت : لا أدري ، قال : إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة ، ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعي ، يوشك يا أبا ذر ! أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت ، وذلك حين (لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ..) متفق عليه .

وقد جاء في الحديث عنه ﷺ (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه) رواه مسلم .

وفي الحديث الآخر – عن أبي موسى – قال ﷺ (إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من معربها) رواه مسلم .

(**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**) وهو طلوع الشمس من مغربها .

- **قال الخازن** : قال جمهور المفسرين : هو طلوع الشمس من مغربها .

قال القاسمي : ذهب الجمهور إلى أن المراد بـ (البعض) في الآية هو طلوع الشمس من مغربها .

(**لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ**) أي : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإن

كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم ، وإن كان مخلّطاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه كما جاء بذلك الأحاديث .

- **قال الخازن** : يعني لا ينفع من كان مشركاً إيمانه ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة .

(**أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**) أي : ولا ينفع المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك .

- **قال الطبري** : معنى الآية لا ينفع كافراً لم يكن آمن قبل الطلوع ، إيمانٌ بعد الطلوع . ولا ينفع مؤمناً لم يكن عمل صالحاً قبل الطلوع ، عملٌ صالح بعد الطلوع . لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ ، حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة . وذلك لا يفيد شيئاً . كما قال تعالى (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا) وكما ثبت في الحديث الصحيح (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) .

(**قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ**) تهديد شديد للكافرين، ووعيد أكيد لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك. وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها، لاقتراب وقت القيامة، وظهور أشراطها .

- ففي هذه الآية تهديد شديد للمشركين ، بأن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ، أو يأتي الله لفصل القضاء ، أو خروج الشمس من مغربها فعند ذلك لا ينفع الإيمان .

- **قال ابن عطية** : فمقصد هذه الآية تهديد الكافرين بأحوال لا يخلون منها كأنه قال : هل ينظرون مع إقامتهم على الكفر إلا الموت الذي لهم بعده أشد العذاب ، والأخذات المعهودة لله عز وجل ، أو الآيات التي ترفع التوبة وتعلم بقرب القيامة.

- في موضعين لا يقبل فيهما الإيمان :

الأول : إذا طلعت الشمس من مغربها .

لقوله تعالى (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) .

قوله (أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) المراد بذلك : طلوع الشمس من مغربها ، كما صحت بذلك الأحاديث

وكما في حديث أبي هريرة السابق (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) متفق عليه .

وحديث أبي ذر (أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ قلت : لا أدري ، قال : إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة ، ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعي ، يوشك يا أبا ذر ! أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت ، وذلك حين (لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ..) متفق عليه .

- **قال ابن الجوزي** : وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان .

- **وقال القرطبي** : قال العلماء : وإنما لا ينفع نفساً إيمانُها عند طلوعها من مغربها ؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخْمَدُ معه كلّ شهوة من شهوات النفس ، وتَفْتُرُ كلّ قوّة من قوى البدن ؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدُنُو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدّواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تُقبل توبته، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت.

- **وقال السعدي** : والحكمة في هذا ظاهرة ، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا

وجدت الآيات صار الأمر شهادة ، ولم يبق للإيمان فائدة ، لأنه يشبه الإيمان الضروري ، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عما هو فيه كما قال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ) .

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها وأن الناس إذا رأوها آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم ويُغلق حينئذ بابُ التوبة.

الثاني : عند الاحتضار .

قال تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) .

فقوله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أي: وليس قبول التوبة ممن ارتكب السيئات والمنكرات واستمر عليها، (حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) أي : حتى إذا فاجأهم الموت وحضرت أسبابه وعلاماته وبلغت الحلقوم، (قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) أي : قال في هذه الحال حضور الموت ، واليأس من الحياة ، إني تبت الآن ، فهؤلاء لا تنفعهم توبتهم في هذه الحال ، لأن توبتهم توبة اضطرار لا اختيار كما قال تعالى عن فرعون (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) وقال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) .

ولحديث الباب (... ما لم يغرغر) أي تبلغ روحه رأس حلقه ، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار ؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله.

وعلى هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش ؛ لأن علمه بالله تعالى وبنبيه ﷺ وبوعده قد صار ضرورة .

الفوائد :

١- تهديد الكفار .

٢- أن التوبة لا تقبل عند الغرغرة .

٣- تهديد الكفار بيوم القيامة .

٤- أن من شروط قبول التوبة أن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها .

٥- أن من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها .

٦-أن للساعة علامات .

٧- أن الإيمان إنما ينفع إذا كان غيباً .

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (١٥٩)) .

[الأنعام : ١٥٩] .

(**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**) قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسُّدِّي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى..

وقد وصفُوا بالتفرق ؛ قال الله تعالى (وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة) .

وقال (وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ) .

خرج أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وابن حبان وصححه الحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة) .

- **قال الرازي** : في الآية أقوال :

القول الأول : المراد سائر الملل.

قال ابن عباس : يريد المشركين بعضهم يعبدون الملائكة ويزعمون أنهم بنات الله ، وبعضهم يعبدون الأصنام ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فهذا معنى فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، أي فرقاً وأحزاباً في الضلالة.

وقال مجاهد وقتادة : هم اليهود والنصارى.

والقول الثاني : أن المراد من الآية أخذوا ببعض وتركوا بعضاً ، كما قال تعالى (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) وقال أيضاً (إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ بالله وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرّقُواْ بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ) .

والقول الثالث : قال مجاهد : إن الذين فرقوا دينهم من هذه الأمة ، هم أهل البدع والشبهات واعلم أن المراد من الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة ، وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع .

- **قال ابن كثير** : والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه (وَكَانُوا شِيَعًا) أي: فرقًا كأهل الملل والنحل -وهي الأهواء والضلالات -فالله قد بَرَّأَ رسوله مما هم فيه. وهذه الآية كقوله تعالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) ، وفي الحديث: نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلات، ديننا واحد .

فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل، من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل بُرآء منها، كما قال (لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) .

(**إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**) كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) .

الفوائد :

١- التحذير من التفرق والشقاق .

٢- الحذر من التشبه باليهود والنصارى في تفرقهم في دينهم .

٣- وجوب الاجتماع والتآلف .

٤-أن المرجع إلى الله .

٥- تهديد أهل الاختلاف والشقاق بلقاء الله يوم القيامة .

٦- عموم علم الله تعالى .

﴿ مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾

[الأنعام : ١٦٠] .

(**مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**) أي : من جاء يوم القيامة بحسنة واحدة جوزي عليها بعشر حسنات أمثالها فضلاً من الله وكرماً ، وهو أقل المضاعفة للحسنات فقد تنتهي إلى سبعمائة ضعف

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى، وهي قوله: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) .

وفي الصحيحين : عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ بنِ عبد المطلب رضِيَ اللهُ عنهما، عن رَسُول الله ﷺ ، فيما يروي عن ربهِ ، تباركَ وتعالى ، قالَ: « إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَها اللهُ تَبارَكَ وتَعَالى عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً ،وإنْ هَمَّ بهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعمئةِ ضِعْفٍ إلى أَضعَافٍ كَثيرةٍ ، وإنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلةً ، وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » .

- والحسنة شرعاً : اسم لكل ما تُوعّد عليه بالثواب الحسن ، وهي كل ما أمر به الشرع .

والسيئة شرعا : اسم لكل ما تُوعّد عليه بالثواب السيئ ، وهي كل ما نهى عنه الشرع نهي تحريم .

- وأما زيادة المضاعفة على العشر لمن شاء الله أن يضاعف له تكون حسب الإخلاص والإحسان في العمل .

كما قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

وعن ابن مسعود قال (جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله! هذه في سبيل الله، فقال: لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة) رواه مسلم

وفي حديث الصيام (قال تعالى : إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أجزي به) متفق عليه .

- **قال النووي** : التَّضْعِيف بِعَشْرَةِ أَمْثَالهَا لَا بُدّ بِفَضْلِ اللَّه وَرَحْمَته وَوَعْده الَّذِي لَا يُخْلَف ، وَالزِّيَادَة بَعْد بِكَثْرَةِ التَّضْعِيف إِلَى سَبْعمِائَةِ ضِعْف ، وَإِلَى أَضْعَاف كَثِيرَة ، يَحْصُل لِبَعْضِ النَّاس دُون بَعْض عَلَى حَسَب مَشِيئَته سُبْحَانه وَتَعَالَى .
- **وقال ابن رجب** : إن مضاعفة الحسنات زيادة على العشر تكون بحسب حسن الإسلام ، ويكون بحسب كمال الإخلاص ، وبحسب فضل ذلك العمل في نفسه ، وبحسب الحاجة إليه .
- **وقال ابن حجر** : وهذا يدل على أن تضعيف حسنة العمل إلى عشرة مجزوم به وما زاد عليها جائز وقوعه بحسب الزيادة في الإخلاص وصدق العزم وحضور القلب وتعدى النفع كالصدقة الجارية والعلم النافع والسنة الحسنة وشرف العمل ونحو ذلك
- **وقال الشيخ ابن عثيمين** : (إلى سبعمائة ضعف) وهذا تحت مشيئة الله تعالى ، فإن شاء ضاعف هذا ، وإن شاء لم يضاعف .
- **قال ابن تيمية** : وفي الصحيحين (إن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها

فسقته به فغفر لها) وفي لفظ في الصحيحين (أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له) .

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها ، وإلا **فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها** .

وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق ، فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه ، فغفر له بذلك ، **فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص** ، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض ، **وليس كل من نحَّى غصن شوك عن الطريق يغفر له** .

وقال : والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة ، بل لحقائقها التي في القلوب ، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلاً عظيماً .

وقال رحمه الله : والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله ، فيغفر الله له به كبائر ، كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : (يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ، فيقال : هل تنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول : لا ظلم عليك ، فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله ، فيقول: أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فتوضع هذه البطاقة في كفه ، والسجلات في كفة ، فثقلت البطاقة وطاشت السجلات) .

فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق ، كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون : لا إله إلا الله ، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجّح قول صاحب البطاقة .

(**وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ**) أي : بالخلصة السيئة التي تسوء صاحبها إذا رآها في صحيفته يوم القيامة .

(**فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا**) أي : فجزاء السيئة سيئة واحدة مثلها .

- وهذا دليل على أن السيئات لا تضاعف مطلقاً، فقول بعض العامة: إن السيئات تضاعف في مكة كما تضاعف الحسنات، هذا الإطلاق لا يجوز ، لأن السيئات لا تضاعف مطلقاً كما في هذه الاية .
- **فائدة** : قوله ﷺ في حديث ابن عباس السابق (وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً) أي: من همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة إذا كان تركها من خشية لله كما في رواية لمسلم (إنما تركها من أجلي أو من جرائي) .

ومثل قصة الذي همّ بابنة عمه بسوء فتركها لله ، فأجاب الله دعاءه وفرج همه فانفرجت الصخرة .

- فإن تركها بسبب عدم القدرة عليها مع الاشتغال بتحصيل أسبابها ، فهذا يعاقب كمن عمِل ، فتكتب عليه سيئة .

قال الشيخ ابن عثيمين : من همّ بالسيئة وسعى في تحصيلها لكن عجز عنها، فهذا يكتب عليه وزر السيئة كاملاً، دليل ذلك، قول النبي ﷺ (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يا رسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه) .

- **قال ابن كثير** : واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام:

تارة يتركها لله فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونيَّة؛ ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: "فإنما تركها من جرائي" أي: من أجلي.

وتارة يتركها نسيانًا وذُهولا عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينو خيرًا ولا فعل شرًا.

وتارة يتركها عجزاً وكسلاً بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا يتنزل منزلة فاعلها، كما جاء في الحديث، في الصحيحين: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار". قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: "إنه كان حريصًا على قتل صاحبه .

(**وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**) فلا ينقصون من حسناتهم ، ولا يزاد عليهم في السيئات ، ولا يعاقبون بظلم غيرهم

قال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً) . ظلماً : أي : زيادة في السيئات (ولا هضماً) أي نقصاً في الحسنات .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً) .

- فالله لا يظلم لكمال عدله .

الفوائد :

١- سعة رحمة الله ، حيث إن الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها .

٢- مصداق لحديث (رحمتي سبقت غضبي) .

٣-الترغيب بالحسنات .

٤- أن الله يحب العفو والمغفرة .

٥-تنزيه الله عن الظلم لكمال عدله .

(**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١)**) .
[الأنعام : ١٦١] .

(**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) يقول الله تعالى آمرًا نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف .

(**دِينًا قِيَمًا**) أي: قائمًا ثابتًا .

(**مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**) أي : دين إبراهيم وهو التوحيد . (**حَنِيفًا**) مقبلاً على الله مائلاً عن الشرك .

(**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) هذه توكيد للتي قبلها .

- ملة إبراهيم : هي الحنيفية السمحة ، وهي الإسلام كما قال تعالى (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

- والْحَنِيفِيَّةُ :دِينُ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ؛ ولكِن أُضِيفت إلى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام ؛ لأَنَّه أَكْمَلُ الخَلْقِ تحقِيقًا للتَّوحيدِ مع نبيِّنا ﷺ ؛ وإِبْرَاهِيمُ: الأَبُ، ومُحَمَّدٌ ﷺ : الِابنُ؛ فاستَحقَّ أن تُنسَبَ إلى الأَبِ دُون الابْنِ؛ فيقال: مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ على جهةِ التَّشْرِيفِ له؛ وإِن كانَت هي ملَّةَ الأنبيَاء جَميعاً .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

الفوائد :

١- أن النبي ﷺ عبد يؤمر وينهى .

٢-أن الهداية من فضل الله .

٣-الثناء على ملة إبراهيم .

٤-أن الشرك ممتنع على جميع الأنبياء .

٥-الثناء على إبراهيم بتوحيده وعدم شركه .

٦- فضل التوحيد .

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)) .

[الأنعام : ١٦٢-١٦٣] .

(**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي**) الظاهر أن الصلاة هي التي فرضت عليه.

وقيل : صلاة الليل.

وقيل : صلاة العيد لمناسبة النسك.

وقيل : الدعاء والتذلل والنسك يطلق على الصلاة أيضاً وعلى العبادة .

- **قال ابن عاشور** : وجعل صلاته لله دون غيره تعريضاً بالمشركين إذ كانوا يسجدون للأصنام.

(**وَنُسُكِي**) النّسك جمع نسِيكة ، وهي الذّبيحة ، وكذلك قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم.

والمعنى : ذَبْحِي في الحج والعمرة.

واختار هذا القول الطبري ، والقرطبي ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، وابن كثير .

واستدلوا بالنظائر القرآنية : فقد ورد شاهد في القرآن لفظ النسك المراد الذبح ، قال تعالى (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) .

والسياق القرآني : قال ابن عطية : ويحسن تخصيص الذبيحة بالذكر في هذه الآية ، أنها نازلة قد تقدم ذكرها والجدل فيها في السورة .

وقال قوم : النسك في هذه الآية جميع أعمال البر والطاعات ؛ من قولك نسك فلان فهو ناسك ، إذا تعبّد.

وقيل : المناسك أعمال الحج.

(**وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي**) أى : ما أعمله في حياتي من أعمال وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح.

وقيل : وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ ، أي حياتي وموتي له.

- **قال ابن عاشور** : ...وبهذا يكون ذكر الممات مقصوداً منه استيعاب جميع مدّة الحياة حتّى زمن الإشراف على الموت.

(**لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) كل ذلك لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ فأنا متجرد تجرداً كاملاً لخالقي ورازقي بكل خالجة في القلب ، وبكل حاجة في هذه الحياة.

فهو - سبحانه - رب كل شيء. ولا شريك له في ملكه ، بذلك القول الطيب ، وبذلك العمل الخالص أمرت وأنا أول المسلمين

الممتثلين لأوامر الله والمنتهين عن نواهيه من هذه الأمة.

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (رب العالمين) صفة تشير إلى سبب استحقاقه أن يكون عمل مخلوقاته له لا لغيره ، لأنّ غيره ليس له عليهم نعمة الإيجاد ، كما أشار إليه قوله في أوّل السورة (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .
- **قال ابن عطية** : هذا أمر من الله عز وجل أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها وتصرفه مدة حياته وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله عز وجل وإرادة وجهه طلب رضاه ، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل .

(**لاَ شَرِيكَ لَهُ**) في ألوهيته ولا في ربوبيته ولا في أسمائه وصفاته .

(**وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**) قال قتادة: أي من هذه الأمة.

وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

وقال يوسف، عليه السلام (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) .

وَقَالَ مُوسَى (يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَنزلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ [بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ) .

وقال تعالى (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) .

فأخبر الله تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضًا، إلى أن نسخت بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم التي لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصورة، وأعلامها مشهورة إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال عليه [الصلاة السلام (نحن مَعاشِر الأنبياء أولاد عَلات ديننا واحد) فإن أولاد العلات هم الأخوة من أب واحد وأمهات شَتَّى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات . (تفسير ابن كثير) .

- **قال الخازن** : قوله تعالى (وأنا أول المسلمين) قال قتادة : يعني من هذه الأمة وقيل معناه وأنا أول المستسلمين لقضائه وقدره.

الفوائد :

١- وجوب إخلاص العبادات والطاعات كلها لله تعالى .

٢-إثبات الربوبية العامة لله تعالى .

٣- انفراد الله بكل شيء .

٤- عبودية النبي ﷺ لربه .

(قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)) .

[الأنعام : ١٦٤] .

(**قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**) يقول تعالى (قُلْ) يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه (أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا) أي: أطلب ربا سواه، وهو رب كل شيء، يَرُبّني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري، أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر.

هذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له. وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرًا في القرآن كما قال تعالى مرشدًا لعباده أن يقولوا (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ، وقوله (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) ، وقوله (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا) ، وقوله (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا) ، وأشباه ذلك من الآيات.

(**وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا**) إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر ، كما قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) .

(**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**) وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد ، وهذا من عدله تعالى، كما قال (وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) .

وقوله (فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا) قال علماء التفسير : فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته.

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ) معناه: كل نفس مرتهنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين، فإنه قد تعود بركات أعمالهم الصالحة على ذراريهم، كما قال في سورة الطور (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْ) .

(**ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ**) يوم القيامة .

(**فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**) من خير وشر ، ويجازيكم على ذلك أوفى الجزاء .

الفوائد :

١- إثبات الربوبية العامة لله تعالى .

٢- أن الخالق هو المستحق للعبادة .

٣- الإنكار على من طلب رباً غير الله .

٤- تنزيه الله عن الظلم .

٥- من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها .

٦-أن المرجع إلى الله .

٧-أن في يوم القيامة يظهر كل شيء ويبين .

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ

رَّحِيمٌ (١٦٥)) .

[الأنعام : ١٦٥] .

(**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ**) أي: جعلكم تعمرون الأرض جيلاً بعد جيل، وقَرْنا بعد قرن، وخَلَفا بعد سَلَف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ) .

وكقوله تعالى (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ) .

وقوله تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) .

وقوله (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) .

- **قال السعدي** : قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ) أي: يخلف بعضكم بعضا، واستخلفكم الله في الأرض، وسخَّر لكم جميع ما فيها، وابتلاكم، لينظر كيف تعملون.

(**وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**) أي: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك كقوله (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا) وقوله تعالى (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا) .

- **قال الرازي** : في الشرف والعقل ، والمال ، والجاه ، والرزق ، وإظهار هذا التفاوت ليس لأجل العجز والجهل والبخل ، فإنه تعالى متعال عن هذه الصفات ، وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان .

(**لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**) أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره.

- **قال القرطبي** : والابتلاء الاختبار ؛ أي ليظهر منكم ما يكون غايته الثواب والعقاب.

قال الله تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الاسواق وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً) .

وقد روى مسلم في صحيحه، من حديث أبي نَضْرة، عن أبي سعيد الخدري، ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ (إن الدنيا حُلْوَة خَضِرَة وإن الله مُسْتَخْلِفكم فيها لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) .

(**إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**) ترهيب وترغيب، أن حسابه وعقابه سريع ممن عصاه وخالف رسله (وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خير وطلب.

- **فإن قيل** : فكيف جعله سريعاً وهو في الآخرة؟ فعنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أن كل آت قريب ، كقوله (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) .

والثاني : إن ربك سريع العقاب في الدنيا لمن استحق منه تعجيل العقاب فيها.

والثالث : أنه إذا شاء عاقب ، فصار عقابه سريعاً لأنه يقترن بمشيئته ، وهذا قول ابن بحر.

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (إن ربك سريع العقاب) فيه قولان.

أحدهما : أنه سماه سريعاً ، لأنه آتٍ ، وكل آتٍ قريبٌ .

والثاني : أنه إذا شاء العقوبة أسرع عقابه .

- **وقال القرطبي** : وقال (سَرِيعُ الْعِقَابِ) مع وصفه سبحانه بالإمهال ، ومع أنّ عقاب النار في الآخرة ؛ لأن كل آت قريب ؛ فهو سريع على هذا.

كما قال تعالى (وَمَآ أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) . وقال (يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً) .

ويكون أيضاً سريع العقاب لمن استحقه في دار الدنيا ؛ فيكون تحذيراً لمواقِع الخطيئة على هذه الجهة.

الفوائد :

١- أن الله جعل الناس خلائف في الأرض .

٢- حكمة الله البالغة في رفع الناس بعضهم على بعض .

٣- أن الدنيا دار اختبار وابتلاء .

تم تفسير سورة الأنعام كاملاً

نسأل الله عز وجل أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

الشيخ/ سليمان بن محمد اللهيميد